افتتاحية

كلمة السيد بوعلام باقى عضو اللجنة المركزية ووزير الشؤون الدينية بمناسبة انعقاد الدورة العادية لاطارات وزارة الشؤون الدينية ومديرى الولايات للشؤون الدينية ٠

بسم الله الرحمن الرحيم

أيها الاخوان ،

كنا اجتمعنا فى مثل هذه الايام من السنة الماضية وكنا وعدناكم بأن الوزارة ستبذل قصارى جهدها فى حل كل المشاكل المطروحة على القطاع الدينى الذى شرفنا الله بالانتماء اليه والاشراف عليه وها نحن اليوم نلتقى لنستعرض معكم ما تم انجازه منذ ذلك الوقت وما هو فى طريق الانجاز ولنتدارس بيننا الاوضاع خاصة بوزارتنا على ضوء المعطيات الجديدة، لا سيما وان القيادة السياسية قد أولت القطاع الدينى عناية بالغة فحققت بذلك آمالنا وآمال شعبنا المسلم فى كثير من الميادين وسوف تحقق ان شاء الله كل ما نصبوا اليه من خير لبلادنا فى ظل شريعتنا الاسلامية السمحة التى اعتمدت الشورى والعدالة الاجتماعية حكما للامة ٠

ان اللجنة المركزية للحزب قررت فى دورتها الثانية تعميم تعليم مادة الدين فى جميع مستويات التعليم الابتدائى والثانوى والعالى مع جعلها مادة أساسية كما قررت تعليم القرآن فى مدارس قرآنية تابعة للمساجد حرصا على تحفيظ كتاب الله لابنائنا وبناتنا وهذا ما يطبق فى القريب ان شاء الله وان ما يتمتع به الدين فى بلادنا يدعو الى الارتياح بل الى الاعتزاز والفخر ٠

فحالة الائمة الادارية قد تمت تسويتها بالترسيم والترتيب لكل من توفرت فيه الشروط لذلك وحالتهم المادية قد سويت بمحو الفوارق التى كانت موجودة بينهم وبين غيرهم من الموظفين وهذا بعد أن وقع سيادة الاخ الشاذلى بن جديد رئيس الجمهورية والامين العام للحزب المرسوم رقم 80 ـ 17 المؤرخ فى 15 ربيع الاول عام 1400 الموافق لـ 2 فبراير 1980 ٠

ومساجدنا مفتوحة أبوابها من الفجر الى العشاء للمصلين والذاكرين والدارسين ، وهذا شىء تنفرد به بلادنا والحمد لله ٠

وقد ضاقت رحاب بعض المساجد أمام الجموع المتدفقة من المؤمنين

شيوخهم وكهولهم وشبانهم وان كل ما نرجوه وننتظره من الجميع هو أن يسود الوئام وأن تبقى حرمة مساجدنا محفوظة لا ينتهكها أي كان فالمسجد يجمع ولا يفرق وكل من سعى فى التفرقة بين فئات المسلمين ، الدين منه براء مهما كانت علته التى يتعلل بها لان النبى صلى الله عليه وسلم تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا هالك .

ان للمساجد آدابا ينبغى أن يرعاها كل من دخلها كبيرا كان أو صغيرا وليس من الآداب فى شىء أن تصبح مساجدنا وهي بيوت الله محلا للضوضاء والغوغاء والجدال والفتنة،فيا ويح من يتسبب فى ايقاد نار الفتنة فى المسجد ولو بدعوى محاربة البدعة فقد سبق الامام عبد الحمي بن باديس وسبقت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كل أحد بمحاربة البدع والخرافات فطهرت منها بيوت الله ولا بدعوى تغيير المنكر ، فالمنكر لا يغير بالمساجد لانها منه محفوظة بحكمة من الله ما لم يتعد على حرمتها أحد حيث أن كل من يجتمع فيها انما يجتمع على التقوى من الله فلنتق الله فى بيوت الله وليسع كل داعية بالمسجد فى طلب مرضاة الله وليدع الى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة وليتجنب كل ما من شأنه أن ينفر طائفة من المصلين ولو كانت طائفة أخرى عنه راضية عملا بقوله تعالى « **فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فضا غليظ القلب لا نفضوا من حولك** » وعملا بتوجيهات صاحب الرسالة صلوات الله عليه وسلامه بقوله « يسّروا ولا تعسّروا بشّروا ولا تنفّروا » .

انه ليس من آداب المسجد أن يسب بعض الدعاة غيرهم من المسلمين أو يلعنوهم من أعلى منبر المساجد وليس أهلا للدعوة من يطلب رضا بعض الناس فى شتم الآخرين وسبابهم والكل منا يعرف أن سباب المسلم فسوق بحكم الحديث الشريف والكل منا يعلم أن رسول الله (صلعم) لم يبعث سبابا ولا لعانا وانما بعث رحمة للناس كما قال عن نفسه فبمن نتأسى اذا لم نتأس برسول الله ؟ وأين هؤلاء من الاسوة الحسنة التى جعلها الله لنا فى رسوله المصطفى البشير ؟

ان الدين دين الله وليس حكرا على أولئك الذين يبيحون لانفسهم بغير حق تفكير الناس وهم يشهدون أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله فما توفى الله نبيه (صلعم) حتى أكمل للمسلمين دينهم وهو وحده أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين والحكم بما أنزل الله جامع شامل وليبدأ كل واحد منا بتحكيم شريعة الاسلام فى نفسه وأهله قبل أن يتوجه لاصلاح غيره من أفراد المجتمع فالله تبارك وتعالى يقول فى محكم كتابه « **وأنذر عشيرتك الاقربين** » فاذا أصلحنا أنفسنا فى جميع

مظاهر حياتنا الظاهرة والباطنة واذا اصلح كل منا أهله وأولاده تم صلاح المجتمع أسوة بما قام به رسول الله (صلعم) بين عشيرته وأهله وما سوى ذلك الا صيحة فى واد ونفخ فى رماد وما سوى ذلك الا ادعاء ودعوة الى الشيطان لا دعوة الى الله ٠

ان من الشعارات التى يرددها الكثير من محترفى السياسة تحت ستار الاسلام الحكم بما أنزل الله ٠

وان تحكم الرسول فيما شجر بيننا فلنرجع الى القرآن والى السنة ان الله يأمرنا اذا تنازعنا فى شىء أن نرده الى الله اننا كلنا مسلمون واننا كلنا ضد الشرك بالله واننا كلنا ضد الالحاد سواء تشخص هذا الالحاد فى الشيوعية أو في غيرها من المذاهب الاجتماعية الاخرى التحررية منها أو الرجعية سواء تشخص هذا الشرك فى الاديان الاخرى أو فى معتقدات بعض المسلمين أنفسهم، لكن كفرنا بالماركسية الملحدة يجعلنا أشد تمسكا بالاشتراكية التى اخترناها لبلادنا ٠ تطبيقا للكفالة الاجتماعية التى جاء بها الاسلام وقضى بها على الطبقية وسوى بفضلها بين الناس فتضمنها القرآن بمبادئها خشية أن يبقى الرزق دولة بين الاغنياء ويقع الترف فيفسد المجتمع ويتسبب فى دماره كما تضمنها الحديث بلفظها ومعانيها اذ ورد عن النبى (صلعم) انه قال ـ « الناس شركاء فى ثلاث الماء والكلأ والنار » ، ولا يخفى على أحد أن الماء والكلأ والنار كانت هي عناصر الحياة الثلاثة زمن النبى (صلعم) كما ورد عنه (صلعم) أنه قال ـ « أعطوا الاجير حقه قبل أن يجف عرقه » وورد عنه أيضا أنه قال « ما آمن بى من بات شبعانا وجاره الى جانبه طاو أي جائع» وقال : « أيما رجل مات ضياعا بين أغنياء فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله» وما هذه الاحاديث الا قليلا من كثير لا يتسع الوقت لذكرها كما ورد عن الخليفة عمر بن الخطاب (ض) انه قال : « لو أستقبلت من أمرى ما استدبرت لاخذت فضول أموال الاغنياء فقسمتها على الفقراء » أليست هذه هي الاشتراكية الحقة التى لا تدانيها اشتراكية ماركس ولا لينين الملحدة فما بال بعض الناس يريدون أن ينكروا للاسلام فضله فى هذا الميدان الاجتماعى وهو الذى سوى بين الناس وقضى على التفاضل الا بالتقوى فكان ديننا كله عدالة وحرية ومساواة ولم يكن أبدا دينا يدعو للطبقية أو للتخلف والجمود والرجعية كما يتوهمه الكثير من أعداء الاسلام أليس هذا هو التقدم يأتى به الاسلام فى حين كانت الامم الاخرى تغط فى نومها وتغرق فى غفلتها فحكم الله اذن فى تصحيح العقيدة أولاً وهو فى الاحسان الى الناس والرحمة بين العباد وان أبعد شىء عن الاسلام هو تعصب كل ذى رأي لرأيه ولو كان خاطئا وغلظة القلب واستعمال العنف مكان الاقناع والموعظة الحسنة ٠

ان حكم الله فى العمل بما ورد فى قرآنه وفى حديث رسولـه ولـم يرد فى القرآن ولا فى السنة ان قراءة القرآن بالمسجد ولو جهرا بدعة وقد ورد عـن النبى (صلعم) أنه قال : أفضل عبادة أمتى قراءة القرآن » ٠

وما ورد فى القرآن ولا فى السنـة ولا حتى فى كتب الفقه القديمة والحديثة أن اللحية المسدلة شرط فى صحة الصلاة وان غير الملتحى لا تصح الصلاة خلفه كما يدعيه بعض المتطفلين على الوعـظ والارشاد الذين غاب عنهم قول رسول الله (صلعم) : صلوا خلف كـل من قال لا اله الا الله » ٠

ان الايمان ليس فى المظهر ولا الاسلام انما هو فى القلب تلك المضغة الـتى اذا صلحت صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله ٠

وما ورد فى القرآن ولا فى السنـة ولا فى كتب الفقه القديمة والحديثـة ان الصلاة لا تصـح الا عـلى الارض العارية أو على الحصير دون غيره من الافرشة وان الساعة الحائطية لا ينبغى أن تعلق فى المساجد كما يريد البعض فرضه على غيرهم مـن المصليـن ، أن الدين لا ينحصر فى مذاهب مستـوردة يفهمها البعض من شبابنا انها وحدها الاسلام ويريدون تطبيقها فى هذا الوطن الذى هب فيه الناس على الاسـلام وشابوا عليه فكان هو أملهم فى الحياة وسلاحهم فى الكفاح الطويل ضد قوى الشر والفساد ٠

وهنا يبرز دور المسجد فى اصـلاح المجتمع وتربية الناس تربية اسلاميـة وأن دور المسجد لا يكمل الا اذا قـام الامام بكل واجباته التى فرضها عليـه الدين بحكم وظيفته وليس الاجر الـذى ينتظره الامام جزاء على عمله هو ذلك المرتب الذى يتقاضاه آخر كل شهـر من الدولة انما أجره عند الله وسـوف يجزى الجزاء الاوفى يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمـدا بعيدا فليحاسب الائـمـة أنفسهـم فى الدنيا قبل أن يحاسبهم الله فى الآخرة ٠

ان مسؤولية الامام مسؤولية كبرى فهو المعلم الذى يتعين عليه أن يعلـم الناس أمر دينهم وهو المربى الذى يدعو الى مكارم الاخلاق ويحذر الناس من كل مفسدة وهو المرشد الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، والامام قبل غيـره وأكثر من غيره لا يجوز له أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه لانه قـدوة سواء فى أقواله وافعاله وقد تكون هذه اما سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها واما سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها الى يوم القيامة ، واذا كان الامام كل هذا فلابد أن يكون أعلم من غيره وافقه منه حتى لا يقع فى الاثم ويوقع غيره فيه بحكم جهله لا سيمـا وان كل أولئك الاطفال والشبان الذين

يترددون على المساجد ويعمرونها في حاجة الى من يأخذ بيدهم ويرشدهم الى تعاليم دينهم كي يهتدوا اليها ولا يتبعوا سواها من السبل التى يخشى أن تضلهم عن سواء السبيل فليعمل كل واحد منا على ترسيخ العقيدة الخالصة فى عقول الناس ولنبق كلنا خادمين لدين الاسلام الحنيف بكل ما منحنا الله تبارك وتعالى من جهد وعلى الله قصد السبيل وهو الموفق الى سبيل الرشاد ·

انتشار أم الخبائث فى البلاد العربية
الـــداء والـــدواء

اللواء الركن محمود شيت خطاب
اليرموك ـ بغداد (العراق)

فى العالـــم

قدمت وزارة الصحة فى الولايـات المتحدة الامريكية الى (الكونكرس) الامريكى ، تقريرها السنوى لسنة 1978م، ذكرت فيه ان ميزانية الحكومة الامريكية تتكبد خسائر مالية سنوية مقدارهـــا ستة وخمسون ألف مليون دولار بسبب المسكرات ٠

وجاء فى هذا التقرير ما نصـــه : « ان تناول المسكرات يؤدى الى فاقد فى الانتاج يقدر بثلاثة واربعين مليون دولار سنويا ، يضاف اليها ثلاثة عشر الـــف مليون دولار سنويا لنفقات علاج الامراض الناتجة عن تعاطى المسكرات ٠

ان عشرة ملايين من المواطنيـــن الامريكيين يعانون مشاكل شتى فى : العمل ، العائلة ، الجرائم ، الصحـة ، النسل وغيرها ٠ يقف وراءها تعاطى المسكـــرات » ٠

وجاء فى التقرير عن الناحيـــة الطبية : « أصبـح من المقطـوع به أن المسكرات تساهم بشكل أو بآخـر فى الاصابة بالسرطان واضطرابات القلب وأمراض الكبد » (1) ٠

فاذا كانت خسائر الميزانية الامريكية الحكومية وحدها ، هذا المبلغ الهائـل سنويا بسبب المسكرات ، فكم خسائرها بسبب المخدرات والتدخين ؟ وكـم هي خسائر الافراد والجماعات التى يدفعونها فى شراء المسكرات والمخدرات والتدخين ويدفعونها فيما ينتج عنها من موبقات وعلاج صحى ؟

لا شك فى أن الخسائر التى تتكبدها الحكومة والجماعات والافراد بســبب المسكرات والمخدرات والتدخين جسيمة جدا من الناحيتين المادية التى قد تعوض، ومن الناحية المعنويـــة التى لا تعوض أبـــدا ٠

فلاعجب فى أن أطلق على هذا الثالوث الذى يؤدى الى كل أنواع الخبائـــث اسم : أم الخبائث فما كانت المخدرات شائعة ، ولا كان التدخين معروفا يوم أطلق على الخمرة : « أم الخبائث » ٠

أما اليوم فأصبحت الخمور أنواعا ، واستشرى شـرها وشـــر المخـدرات والتدخيـــن !

---

(1) جريدة الاهرام القاهرية ـ السنة (105) ـ العدد (33234) ـ ص (12) 2 صفر 1399 هـ (11 يناير ـ كانون ثان ـ 1979 م ٠

هذا الثالوث الخبيث ، أم الخبائث كلها ما ظهر منها وما بطن ٠

لقد كان عدد المدمنين على المسكرات فى سنة 1964 م خمسة وعشرين مليونا من البشر ٠

وأصبح عددهم من موظفى الحكومة والشركات الصناعية فى الولايات المتحدة الامريكية (وحدها) فى سنة 1978 م عشرة ملايين من البشر ، ولابد من أن يكون عددهم من مجموع السكان أضعافا مضاعفة ٠

وكانت خسائر الحكومة الامريكية ماليا فى سنة 1964 م أربعمائة مليون دولار (1) ، فأصبحت خسائرها المالية فى سنة 1978 م ستة وخمسين الف مليون دولار !

وبعملية حسابية بسيطة ، نجد أن خسائر الحكومة الامريكية قد تضاعفت خلال أربعة عشرة سنة مائة واربعين مرة من الناحية المالية ، وتصاعد عدد المدمنين الى عشرين مرة من الناحية البشرية !! ٠

ان الجنس البشرى يجرى بسرعة مذهلة نحو ادمان أم الخبائث ، ويتحرك باندفاع خاطف نحو الهاوية ، حتى أصبحت (القاعدة) وهي معاقرة المسكرات وادمان المخدرات والتهام الدخائن (2) ، واصبح (الاستثناء) هو اجتناب أم الخبائث ٠

وظهرت دراسات علمية كشفت الاضرار البالغة لام الخبائث اجتماعيا وطبيا ، تحذر الناس من انهيار اجتماعى وصحى ، فازداد المدمنون عددا وزادهم تصاعد انتاج أم الخبائث مددا ، كأن تلك الدراسات بشير للمدمنين نذير للمتعففين جاءت تصديقا للمثل القائل : نجحت العملية ، ومات المريض » ٠

لقد سيطرت أم الخبائث سيطرة كاملة على أفراد ومجتمعات الدول الرأسمالية والاشتراكية ، لان الاتجاه (المادى) فى الكتلتين الشرقية والغربية بما فيه من اغراء ، وتلاشى الاتجاه (الدينى) بما فيه من طهر ، لا يمكن أن يوجه الا الى الادمان على أم الخبائث والاغراق فى متطلبات الرفاهية والجسد ، والابتعاد عن نفحات الدين وانوار اليقين التى تبدد الظلمات وتعين على تحمل أعباء الحياة ٠

ولعل من المفيد أن أذكر تجربة مفكر كبير عاش فى الاتحاد السوفياتى فضاق بها ذرعا ، لانها حياة مادية لا روح فيها ، وانشق على حكومته وقومه وبلاده ، وتحمل الاهوال عقابا له على انشقاقه ، فصبر على السجن والتعذيب

---

(1) دكتور (ر٠ برمكلى سمثرس
مشكلة الادمان الكحولى ـ ص (74) ـ بحث مقدم الى المجلس الدولى السابع ـ فرانكفورت ـ المانيا الغربية ـ 1924 م ـ ٠
(2) الدخائن : جمع دخينة وهي الكلمة العربية للسكارة الاجنبية ٠

والحرمان طويلا ، مصرا على النزوع عن بلده الى الغرب ، لعله يحظى بالسعادة والراحة ٠

وأخيرا تحقق لهذا المنشق الروسى حلمه ، فغادر الاتحاد السوفياتى الى دولة الكتلة الغربية ٠ وتجول فى أرجائها باحثا ممحصا ، يفتش عن حلمه المنشود : السعادة فى الراحة والاطمئنان النفسى ، حتى وصل الى الولايات المتحدة الامريكية ، وهناك ألقى محاضرة أدان - فيها الكتلة الشرقية ممثلة فى الاتحاد السوفياتى ، والكتلة الغربية ممثلة فى الولايات المتحدة الامريكية ، وحملهما معا ما تعانيه البشرية من تمزق ، فكان من جملة ما قاله : « ان العالم منذ انتهاء العصور الوسطى وبدء عصر النهضة ، أخذ يهجر الدين ويتمرد على القيم الروحية ويحط من شأنها ، ويجعل القيم المادية هي أساس حياته ومحور أفكاره وبرهان تقدمه ومصدر سعادته ٠٠٠ واصبح طموحه الفردى ماديا ، ووعود الزعماء مادية ، وثقافة أجهزة الاعلام مادية ٠٠٠ هذا التفكير المطلق يلتقى فيه الشرق والغرب، فاذا كان الشرق ماديا وملحدا رسميا وبحكم فلسفة الدولة ، فالغرب يصل الى نفس النتيجة من طريق آخر : طريق الانغماس فى المصلحة والمادة وحب الذات ، ان فلسفة الغرب المادية تعتبر ان الانسان خلق للسعادة وبالتالى فان كل شيء يجب أن يكون فى مصلحة الفرد ، ولكن الانسان كما خلق للسعادة فى الحياة ، خلق للسعادة بعد الموت أيضا ٠ فلابد له من الايمان ، الايمان بالله والقيم الروحية والمعنوية ، وبأن رسالة الانسان هي الارتقاء الى قيم أعلى » (1) ٠

ان هذا المنشق الذى هرب من مادية الكتلة المغالية فى ماديتها ، اصطدم بعد هروبه بالكتلة المغالية فى ماديتها أيضا ، الشرقية مادية ملحدة ، والغربية مادية مصلحية ، وكلاهما فى ضلال مبين ٠

وما دامت (المادة) هي (الغاية) من الحياة وليست (الوسيلة) ، بعد ان اقتصرت فلسفة الحياة على (الدنيا) وحدها لا على (الدنيا) و (الآخرة)، فالمرء هدفه الاول والاخير هو جيبه الذى يطمئن رغبات بيته وبطنه وفرجه ، كالحيوان الذى يقتصر اهتمامه على اسطبله وعلفه وفرجه ، لذا كانت الحياة المادية حياة حيوانية ، والفرق بين الانسان السوى والحيوان هو ان الاول يفكر فى الدنيا والدار الآخرة ، يفكر بالمادة والروح أما الحيوان فلا يفكر الا بالمادة ٠

وجاءت معالجة داء الادمان على أم الخبائث بالنسبة للماديين (مادية)

---

(1) القيت المحاضرة فى النصف الاخير من سنة 1978 م القاها الكاتب والاديب السوفياتي (سولجنتسين) ٠

أيضا • والعلاج المادى بالنسبة لام الخبائث لا يقضى عليها داء بل يعمق جذورها ويزيدها بلاء ، كما نلمسه فى الشرق والغرب من تضاعف الاقبال على أم الخبائث ، فالدواء المادى هو الذى جعل الداء ـ المتمثل فى أم الخبائث مستفحلا يرجى شفاؤه ، لانه أثر من آثار المادة والحياة المادية ، وغياب التوجيه الدينى الذى هو الدواء الناتج لداء أم الخبائث ، قضى على آخر أمل فى شفاء هذا الداء العضال •

وازدحمت أدوية الماديين على الداء دون جدوى ، ومجمل الادوية هي : ان المسكرات داء العصر ، والطبيب يشخص الادمان على انه مرض نفسى ، ولا يستطيع المدمن الاقلاع عن الادمان بالنصح ولفت الانتباه الى العواقب الوخيمة للادمان ، فيجب ان يمارس أحدى الهوايات ، واستعمال وسائل المعالجة فى المصحات . والالتفات الى الاسباب الداعية للادمان) (1) •

تلك هي مجمل الدواء ولم يخرج عن الخط المادى الذىبسببه كان الداء ، ويخيل الى ان الطبيب المعالج وضع الدواء وهو يحتسى المسكرات أو يتعاطى المخدرات على تصاعد دخان الدخائن • وحسبه أنيكون مكبلا بأغلال الحياة المادية ، لا يستطيع الخروج من نطاقها ولا الخروج عليها ، والاسير المكبل بالحديد ، لا يقدر على فكاك الاسرى المكبلين ، وفاقد الشىء لا يعطيه •

فى البلاد العربية

جاء فى الدراسة التى قدمتها المنظمة العربية للدفاع الاجتماعى ضد الجريمة التابعة لجامعة الدول العربية ، الى المؤتمر الاول لوزراء الداخلية العرب المنعقد فى أيلول من سنة 1977 م فى القاهرة ما نصه : « وتتميز أقطار الخليج العربى بجرائم تسلل الاجانب ، وجرائم المسكرات والاغتصاب » • (2)

والمعروف ان سكان الخليج العربى لم يكونوا يعرفون جرائم المسكرات لقربهم الى الطبيعة العربية البدوية السليمة ، قبل سكانها الاسلام فى أيام النبى صلى الله عليه وسلم واقبلوا عليه ، وكانوا القاعدة الامامية المتقدمة التى انطلق منها الفتح الاسلامى العظيم فى أيام أبى بكر الصديق رضى الله عنه سنة أحدى عشر الهجرية لفتح العراق ، وكان عقلاء العرب قبل الاسلام يعتبرون الاقبال على المسكرات مثلبة من المثالب التى تهدد العقل والمروءة ، وقال قائلهم جوابا للقائل : « ما سر احجامه عن الخمرة ؟ » كيف يقبل المرء على

---

(1) جريدة الجمهورية العراقية ـ العدد (7416) ـ ص (8) ـ 29 كانون الاول 1978 م ـ 29 محرم 1399 ه •

(2) ص (4) من التقرير •

ما يضيع العقل ويهدر المروءة ؟ • فلما جاء الاسلام هجر المسلمون الخمـــرة والمسكرات ، فأصبح بالاسلام عـــدد عقلاء العرب كثيرين بعـــد أن كـــانوا قليلين ، وساد العقل وانهزم الجهـل •

هكذا أصبح الخليج العربى الآمـــن غير آمن ، فقد انتقلت اليه عـدوى أم الخبائث ، ان احصائية المنظمة العربية للدفاع الاجتماعى ضـد الجريـمـة ، لا تقتصر على احصائية الخليج العربى ولكن تشمل سائر الدول العربية ، وهذه الاحصائية عبارة عن مجموع البيانات التى بعثت بهـا الـدول العربيـة الى المنظمة • وقد اعتبرت تلك المنظمة ان الجرائم التى وقعت فعلا هي اكثر عددا مما اثبتته بيانات الدول العربيـــة فى جداولها • اذ تخفى قسم من الـــدول العربية ما يقع فيها من جرائم عـمدا لسبب أو لآخر • ولكن المدقق لاحصائيات المنظمة يتبين بوضوح أثر أم الخبائـث فى الدول العربية المدمر •

كما يتبين تضاعف الجرائـم بسبب تفشى أم الخبائث فى العرب تفشيـا فظيعا يجب الا يسكت عنه السؤولـون أو يقفوا منه موقف المتفرج غير المبالى بعواقب الاخطار •

وسأذكر ما يحدث فى لبنان الشقيق من تفشى أم الخبائث ، وهدفى من ذكرها انذار العرب المسلمين فى كل مكـان ، ليحذروا عواقب تفشيها فى بلادهـــم ، لان ما يحدث فى لبنان كما علمتنـــا التجارب يحدث فى البلاد العربية اليوم أو غدا ، باعتار لبنان همزة الوصـــل بين العرب والبلاد العربية ، فهو محطة تلتقط مباذل الغرب وتبثها فى البـلاد العربيـــة •

وسأركز على الشباب وبخاصة فى الجامعات ، لانهم عماد الحاضر وقادة المستقبـــل •

ينتشر تعاطى المسـكرات والمخدرات والتدخين فى الوسط الطلابى ، ويزداد انتشارها بسرعة هائلة بين يوم وآخر، وبخاصة فى الجامعات ، والاخطـــر انتشارها بين الفتيات اللواتى أصبحن يشاركن الطلاب بتعاطى أم الخبائـــث ويتفنن فى الادمان عليها •

واحصائيات الامن العام اللبنانى لعام (1977 م ـ 1978 م) تفيد ان خمســـة وسبعين بالمائة من جرائم القتل والسرقة وراءها أم الخبائث سواء عن طريـــق الاتجار بها أو ادمانها •

وتؤكد تقارير الامن العام بأن الطالب الجامعى أصبح مدمنا على تعـــاطى أم الخبائث بشكل مريع ، ولا يقتصـــر الادمان على الشباب فقط • بل تعـداه الى الفتاة اللبنانية التى أصبحت لا تقل رغبة فى الادمان عن الشباب • وكأنها بذلك تتبع مبدأ المشاركة فى كل شىء ، وغالبا ما تكون صاحبة المبادرة •

وتذكر تلك التقارير ، ان فضائـــح كثيرة أثيرت فىاحدى الجامعات الكبرى وآخرها حديثة العهد فسرت على انهـا

اعتداءات وتجاوزات شخصية ، والواقع هو ان مجموعة مختلطة من الشباب والشابات تعاطوا أم الخبائث حتى غابوا عن الوعي ، فكانت الفضيعة !

وقد اثبتت التقارير الطبية ، ان أولئك الشباب والشابات مدمنون بالتربية والهواية · وهذا منتهى الخطورة، ويبدأ ادمانهم على احتساء كأس من المسكرات أو جرعة من المخدرات أو دخينة من الدخائن ليجربوا الطعم والنكهة ، ثم تتحول التجربة الى عادة يستفحل أمرها · فيشعر المدمن بعدئذ بحاجة الى المسكرات والمخدرات والتدخين ولو كلفه الامر انتهاك الاعراض ·

ويصف الامن العام اللبناني فى تقاريره تجارة المخدرات على أن تجارها هم من (الكبار) نفوذا وثراء ، لان هذا النوع من التجارة يتطلب رأسمال كبير وحماية للتنفيذ ·

وتذكر تلك التقارير ، انه لو نفذت الاحكام بالمتاجرين والمهربين والمدمنين ، لقضى سبعون بالمئة من اللبنانيين فى السجون (1) ·

تلك لمحات عن تعاطى أم الخبائث فى لبنان الشقيق · وما يقال عن لبنان يقال عن سائر البلاد العربية الاخرى بدون استثناء مع تفاوت فى عدد المدمنين وطريقة تعاطيهم أم الخبائث بين السرية والعلنية ، وفى بلدهم أو خارجه ، وفى أسلوب بيعها للراغبين فيها ، فقسم من البلاد العربية تبيع المسكرات علنا فى الاسواق لكل الناس من مختلف الاديان، وقسم منها تبيع المسكرات علنا لغير المسلمين ، فيستعين المسلم بغير المسلم فى تطمين رغباته ، وقسم منها لا تسمح فى بيعها علنا ، ولكنها متيسرة فى السوق السوداء ·

أما المخدرات ، فلا تباع علنا الا فى الصيدليات بموجب اذن خاص من الطبيب ، يحدد فيه الكمية المسموح ببيعها للمريض ، وتحدد وزارة الصحة الكميات المسموح بوضعها فى كل دواء · ولكن المدمنين على المخدرات يكتشفون المصادر التى توفرها لهم ، فالاقبال عليها يزداد والجرائم بسببها تتضاعف ·

أما تجارة الدخائن ، كاكتسحت الاسواق العرية كلها بدون استثناء · وما دامت الدول العربية تفكر بارتفاع الضرائب دون أن تفكر بتدمير العرب فستبقى أم الخبائث تعمل عملها المدمر فى الصحة العامة والاخلاق ·

عوامل الداء

(1) الابوان

للابوين تأثير رحاسم فى الاولاد ذكورا واناثا ، وفى صلاحهما صلاح للاولاد ، وفى فسادهما فساد لهم ·

وكثيرا ما يبقى الطفل وحيدا فى الدار ، بعيدا عن رعاية والديه ، لان أباه فى العمل ، ووالدته فى العمل

(1) **مجلة الصياد** ــ العدد 1784 ــ ص (4 ــ 5) باريس ــ 12 كانون ثانى 1979

أيضا ، فترعى الطفل جدته أو مربيته أو خادمة ، وهو بحاجة الى رعاية أمه، وربما تحمله أمه الى دار الحضانة ، ليبقى تحت رعايتها حتى تعود أمه من عملها اليومى ، فتعود به الى الدار ٠

وتربية المربية أو الخادم أو دار الحضانة ، ليست كتربية الام ، فهو بحاجة الى نسبة عالية من الحنان ، وهذه النسبة تقدمها الام بشكل طبيعى لا تكلف فيه ٠

وتربية الخادم بدون رقابة فيها محاذير كثيرة معروفة ، كما ان تربية دور الحضانة تجعل الطفل ينقل المرض من أقرانه بالاختلاط ، فيعيش أكثر أيام طفولته مريضا ، وتبقى آثار مرضه المستمر فى طفولته بعد أن يكبر ، فيعانى من تأثيره طيلة حياته ٠

وأخشى ما أخشاه أن ينشأ الجيل العربى الجديد بأشراف الخادمات ، لنطلق عليه : جيل الخادمات ٠

ان الوالد والوالدة أيضا كثيرا ما يدخنان ، فيقلد الولد أباه وأمه ، أو يقلد أحدهما فى التدخين ، وقد شاهدت أطفالا فى المدارس الابتدائية ، يدخنون فى طريقهم من المدرسة الى الدار خلسة فى بادىء الامر ، فاذا كبروا استحكمت فيهم عادة التدخين فاصبحوا من المدمنين ٠

وقد شاعت بين العوائل عادة قضاء السهرات فى النوادى ، فيقتبس الاطفال مما يجدونه فيها من مآسى ويسمعونه من أسمار ٠

فى هذه النوادى على الاغلب ، تقدم الخمور ، ويلعب الميسر ، ويستحم الكبار والصغار فى أيام الحر ، وتتبارى الفتيات الكاسيات العاريات بمظهرهن وتبرجهن الذى يناقض الحشمة والوقار وابسط تعاليم الاسلام ٠

وقد قرأت فى صحيفة عربية ، عن حفلة راقصة أقيمت فى أحد تلك النوادى ، لاختيار أحسن راقص من الشباب وأحسن راقصة من الفتيات ، فقصدت احدى العوائل تلك الحفلة أسوة بسائر العوائل ، وكان مع الوالدين ابنتهما المراهقة التى شاركت فى الرقص واحرزت الجائزة الاولى ٠ وهي عبارة عن زجاجة من الخمر الاجنبى، فصفق لها الحاضرون طويلا ــ وكان أشد من صفق لها حماسة أبواها ، وكانا سعيدين بفوز ابنتهما المراهقة بزجاجة الخمر الاجنبى ٠

(2) التعليم

كانت المساجد فى البلاد العربية والاسلامية ، قبل عهد الاحتلال ، مدارس ومعاهد وجامعات ، تخرج الطلاب فيها ، ويتولى التدريس فيها الشيوخ الذين كانوا يعتبرون التعلم والتعليم عبادة من أجل العبادات ٠

وادرك المحتل الصليبى أن المساجد لا تقتصر على تخريج العلماء ، بل

تخرج المجاهدين وان بقاءها خطر على بقائه ، فجعل الشيوخ موظفين كسائر الموظفين ، واغراهم بالمناصب والرواتب، ثم جمع كل بضعة مدارس فى مدرسة واحدة ، وأخيرا قلص مدارس المساجد، وبدأ بالغائها . ونشر المدارس المدنية لتنافس مدارس المساجد ، وجعل الوظائف مقتصرة على خريجى المدارس المدنية وحدها دون المساجد ، فاقبل التلاميذ على المدارس المدنية وتخلوا عن مدارس المساجد التى أقفرت أو كادت .

وكان مدرسوا المدارس المدنية القدماء على شىء من الدين فى أول تأسيس المدارس المدنية ، لانهم كانوا على الاغلب من خريجى مدارس المساجد ، فأوفد المحتل خريجى المدارس المدنية من الثانوية العامة مباشرة الى الجامعة الامريكية فى بيروت التى هي كنيسة انجيلية والى الجامعات الاجنبية وأنشأ مدارس لتخريج المعلمين محليا تولى التدريس فيها خريجوا الجامعات الاجنبية الذين كانوا بعيدين عن الدين فى أحسن الاحوال وأعداء الدين فى غالبيتهم ، فتخرج فى جامعات بيروت والاجانب ومدارس المعلمين المحلية جماعة بعيدة عن الدين أو عدوة له ، تولت التدريس فى المدارس المدنية ويشككون ويدسون ويخربون ، كل همهم ابعاد التلاميذ والطلاب عن الدين وصبغهم بالصبغة اللادينية ، واشاعة قشور الحضارة الاجنبية فيهم .

وعاد خريجوا الجامعات الاجنبية وقد اقتبسوا مظاهر الحضارة الغربية وقشورها ، ومنها تعاطى أم الخبائث .

والتلميذ يقلد معلمه والطالب يقلد أستاذه ، والمعلم والاستاذ واقع فى مصائب أم الخبائث ، يتعاطاها فى الحفلات والنوادى والسفرات المدرسية، والتلميذ والطالب يرى معلمه واستاذه يشجع على المنكر ولا ينهى عنه ، وكيف ينهى غيره ولا ينهى نفسه ؟ وهكذا بدأت شرور أم الخبائث تستشرى .

وحرم التلاميذ والطلاب فى المدارس والمعاهد والجامعات العربية من التعليم الدينى ومن التراث العربى الاصيل ، فتخرجوا وهم يجهلون أبسط تعاليم الدين الحنيف . ويعرفون عن نابليون أضعاف ما يعرفونه عن سعد بن أبى وقاص .

وانقضى عهد الاحتلال وجاء عهد الاستقلال ، فكان المتوقع أن يعيد المسؤولون عن التربية والتعليم الامور الى مجاريها الطبيعية ، ولكنهم أبقوا مناهج المحتل ، بل زادوا على الطين بلة . فعمقوا آثار الاستعمار ، وتبنوا مناهجه ، فكان فى مصر أيام الاحتلال (دانلوب) واحدا ، فأصبح فى البلاد العربية فى أيام الاستقلال ما لا يعد ولا يحصى من (الدانلوبيين) .

قد كان ثم أبو رغال واحدا
واليوم آباء الرغال كثار !

فلا عجب أن تشيع أم الخبائث بين الطلاب العرب ، أكثر مما تشيع بين غيرهم من أصناف الناس ٠

ان المحتل سيطر على التعليم سيطرة قوية ، تنفيذا لمخططاته فى تخريج المتعلمين كما يريد ، بعيدين عن الدين ، جاهلين تعاليمه ، منصرفين الى مبادئ حضارتــه ٠

وبالامكان أن نفهم هدف المحتل من مخططاته ، فما بال العرب يصرون على تطبيق مخططات المحتل بعد رحيله !

لقد كثرت (كمية) المثقفين ، ولكن قلت (نوعيتهم) ، فلا أستغرب ان وجدت الجامعى يخطىء فى أبسط قواعد الاملاء ، وهذا اذا استطعت قراءة خطه الذى يشبه خط تلاميذ الابتدائية ، كأن قلمه ذبابة سقطت فى زجاجة حبر فدبت على القرطاس ، ولا تستغرب ان سمعت خريج كلية الآداب يخطىء النحو والصرف أخطاء لا يقع فيها خريج الابدائية ٠

ان منهاج المدارس والمعاهد والجامعات وضعها فى زمن الاحتلال مبشرون حاقدون على الاسلام دينا والعربية لغة ، وكان أخفى طريق عرفه المبشرون واقرته سياسة الدول الاوروبية المحتلة، هو طريق (التعليم) ، لان حاجة الناس الى العلم لا تنقطع خاصة بعد أن أصبحت (الشهادات) التعليمية هي السبيل الاوحد لتسلم الوظائف الحكومية من أجل لقمة العيش ٠ كما ان (التعليم) تضمن تنشئة أجيال قد صبغوا بأيدى معلميهم واساتذتهم بالصبغة التى يريدها الاستعمار ، وهو أخطر عامل فى توجيه الصغار الى الجهة التى يريدها المعلم ، فينشأ الطفل ويكبر حتى يصير رجلا ، فلا يحس فى نفسه انه قد طبع طبعا جديدا يراد به استبقاء سيطرة الغازى عليه وعلى بلاده ، وتدمير أمنه بمسخه هو واقرانه الى عبيد لبطنه وفرجه وجيبه ، يذلل الطريق لاقدام السادة الطغاة من حيث لا يدرى انه عبد مسخر ٠

واليك كلمات دالة من كلام أحد رؤوس المبشرين ٠ تغنى عن الاكثار ، هو المسيو شاتليه ، قال فى سنة 1911 م « ان ارساليات التبشير الدينية تأتى بالنفع الكثير فى البلاد الاسلامية من حيث انها تثبت الافكار الاوروبية » ثم قال « ولا شك فى أن ارساليات التبشير تعجز من أن تزحزح العقيدة الاسلامية من نفوس معتنقيها ٠

ولا يتم لها ذلك الا ببث الافكار التى تتسرب من اللغات الاوروبية التى بنشرها يحتك الاسلام بصحف أوروبا ، وتتمهد السبل لتقدم اسلامى (مادى) وتقضى ارساليات التبشير لبانتها من هدم الفكرة الدينية الاسلامية » وقال « انه مهما اختلفت الآراء فى نتائج أعمال المبشرين من حيث خطتهم فى (الهدم) فان نزع الاعتقادات الاسلامية ملازم للجهود التى تبذل فى سبيل التربية النصرانية ، والتقسيم السياسى الذى طرأ على

الاسلام ، سيمهد السبيل الى المدنيــة الغربية الاوروبية ، اذ مــن المحقــق ان الاسلام يضمحل من الوجهة السياسية ، ولن يمضى زمن قصيــر حتى يكــون الاسلام فى حكم مدينة محاطة بالاسلاك الاوروبيــة » ٠

ان المحتل فرض لغته على التلاميذ والطلاب فرضا ، وهذا من حقه ، ولكن بعد الاستقــلال حــرص المعلــمون ، والاساتذة على ابقاء هذه اللغات فى المدارس والجامعات لتدريس العلــوم بحجة ان اللغة العربية لغة أدب لا تصلح للعلــم !!

احقا ان اللغة العربية لا تستطيــع النهوض بتدريس العلوم ؟ ! ٠

كل هذه الجهود المريبة هي لنــزع الاسلام من النفوس نزعا ، ليبقى هذا القرآن مهجورًا ، كيَ تنطلق الغرائــز بحرية الى ما نهى عنه الله ورسوله ، ولكي يصبح المتعلمون ماديين لا يفكرون بالمثل العليــا ! ٠

(3) الدولــة

تقف قسم من الدول العربية موقــف المتفرج من معاقرة أم الخبائث ، فــلا تعاقب قوانينها الوضعية على معاقرتها، وتسمح ببيعها علنا ، وتقدم فى النوادى والفنادق والمطاعم والطائرات وتتقاضى على بيعها الضرائب ٠

وتقف قسم منها موقــف المــعارض بدرجات متفاوتة اعلاها التحريم المطلق، وأوسطها التحريم المشروط ، وأدناهــا التحريم الدعائى ٠

أما التحريم المطلق ، فتطبيق للشريعة الغراء التى تحرم أم الخبائث ، وتضــع على مقترفها عقوبات فى الدنيا والآخرة ٠

أما التحريم المشروط ، فهي محرمــة على المسلمين وحدهم لا على غيرهــم من المسيحيين واليهود والسياح عــلى مختلف اديانهم ، فهي تباع علنا ، وتقدم فى الاماكن السياحية وغيرها ايضا ٠

أما التحريم الدعــائى ، فتقرأ فى الصحف والمجلات وتسمع فى الاذاعات انها محرمة ثم تجد الاقبال عليهــا شديــدا ٠

والمهم انك تجد أم الخبائث متفشيــة فى الدول التى تعارضها ، وهذا دليــل قاطع على ان تحريمها لا يطبق بشكل حاسم يستأصلها من المجتمع العــربى الاسلامى ، ولو كان التحريم يطبــق بجدية كاملة لما تيسرت فى البــلاد التى حرمتها ولما تزايد عدد المقبليــن عليها فى تلك البلاد ٠

وقد يتظاهر العربى المسلم بالتعفف فى بلده ، ولكنه يخلع عنه لباس التعفف اذا توارى عن الانظار فى بلده أو فى البلاد الاخرى حين يسافر اليها سائحا أو فى عمل خاص أو فى واجب رسمى ٠

وقد رأيت رجلا بصحبة زوجتــه فى طائرة متجهة الى بلده ، فكان يعــب الخمر هو وزوجته وهي كاسية عارية ،

فلما اقترب من بلده ارتدى ملابسه العربية وارتدت ملابسها المحتشمة ·

كما ان الدول العربية كلها ، متجهة اتجاها ماديا صرفا ، فالدول الراسمالية والدول الاشتراكية على حد سواء ، تتحدث عن تنمية اقتصادية ومشاريع صناعية ، وجامعات علمية ، كل اهداف زعمائها تحقيق مكتسبات مادية للفرد والجماعة والمجتمع ، لا اختلاف بين رأسمالى واشتراكى ، ولا تكاد تسمع شيئا عن الدين وتعاليمه فى المناهج الحكومية المعلنة ·

وقد تجد فى ميزانية دولة من الدول العربية ، مخصصات حفل الالعاب الرياضية والساحات والملاعب والنوادى الرياضية ومرتبات الخبراء الاجانب المشرفين على الفرق الرياضية ما يبلغ اضعاف مخصصات المساجد والجوامع والائمة والخطباء بمئات المرات ، وهذا وحده يدل على اتجاه الدولة فى مجال التطبيق العملى لا فى مجال الاقوال الدعائية والتصريحات ·

كما ان التعليم الدينى بشكله المؤثر غائب عن المدارس والمعاهد والجامعات، اما التعليم المادى فهو السائد سيادة مطلقة على المؤسسات التعليمية ، وهذا ايضا دليل قاطع على اتجاه اكثر الحكومات العربية الى (المادية) وحدها ·

وقد سمعت (دكتورا) يتولى منصب وزارة الثقافة والاعلام فى بلد عربى اسلامى يقرأ قول الله : (**ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم**) فيفتح الحاء ويكسر النون فى (حنين) ، ويقرأ (اذ) اذا ، وهكذا يكون الدكتور الوزير المسئول عن التوجيه الثقافى الاعلامى فى بلده والا فلا !

وأجهزة الاعلام العربية تعمل عملها التخريبى فى عقول ونفوس العرب بدون هوادة ، كأنها موكلة باشاعة الفحشاء فى الذين آمنوا ، لتقضى على البقية الباقية من الايمان ·

ان الاذاعة المسموعة والاذاعة المرئية قد دخلتا كل بيت عربى تقريبا ، والفتيان والفتيات يسمعونها ويرونها ، واكثر ما يعرض فى الاذاعة المرئية من الرفوف (1) والتمثيليات تحوى على تعاطى الممثلين والممثلات المسكرات والتدخين ، فينقل أم الخبائث بالعدوى الى المشاهدين فى عقر دورهم ·

وقد اكتشف ان الخيالة (2) المصرية أسسها الصهاينة وممثليها الرواد من الماسونيين فما تنتظر من رفوف يمثلها الماسونيون وينتجها الصهاينة !

وما دامت الحياة عبارة عن صراع على (المادة) فهي (الغاية) التى تسخر للحصول عليها كل (الوسائل) ، لا فرق بين حلال وحرام ·

---

(1) الرفوف : (ج) رف · وهو الفيلم ·
(2) الخيالة : السينما ·

ومظاهر (المادة) سيارات فاخرة ، وثياب غالية ، وقصر فخم ، ومنصب رفيع ، وطعام دسم ، وترفيه عن النفس، واليوم خمر وغدا قبر ، ولا شيء بعد المـوت ·

انها الحياة (المادية) التى تأمـر بالانانية والاستئثار ، وتنهى عن الجماعية والايثار ، وتحث على كنز المال لاشباع الرغبات الفردية ، وتحطم المثل العليا، وتخرب الذمم ·

وهذا تحقيق لاهداف الاعداء ، أن يصبح العربى يهتم بنفسه فقـط ، ولا يهتم بمصير عقيدته وارضه وعرضه ·

وهذا العربى المادى ، لا يقاتـل ولا ينتصر ، وكيف يقاتل ليموت ، وهـو يحرص على الحياة ليستمتع ويتمتع ، وكيف يقوى على التضحية والفـداء ، وهما من عطاء أهل القلوب ، لا مـن صفات أهل الجيوب ·

ان الدولة التى تزعم ان بناء الانسان ماديا سيدوم ، عليها أن تقرأ تاريـخ الامم الاخرى ، فستجد ان الحضـارات المادية زالـت بـزوال أصحابهـا ، والحضارات الباقية هي التى ارتفعـت على الدين والدنيا لا عـلى الدنيـا وحدهـا ·

وما نراه من انهيار النظم الماديـة فى البلاد العربية بعد رحيل أصحابها مباشرة خير دليل على ان المادة بـلا روح الى الفناء ، والمـادة بالروح الى بقـاء ·

فما أحرى الدول العربية أن تعتبـر بمن مضى ومن فنى ، والا فهي بحاجة ماسة الى مزيد من النكسات والنكبات ·

أضرار الداء

1 ـ المسـكـرات

أضرار المسكـرات كثـيـرة جدا · اهمال الاسرة ادارة ورعاية وتربية ، وانحراف الاولاد لانسياقهم غالبا الى تقليد آبائهم ، وتقليل قابلية الحصـول على المعرفة والعلم ، وافساد قـوى الانتباه والتركيز فى العقل ، وتحطيـم الاخلاق والمعاملة والمثل العليا ، والتخلى عن المسئولية الدينية ، والدفـاع عن الارض والعرض ، وارتكاب المعـاصى والآثام والجرائم ، وتحطيم الجهـاز العصبى والصحة العامة ، وازدياد نسبة الامراض والوفيات ·

وقد اعتبرت المؤسسات الصحيـة العالمية داء المسكرات أحد أربع كوارث تهدد المدنية الحديثـة بالـدمار وهي : السرطان ـ السل ـ الامراض التناسلية ـ المسكرات ·

2 ـ المخـدرات

ثبت طبيا ان المـخـدرات تؤدى الى تلف الجهاز العصبى وفقدان الذاكرة وضعف الشرايين الذى يؤدى الى الجلطة القلبية والسكتة القلبية ، وانهيـار الاعصاب الذى يؤدى الى الجنون ـ أو الشرود الذهنى والنسيان ·

وتظهر على المدمن ملامح اللـــون الازرق حول عينيه بالاضافة الى لمعان العينين كما يصبح المدمن هزيلا لا يقوى على تحمل أعباء الحياة ٠

كما ان المدمن يفقد ارادتــه بالتدريج ، فيصبح مسلوب الارادة كثير التردد لا يقوى تحمل أية مسئولية فى نطاق عائلته وفى نطاق عمله موظفا أو تاجرا أو عاملا أو فلاحا أو طالبـا أو مدرسا ٠ فيقل انتاجه الفكرى والعملى حتى ليتضاءل ليكون عالة على المجتمع ٠

كما ان المدمن من الرجال يفقد قواه الجنسية شيئا فشيئا ، فيخرب بيتــه ويدمر حياته الجنسية ، وتنتهى مادته العائلية ، ثم تنتهى حياته بالموت ٠

3 ـ التدخيــن

يؤثر التدخين تأثيرا ضارا فى الاجهزة الحيوية لجسم الانسان ، وأول هــذه الاجهزة هو جهاز التنفس والرئتـــان والاوعية الهوائية ، وهذا الجهاز يعتبر أول جهاز يستقبل المواد السامة الناتجة من التدخين ، ولهذا نجد ان احتمال الاصابة بمرض سرطان الرئة يزيد عند المدخنين بنسبة عشرة أضعاف عنه عند غير المدخنين ٠

كما يؤثر التدخين تأثيرا ضارا فى الاوعية الدموية ، فمن المعروف ان مواد كثيرة مضرة تنتج عن التدخين أهمها : سم التبغ (النيكوتين) وأول أوكسيـد الكاربون ، يمتصهمـا الجسم وينقلان الى الدم ، فيحدثان ضيقا فى الاوعيـة الدموية نتيجة لاستثارة الغدة الموجودة فى جانب الكلية ـ بسبب افراز هرمون يضيق الاوعية الدموية ويحدث أضرارا فى جدار تلك الاوعية بصورة مباشرة ، مما يؤدى الى ترسب بعض الامــلاح والمواد الدهنية على جــدار الشراييـــن الدموية ، فيؤدى هذا الترسب ضيقــا وربما اغلاقا لهذه الشرايين ، ويقــل قدرتها على تزويد الاجهزة الحيوية فى الجسم بحاجتها من الاوكسجين والمواد الغذائية التى تنقل مع الدم ٠

والمحصلة لكل هذا ٠ هو ظهور أعراض انخفاض الدورة الدموية للقلب والارجل، مثل احساس المدخن بألم فى الصـــدر وبخاصة عند الارهاق ، مما يضطـــره الى الوقوف أو الجلوس للراحـــة حتى يزول الالم فيستأنف عمله ، كذلـــك الاعراض التى تظهر فى الرئتين بشكل سعال متواصل نتيجة التهاب الاوعيـة الهوائية وافرازها مــوادا .مخاطيـــة كثيــرة ٠

واذا لم تعالج هذه الحالات بازالـة المسببات ، فقد تضيق الاوعية الدموية أو تسد ، مما يسبب تلفا فى عضو مــن أعضاء البدن أو جزء معين فيه ، مثــل تلف أحد أصابع الرجل واسودادهـــا فيقتضى بترها ، أو حدوث الجلطـــة الدموية التى تؤثر فى عضلات القلب ، وربما حدوث شلل نتيجة لحرمان تزويد

جزء معين من الدماغ بحاجته مـــن الـــدم ·

والتدخين لا يصيب الدماغ والقلـب والرئتين والشرايين والرجلين بالضرر حسب · بل يصيب الانسان بكثير مـــن الامراض الاخرى ـ وكل انسان أصيب بقرحة فى معدته ، يعلم ان مرضـــه سيعود ثانية اليه اذا لم يقلع نهائيا عن التدخيـــن ·

وتحريم التدخين فى أثناء العمل وفى الاماكن العامة ناتج عن الاضرار الذى يسببها التدخين ليس على المدخن وحده، بل على من يكون معه ايضا ، فقد اثبتت التحليلات العلمية ان من يكون مـــع المدخن فى غرفة ما ، يتناول حـــوالى ثلاثين بالمئة من المادة الناتجة عن التدخين والمنتشرة فى هواء تلك الغرفة ، وهذه تسبب أضرارا بالغـــة وبخاصـــة فى الاطفال اذا دخن أحد الابوين أو كلاهما فى أثناء وجودهـم · كـمـا اثبـتـت الاحصائيات ان أطفال المدخن أقل ذكاء ومناعة من غيرهم ·

ان الدخينة الواحدة تحـتوى على عشرة ملغرامات من سم التبغ ، وخلال التدخين يمتص الجسم واحدا او اثنين ملغرامات من سم التبغ ، فاذا علمت ان خمسين ملغراما من سم التبغ كافيـــة لقتل آنسان قوي ، فانك تقدر مبلـــغ ضرر التدخين المدمر فى الصحة العامة للانســـان ·

ان سم التبغ وأول أوكسيد الكاربون هما من أهم المواد الضارة التى تحتوى عليها الدخائن الا ان القطران هو بلا ريب أخطر من كل ما تفرزه الدخائـــن من المواد الاخرى الضارة ، كما اثبتت الدراسات العلمية الحديثة التى أجريت فى السنوات الاخيرة ، ومن ثم كـــان تصنيف الدخـائن الى فـئـات حسـب محتويات القطران فيها ، وكانت القوانين والانظمة التى تحظر أو لا تشجع صنع الدخائن التى يزيد محتواها من القطران على معدل احدى عشر الى ستة عشر ملغراما من القطران ·

وقد أسهبت فى ذكر مضار التدخين ، مستندا على الدراسات الطبية العالميـة الحديثة لاثبت ان التدخين لا يقل ضررا على المسكرات والمخدرات ·

وأضع هذه الحقائق أمام علماء الدين الاعلام لكي اتساءل : لماذا تحـــرم المسكرات والمخدرات ولا يحرم التدخين ؟!

أساليب الدواء

1 ـ الاساليب المادية

ان الاساليب المادية للدواء فى مجال القضاء على ادمان أم الـخـبائث هي الادوية المعتمدة فى الكتلتين الشرقيـة والغربية ومعظم الدول النامية ، ومن ضمنها أكثر البلاد العربية والاسلامية ·

فالادمان مرض نفسى فى نظر الماديين، لا يستطيع المدمن الاقلاع عن الادمـــان بالنصح ولفت النظر الى العواقـــب

الوخيمة للادمان ، فالماديون لا يوصون باجتناب أم الخبائث نهائيا ٠ لان قليله يشرح الصدر ويؤنس الانسان ـ كما يقولون ـ بل يكافحون الادمان ويعالجون المدمن ٠ اذا تقدم المدمن طالبا معالجته، اذ ليس في المصحات متسعا لجميع المدمنين وقد يبقى المدمن الذى يطلب معالجته فى احدى المصحات ردحا طويلا من الزمن على قائمة الانتظار ، ليتسنى له سرير فى المصح ، ويكون قادرا على دفع تكاليف العلاج الغالية جدا ٠

اذا لم يكن ضمن اشخاص المسجلين فى مؤسسات الضمان الاجتماعى ٠

أما الذى يرفض العلاج ، فغالبا ما ينتظر مصيره فى الموت البطيء ، حتى يقضى نحبه غير ماسوف عليه ٠

وكل انسان فى الانظمة المادية حر فى تصرفه الشخصى ما لم يخرج على القانون ٠ والقانون الوضعى لا ينهى عن كثير من الفحشاء والمنكر ـ فيحل أم الخبائث ـ فالمجتمع المادى يعانى من فسوق القانون ٠

كما ان كل مدمن على المسكرات او المخدرات أو التدخين أو بهم جميعا ، بدأ فى أول أمره بكأس واحدة و مخدر ضئيل و دخينة واحدة ، ثم انزلق الى كؤوس كثيرة ومخدرات عديدة ودخائن غزيرة ، وبمرور الزمن أصبح مدمنا ٠

والتساهل بالقليل يفضى الى الكثير ثم يمسى ادمانا ، وهذا ما ينطبق على كل مدمن فى كل مجتمع من المجتمعات المادية وغير المادية أيضا ٠

فا هي الادوية التى يعالج بها الماديون الافراد المدمنين ؟

أول هذه الادوية هي ممارسة احدى الهوايات ، حتى تشغله تلك الهواية عن الادمان ٠

والهواية هي انصراف المرء بدافع ذاتى الى ما تصبو اليه نفسه ويرتاح له من أعمال فكرية أو يدوية أو خدمة اجتماعية أو نشاط انسانى ٠

وهذه الهوايات كلها بواد والمدمن بواد آخر ، لان الادمان أصبح هواية المدمن، ولو كانت لديه هواية أخرى اقوى تاثيرا فيه من الادمان ، لا نصرف اليها بكل طاقاته ولما انصرف الى الادمان ٠

وكل انسان يعلم انه اذا ترك عمله لاحالته على التقاعد اذا كان موظفا ، ولكبر سنه اذا كان عاملا أو فلاحا أو ذا حرفة من الحرف ، لابد أن تكون لديه هواية يقضى بها أوقات فراغه ، فيشعر بالسعادة والاطمئنان وهو يزاول هوايته ، والا قضى وقته عبثا فى النوادى والمقاهى والمنتديات ، ولكن من الصعب على من لم يزاول هواية من الهوايات فى مقتبل العمر أن يزاولها أو يختارها وهو فى آخر العمر ، والمدمن قد زاول هواية تعاطى أم الخبائث ، فلا يستطيع استبدال هواية جديدة أخرى بأم الخبائث ٠

وقد حاول كثير من المدمنين العمل بنصيحة الاطباء فى اتخاذ هواية من الهوايات · فاختاروا هواية زاولوها مدة من الزمن ، فكانوا كالذى لا يشتهى طعاما فيجبر نفسه اجبارا على تناوله ، لذلك اخفقت محاولات تسع وتسعين بالمئة على اتخاذ هواية جديدة ، فهربوا منها الى ما يحبون ، أما الواحد بالمئة فبقى يزاولها مكرها لانها لم تبق هواية يقبل عليها فرحا مستبشرا ، بل اضحت دواء يتناوله المريض مضطرا ·

وثانى هذه الادوية هو استعمال وسائل المعالجة فى المصحات ، وقد اخفقت تلك الوسائل فى تسعين بالمئة من المدمنين ، وقد غادر قسم من هؤلاء المدمنين وهم أكثر ادمانا لانهم تعلموا وسائل عديدة من المدمنين الآخرين ·

وقد مكث قسم من المدمنين مدة طويلة فى المصحات دون أن تتقدم حالتهم الصحية خطوة الى أمام ·

ومن المعلوم ان المسئولين فى المصحات عن النظام يحرصون على ابتعاد المدمنين عن جميع أنواع أم الخبائث ، ولكن ثبت أن تلك الانواع رائجة فى السوق السوداء داخل المصحات ، وبامكان المدمنين تعاطى ما يشتهون بعيدا عن أعين الرقباء ·

وقد غادر أحد المدمنين المصح ومعه تقرير الطبيب المعالج الذى ينص على شفائه من الادمان · فاقام حفلة فى داره ابتهاجا بشفائه لاصدقائه ، فشرب معهم حتى الثمالة ·

وثالث هذه الادوية ، هو الالتفات الى الاسباب الداعية للادمان لمعالجتها، وأسباب الادمان فى هذا العصر معروفة جدا ، أولها : رفاق السوء ، الذين يبدأون حياتهم فى الادمان منذ الصغر فى المدارس الابتدائية ، ويتصاعد الادمان بمرور الزمن ، وتعاطى أم الخبائث أصبح وباء بين الصغار ، والمعالجة الناجحة هي الاسوة الحسنة فى الابوين والمعلم والمدرس والاستاذ ، فاذا كان هؤلاء أو أكثرهم مدمنين ، فكيف يمكن أن يكونوا أسوة حسنة للاطفال والاولاد والشباب ·

ورفاق السوء لا يقتصر نشاطهم فى مؤسسات التعليم ، بل يشمل دور الخيالة وأماكن الالعاب والمنتزهات والعمل ·

فاذا لجأ الطفل أو اليافع أو الشاب الى داره ، كانت الاذاعة المرئية رفيقه الذى يعرض عليه بما يعرض من رفوف تعاطى الخمر والمخدرات والتدخين ، فمن النادر أن يعرض رف ليس فيه آفة من تلك الآفات ·

ومن الاسباب تصاريف الدهر ونكبات الايام وضعف الرقابة العائلية والتشرد وهذه الاحداث تعالج بالاقبال على أم الخبائث ، فينسى المرء واقعه المرير ·

وفى كتب الادب ان ابا نواس تاب على يدى شيخ صالح عن شرب الخمر ، الا اذا فرح أو اجتاحه الحزن ، فكان يعاقر

الخمرة كل يوم بحجة انه فرح أو حزين، والمرء لا يخلو من حادث يفرحه أو يحزنه كل يوم ٠

وطالما سمع كل من يراجع طبيبا لمعالجته من مرض ألم به ، فيسمع موعظة كل طبيب ، لا تحزن ، والحزن لا يستورده أحد ولا هو قدر كل انسان فكيف يستطيع المريض أن يستجيب لموعظة الطبيب ؟ ٠

والخلاصة ان الدين غائب عن المجتمع وهو العلاج الوحيد الناجع للابتعاد عن أم الخبائث ، وبه يخلو المجتمع من الادمان والمدمنين ٠

2 الاساليب الدينية

لست أدعى ان الاساليب الدينية النابعة من تعاليم الاسلام تقضى على الادمان وتفشي المدمنين مدفوعا بعاطفتى الدينية ـ ولكن الاطباء الذين اطلعوا على الشريعة الاسلامية من المسلمين وغير المسلمين ، أكدوا ان الاسلام وحدة من بين سائر الاديان يقضى على الادمان قضاء مبرما ، ويعالج أسبابه معالجة ناجعة تجعل من المدمن انسانا سويا ، ينصرف تلقائيا عن أم الخبائث بالسمو الروحى والنفسى ، ويقلع عنها طوعيا ليتجه اتجاها جديدا الى ما يشغله عن الادمان ٠ ويعيش حياته نادما على ما جنت نفسه من آثام ٠

وقد أستطا عمسلم من الباكستان يعيش فى الولايات المتحدة الامريكية ٠ أن يؤثر فى عدد كبير من المدمنين ، عجزت المصحات من شفائهم نهائيا ٠ فاتصل بهم اتصالا مباشرا ، فنجح فى دعوتهم الى الاسلام ، فانصرفوا الى الله وطبقوا تعاليمه ، فسمت روحهم وصفت نفوسهم واصبحوا خلقا جديدا ٠

ان اليهودية فى تعاليمها الباقية تتجه الى (المادية) ولا تحرم الخمر ، والنصرانية فى طقوسها المعتمدة تتجه الى (الروحية) ولا تحرم الخمر ، والاسلام وحده فى تعاليمه الخالدة يتجه الى (المادية) و (الروحية) فتجعل المسلم يبتغى فيما أتاه الله الدار الآخرة ولا ينسى نصيبه من الدنيا ، وهو وحده يحرم الخمر تحريما قاطعا، لذلك كان هو الدين الذى يصلح لكل زمان ومكان ، فلا (مادية) تعزل المسلم عن واجبه الدينى ، ولا رهبانية تصرفه عن متطلبات الحياة ٠

كما ان تساهل الاديان الاخرى بالقليل من أم الخبائث ، يؤدى فى النتيجة النهائية الى الادمان ـ فكل مخالفة صغيرة تصبح كبيرة بالتدريج ، وكل تساهل فى القليل يفضى الى الكثير ٠ وما دام الاتجاه (المادى) والفلسفة (المادية) ، تحث على اقتناص ما فى الدنيا من متعة ومتاع ـ واعتبار الدنيا هي البداية والنهاية دون التفكير فى الآخرة وحسابها والجنة والنار ، ومصير الانسان والآخرة ، بل التصريح علنا برفض المغيبات واطلاق تعبير (الغيبيات) على مجرد التفكير بالآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والحساب بأسلوب تهكمى،

ونعت المؤمنين بالغيب بنعوت سمجة ، فان الاتجاه (المادى) والفلسفة (المادية) لا تقود الا الى الادمان بكل عواقبـــه ونتائجه التى تهدد الحضارة والمصيـر والمصير الانسانى ، ولا تؤدى ألا الى تزايد المدمنين لتشمل الابناء والبنات والفتيان والفتيات والرجال والنساء ٠

لقد حرمت الشريعة الاسلامية الخمر تحريما قاطعا ، لانها تراها مضيعـــة للنفس والعقل والصحة والمال ، فحرمتها منذ أربعة عشر قرنا ٠

والاصل فى التحريم القران والسنة، وقد جاء تحريـم الخمـر فى القـرآن تدريجيا ، لان العرب فى الجاهلية كانوا يتعاطون الخمر بكثرة ٠

وأول نصوص التحريم فى القـرآن الكريم قوله تعالى : (**يا أيها الذيـن آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون**) (1) ٠ ثم جاء القرآن بعد ذلك بتاثيم شاربها فى قوله تعالى : (**يسالونك عن الخمر والميسـر قل فيهما اثم كبيـر ومنافـع للناس ، واثمهما أكبر من نفعهمـا**) (2) ثم نزل التحريم القاطع فى قوله تعالى (**يا أيها الذين آمنوا ، انما الخـمر والميســر والانصاب والازلام رجس من عمـــل الشيطان فاجتنبوه**) (3) ٠

أما السنة فقد روى البخارى عــن أبى هريرة رضي الله عـنــه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (لا يـزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهــو مؤمــن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن) ٠

وروى مسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما ان النبى صلى لاله عليه وسلـم قال : (كل مسكر خمر ، وكل خمـــر حــــرام) ٠

وروى الامام أحمد عن جابر رضي الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم قال : (ما أسكر كثيره فقليله حرام) ٠

وروى أبو داود عن ابن عمر رضي الاله عنهما ان النبى صلى الله عليه وسلـم قال : (لعن الله الخمر وشاربها وساقيها وبائعها ومبتاعها وعاصرها ومعتصرها وحاملها والمحمولة اليه) ورواه ابـن ماجة وازاد : (وآكل ثمنها) ٠

واخرج البيهقى عن عائشــة رضي الله عنها ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ان أناسا من أمتى يشربون الخمر يسمونها بغير اسمها) ٠

واخرج الدارمى عن جابر رضى الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقعد على مائدة يشرب عليها الخمر) ٠ وروى أبو داود عن أبى هريرة رضي الله عنه ان النبى صلى الله عليه وسلم

(1) الآية الكريمة من سورة النساء (43/4) ٠
(2) الآية الكريمة من سورة البقرة (219/2) ٠
(3) الآية الكريمة من سورة المائدة (90/5) ٠

قال : (ان الله حرم الخمرة وثمنهـا ، وحرم الميتة وثمنها ، وحرم الخنزيـر وثمنـه) ٠

وقال عليه الصلاة والسلام (مـن شرب الخمر فاجلدوه) ٠

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما (لما نزل تحريم الخمـر ، مشى الصحابة بعضهم الى بعض وقالـوا أحرمت الخمر وجعلت عدلا للشرك) رواه الطبرانى ٠

وروى ان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما (ذهب الى ان الخمر من أكبـر الكبائر) رواه الطبرانى ٠

ومن المتفق عليه ، انه لا يشتـرط لتوفر ركن الشرب أن يؤدى الشرب الى السكر فيكفى لقيام الجريمة مجـرد الشرب ، ولو كان من المستحيل أن تؤدى الكمية التى شربت للسكر ، لان الشرب محرم لذاته (1) ٠

وحد الشرب ثمانون جلدة عند مالك وابى حنيفة وهو رواية عن أحمد ، ويرى الشافعى وقوله رواية أخرى عن أحمد ان الحد أربعون جلدة فقط، ولكن لا بأس عنده من ضرب المحدود ثمانين جلدة اذا رأى الامام ذلك ، فيكون الحد أربعين جلدة ، وما زاد عليه تعزير ٠

وسبب اختلاف الفقهاء ، ان النـبى صلى الله عليه وسلم جلد اربعين، وجلد أبو بكر الصديق أربعين ، وجلد عمر بن الخطاب ثمانين ٠ قال على بن أبى طالب رضي الله عنه ، (جلد النبى صلى الله عليه وسلم اربعين وجلد أبو بكر أربعين، وجلد عمر ثمانين ، وكل سنة ، وهـذا أحب الي) ويرى أصحاب هذا الـرأي ان فعل النبى صلى الله عليه وسلم حجة لا يجوز تركه بفعل غيره ، وان الاجماع لا ينعقد على ما يخالف فعل النبى صلى الله عليه وسلم وأبى بكر الصديق رضي الله عنه وعلى بن أبى طالب رضي الله عنه ، ويحملون الزيادة من عمر بـن الخطاب رضي الله عنه على انها تعزير يجوز اذا رآه الامام (2) ٠

والاصل فى الحدود انها لا تقبل عفوا ولا صلحا ولا اسقاطا اذا كانت من حقوق الله الخالصة ، ولما كان الشرب مـن حقوق الله الخالصة ، فليس للافـراد والجماعة اسقاطه أو العفو عنه ، عـلى اننا اذا اعتبرنا رأي الامـام الشـافعى رضي الله عنه فى أن الحد أربعون جلدة فقط ، وان ما زاد على ذلك تعزير ، فانـه يجوز لولي الامر أن يعفو عن العقوبـة المعتبرة تعزيرا كلها أو بعضها ، أما الجزء المعتبر حدا فلا يمكن اسقاطه ولا العفو

---

(1) بدائع الصنائع (112/5) وشرح الزرقانى (113/8) واسنى المطالـب (158/4) والمغنى (328/10) ٠

(2) المغنى (32910) وشرح فتح القدير (185/4) واسنى للطالب 160/4 وشرح الزرقانى (113/8) ٠

عنه) (2) . ومن المتفق عليه أن العقوبة لا تنفذ على السكران حتى يفيق ، لان العقوبة جعلت للتأديب والزجـــر ، والسكران لا يشعر بما يحدث له) (3) .

تلك حدود الله ، فيقتضى أن نلقـــن هذا الحد وحكمته لاولادنا فى ســن مبكرة ، فقد وجدت كثيرا من الرجـال والنساء لا يعرفون حكمة تحريـــم أم الخبائث ولا حكم الشريعة فيها .

وقد ذكرت ان عوامل انتشار الداء من أم الخبائـث فى البـلاد العربيـــة والاسلامية هي : الابوان ، والتعليم ، والدولـــة .

فاذا كان الابوان متدينين . وجها أطفالهما الى الدين مبكرا ، وأمراهـم بالمعروف ونهوهم عن المنكر ، وكـانـا الاسوة الحسنة لهم .

أما اذا كان الابوان بعيدين عـن الدين ، يعاقران أم الخبائث أو يعاقرها أحدهما . فان الاطفال يقلدون الوالدين تقليدا أعمى فى أغلب الاحيان .

كما ان الحياة المادية الطاحنة الـتى فرضت نفسها على البلاد العربيـــة والاسلامية . جعلت مورد الزوج وحده لا يكفى لاعالة الاسرة ، فشاركته الزوجة فى العمل طلبا لمورد مـالى اضـــافى وانصرفت الى عملها خـارج الـــدار وحرمت أطفالها من رعايتها ، فنشـــأ الاطفال على تربية لا ترقى الى تربية الام الحنون على أي حال .

ولا أدرى هل تساوى خسارة الاسرة فى ضياع الاطفال وانحرافهم ما تربحه من دراهم معدودات فى عملها ؟ !

وانى لاعلم علم اليقين ان تربيـــة الزوجة لاطفالها تربية صالحة هي أهم واجب من واجباتها الاساسية الـــتى خلقها الله لادائـها فى الحيـاة – ولا يمكن أن تكون مكاسب الزوجة المادية بدرجة من الاهمية بحيث تلفت المـرأة عن واجب تربية أطفالها تربية صالحة، واذا ربحت المرأة ما فى الدنيا من متاع وخسرت تربية أطفالها ، فانها تكـــون الخاسرة خسرانا مبينا .

ان عجبى لا ينقضى من رجل يسمـح لزوجه أن تهمل تربية أطفالها من أجل المال ، فتعمل فى أعمال لم تخلق لها ، تلتهمها العيون الفاسقة ، وتتخلى عـن عملها الذى خلقت له ، وهو انجـــاب الاولاد وتربيتهم .

ورضي الله عن شهدائنـــا الذيـــن استشهدوا دفاعا عن أعراضهم ، فقد تخلصوا من رؤية أشباه الرجال الذيـــن يغضون النظر عن تصرفات أعراضهـم ويبيعونها بالمال .

ان تقليد الاجانب فى حرية المرأة فى كل شيء ، سيؤدى الى نفس النتائـج

---

(2) التشريع الجنائى الاسلامى (507) .

(3) شرح القدير (4/158) وشرح الزرقانى (8/113) وأسنى الطالـــب 4/120 والمغنى (10/335) .

التى يعانيها الاجانب · تفسخ الاسرة ، واختلاط الانساب ، وكثرة الخيانة الزوجية ، وتزايد الطلاق ، وتشرد الاطفال وانحراف الابناء والبنات ؛ وتفشى الرذيلة ، وتعاطى أم الخبائث، وانصراف الشباب عن الزواج ، وخراب البيوت ·

وقد أعطى الاسلام للمرأة حقوقها المشروعة ، وعين لها واجباتها المطلوبة ، ومن أهم تلك الواجبات تربية الاطفال تربية صالحة ، فعلينا أن نعطى المرأة حقوقها ، وعليها أن تؤدى واجباتها ·

والعامل الثانى من عوامل انتشار أم الخبائث فى البلاد العربية هو عامل : التعليم · ان ايفاد خريجى المدارس الاعدادية (الثانوية العامة) وهم فى دور المراهقة ، لم يتعلموا الدين والعربية الفصحى كما ينبغى ، الى الجامعات الاجنبية فى الخارج والداخل ، يؤدى الى اهتزاز شخصية الطالب العربى المسلم ، فتبهره علوم الغرب وحضارته، وتلوثه قشور مدنيته ، فيعود الى بلده ملوثا مفتوحا بكل ما هو أجنبى فى أسلوب الحياة والتراث واللغة ، فينقل أمراضه بالعدوى الى طلابه ، ومن أمراضه تعاطى أم الخبائث ·

ايفاد خريجى الاعدادية يؤدى الى ضياع أبنائنا فى وسط الحضارة المادية للغرب ، فلابد من ايفادهم بعد تخرجهم فى الجامعات العربية لاكمال دراساتهم العليا فى الغرب ، مع اختبار الطلاب الموفدين من هيئة حريصة على الدين واللغة ــ ليتعلموا العلوم التى لا يتيسر تعلمها فى الجامعات العربية كالعلوم التطبيقية المتخصصة مثلا ، فمن المهازل أن توفد الطلاب الى الجامعات الاجنبية للتخصص بالدين واللغة والتاريخ الاسلامى لان الاساتذة الاجانب فى الجامعات الاجنبية الذين يدرسون الدين واللغة والتاريخ الاسلامى أكثرهم يهود أو مبشرين أو جواسيس فيعلمون الطلاب العرب المسلمين الشك فى الدين واللغة والتاريخ الاسلامى فهذا الشك والدس والافتراء هو الذى يتقنونه ، وهم اذا عرضوا معلوماتهم فى تلك المجالات على علماء عرب مسلمين لا يستطيعون أن ينالوا درجة النجاح فى المرحلة الابتدائية من التعليم ، فكيف يستطيعون منح طلابنا أعلى الدرجات العلمية فى علوم لا يتقنونها ويكنون لها أعظم العداء · ويريدون لها أعظم البلاء !

كما يجب اختيار المعلمين والمدرسين من العناصر الخيرة التى تحرص على الدين الحنيف واللغة العربية الفصحى والتراث العربى الاسلامى والتاريخ الاسلامى ·

ان التلميذ والطالب يجد الاسوة الحسنة بعد والديه بالمعلم والمدرس والاستاذ ، فمن الحرام أن نفسح المجال للعناصر الفاسدة من التدريسيين لافساد أفلاذ أكبادنا من التلاميذ والطلاب ·

والمقاعد التى تتبعها الدول العربيـة فى اختيار المعلمين والمدرسين والاساتذة يقتصر على الشهادة العلمية وحدها ، بينما يجب أن ندخـل عنصر التديـن والاعتداد بالفصحى والتراث وتاريخ والاخلاق الحميدة والمعاملة الحسنـة فى الاختيـار ٠

وحينذاك سنجد ان العناصر الخيره من التدريسيين تخرج عناصر خيرة من التلاميذ والطلاب فى المدارس والمعاهـد والجامعات ٠

اما ان نزج كل من هب ودب فى مجال التعليم ، ففيه أعظم الاخطار وأوخـم العواقب ، كما نلمسه فى واقعنا المرير ٠

وسيقول قائل : واين يعمل أهـل الشهادات الآخرون الذين لم يختاروا للعمل فى حقل التدريس ٠ والجواب : انهم يمكن أن يعملـوا فى المناصـب الادارية الاخرى ـ وما أكثرها ـ حيث يكون تأثيرهم أهون شرا مما يكـون على التلاميذ والطلاب ٠

والعامل الثالث من عوامل انتشار أم الخبائث فى البلاد العربية هو عامل : الدولة ٠ والواقع ان عامل التعليـم وعامل الدولة : هما عاملان متصـلان اتصالا عضويا ، فهما عامل واحد وليسا عاملين لان الدولة هي المسؤولـة عـن التعليم بما فيه التعليم الدينى أيضا ٠

ان المحتـل الغاصب قـلص التعليم الدينى فى المساجد والمدارس والمعاهـد والجامعات ، وكان من المتوقع أن يعود هذا التعليم فى عهد الاستقلال الى ما كان عليه قبل عهد الاحتلال ٠ ولكن الدول العربية فى عهد الاستقلال حرصت على مناهج الاحتلال فى التعليم وذهب قسم منها الى مدى أبعد ، حيث الغوا التعليم الدينى نهائيا ، فبزوا المحتل الغاصب فى هذا المجال مع الاسف الشديد ٠

يجب أن تعود المساجد الى ازدهارها فى نشر التعـليـم الدينى واللغـوى والتاريخى ٠ لتخرج العلماء العامليـن من جهة والمجاهدين الصادقين من جهة أخـرى ٠

ويجب أن يعود التعليم الدينى الى المدارس والمعاهد والجامعات المدنية ، فمن أعظم الكوارث أن يتخرج تلاميذنا وطلابنا فى هذه المؤسسات التعليمية وهم فى جهل مطبـق بكـل تعاليـم الدين الحنيـف ٠

ويجب أن تطهر مناهـج التعليم التى وضعها الاستعمار لغرض تخريب الذمم وافساد الفرد والمجتمع ، وابعاد الدين عن الحيـاة ٠

كما ان الدولة مطالبة بالغاء القوانين التى لا تحرم أم الخبائث بل تشجـع عليها ، وقد فرض المستعمر هذه القوانين على البلاد العربية والاسلامية فرضا ، ليبيح الخمور والفسق والفجور ، حتى يدمر النشىء تدميرا ٠

ان الشريعة الاسلامية وحدها تحارب أم الخبائث حربا لا هوادة فيها ، فلابد من عودتها لتداوى المجتمع والفرد مما تركه المحتل من آثار تخريبية ، وتقـدم

للعرب والمسلمين لامراضهم أنجع الدواء ٠

ان المخجل أن تقدم الدولة فى حفلاتها الخمور ، وتسمح ببيعها علنا فى متاجرها الخاصة والعامة ، وتوافق على استيرادها أو انتاجها محليا ، ومن المخجل أن تكون أكبر صادرات احدى الدول العربية الخمور بأنواعها ، وان تشجع قسم من الدول العربية تقديم الخمور وبيعها بحجة تشجيع السياحة، وان تقيم احدى الدول العربية ناديا للعراة بحجة تشجيع السياحة أيضا ٠؟

أيبلغ الامر بقسم من الدول العربية أن تبيع الدين والعرض بالمال !!

أما أجهزة الاعلام العربية فتشجع بأسلوب مباشر أو غير مباشر على تعاطى أم الخبائث ويكفى أن تعرض أجهزة الاعلام المرئية تمثيليات يعاقر الممثلون والممثلات الخمر والمخدرات فيها ويدخنون ٠

وبمقدور الدول العربية أن تطهر أجهزة الاعلام وتوجهها للتى هي أقوم ، فتؤدى بهذا العمل واجبها ، وتجعل منها عنصرا للتعمير ، لانها بوضعها الراهن عنصر للتدمير ٠

وارجو ان لا تبلغ السذاجة بعربى مسلم حدا يصدق فيه ان الصحف والمجلات حرة فيما تكتب ، وان أجهزة الاعلام المسموعة والمرئية تلبى رغبات المستمعين ، فأكثر المستمعين ينصتون الى محطات اذاعة القرآن الكريم أكثر مما ينصتون الى محطات الاذاعة الاخرى ، هذا اذا كان هناك من ينصت الى الاذاعات العربية ٠

ولكن لو فرضنا جدلا ان قسما من المستمعين أو المشاهدين يرغبون سماع أو رؤية التمثيليات الفاجرة الداعرة ، أفتلبى الدولة هذه الرغبة المنحرفة ، وهي التى تدعى انها تقاوم الانحراف والمنحرفين ! ٠

وهناك صحف ومجلات تنشر اعلانات مدفوعة الاجر لانواع الخمر والدخائن، فيجب قطع دابر أمثال هذه المجلات ٠

وهناك دول عربية تقدم فى حفلاتها الرسمية وغير الرسمية الخمور والدخائن ، وتقدمها فى طائراتها الحكومية مع الطعام والهدايا ، وما سافرت على احدى تلك الطائرات الا وشعرت اننى غريب بين المسافرين لانهم يشربون الخمر ويدخنون ، وغريب على المضيفات لانهن يستغربن من وجود مسافر يعف عن الخمر ويكف عن التدخين ٠

وكم أتمنى على الله أن يتول الحكم فى الدول العربية حكام صالحون ، يخافون الله يتمسكون بتعاليمه ويلتزمون بالكتاب والسنة ، يرتادون المساجد ويغشون مجالس العلم والعلماء ٠ لان الشعوب العربية متدينة بالطبع ، تميل الى الدين والتدين — والحكام الصالحون يؤثرون فى شعوبهم فى توجيههم الى التمسك بأهداب الدين الحنيف ، والناس

على دين ملوكهم ، كما يقول المثل العربى القديم ، ويزع الله بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ٠

« الخاتمة »

تملك الدول العربية أقوى سلاح فعال لاستئصال أم الخبائث من الجذور نهائيا وهو تطبيق الشريعة الاسلامية تطبيقا حاسما على الامير والاجير ، والحاكم والمحكوم ، والغني والفقير ، والصغير والكبير ٠

ان التهاون فى تطبيق الشريعة الاسلامية يؤدى الى تكاثر الذين يتعاطون أم الخبائث وتضاعف عدد المدمنين ، وفى ذلك ما فيه من أخطار فادحة على حاضر المسلمين ومستقبلهم ٠

وواجب علماء المسلمين مكتمل لواجب الدولة فى القضاء على تعاطى أم الخبائث ، فلابد من تعاون العلماء والحكام على درء آفاتها الجسيمة تعاونا صادقا وثيقا ٠

واجب رجال الدول أن ينفذوا فتاوى علماء المسلمين نصا وروحا ، فهذا أعظم خدمة لابناء وطنهم وشعوبهم وأكبر وسيلة لرفع شأنهم أفرادا وشعوبا ٠

وواجب علماء المسلمين أن يبينوا للناس أحكام الشريعة بيانا واضحا لا لبس فيه ولا غموض وان يطالبوا الدولة بكل وسيلة وبشتى الطرق أن تطبق الشريعة الاسلامية التى جاءت لخير البشر ومنفعتهم ، ومصلحة الناس وصالحهم ٠

ومن المعلوم ان هناك اختلافا بين الفقهاء وفيما يخص المسكرات ، ومن المصلحة أن نضع حدا لهذه الاختلافات، لان تر كالثغرات التى يستطيع التسلل منها المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ليس فى مصلحة المسلمين فى مثل هذه الظروف والايام ٠

ولست بصدد ذكر هذه الاختلافات التى قد يكون من أسبابها حرمان قسم من الفقهاء فى وصول قسم من أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم الخاصة بالمسكرات اليهم فى أيامهم ٠

فأجتهدوا ما وسعهم الاجتهاد اعتمادا على الكتاب وعلى السنة التى اطلعوا عليها ٠ أما اليوم وبعد تدوين الحديث تدوينا متميزا ، فقد وضح كل شيء ، فلا عذر لعلماء المسلمين فى الا يجتمعوا على رأي واحد ، والحلال بين والحرام بين ٠

واجتماع رأي علماء المسلمين الاعلام فى أمر المخدرات ضرورى فى هذه الظروف والايام ، نظرا لتفشى تعاطى المخدرات فى البلاد العربية والاسلامية، ويتضح بما جاء فى هذا البحث ان أخطار المخدرات لا تقل عن أخطار المسكرات ان لم تكن أشد خطرا منها وأعظم بلاء ٠

وأعرض على علماء المسلمين النص الذى ورد فى كتب الفقه ليروا فيه رأيهم، « ويشترط أن تكون المادة المسكر ، مشروبا ، فان لم تكن كذلك فلا حد فيها ، وانما فيها التعزير كالحشيش والداتورة ٠ (1)

(1) اسنى الطالب (159/4) وحاشية ابن عابدين (329/3) ونهاية المحتاج (10/8) وانظر التشريع الجنائى الاسلامى مقارنا بالقانون الوضعى (502/2) عبد القادر عودة ـ الطبعة الاولى ـ القاهرة ـ 1379 هـ ٠

وقد ابتكر تجار الخمور أنواعا كثيرة على شكل أقراص وحقن لا على شكل مشروب ، تعمل عمل الخمر والمخدر ، لم يكن يعرفها الفقهاء الاقدمون ، فهل من المعقول أن يكون حد هذه الخمور والمخدرات تعزيرا ؟ ! .

وما رأى علماء المسلمين فى التدخين ، بعد أن ظهرت اضراره الفادحة على الصحة العامة والاقتصاد ؟ .

ان مجمع البحوث الاسلامية فى القاهرة ومجمع الفقه الاسلامى فى مكة المكرمة ، والهيئات الاسلامية فى كل مكان مطالبون باصدار فتاوى جماعية فى حدود أم الخبائث : مسكرات ومخدرات وتدخينا ، ونشر تلك الفتاوى على أوسع نطاق وفى شتى أجهزة الاعلام ، وتبليغها للحكومات العربية والاسلامية ، ومطالبتها فى اخراجها من حيز الفتاوى الى حيز التنفيذ .

ولست أشك فى أهمية هذه الفتاوى وتأثيرها فى المسلمين ، ولكنها لا تكفى ما لم تبادر الحكومات الى تنفيذها بحزم واستقامة ، وان تبادر الى تطهير أجهزة اعلامها واختيار الهيئات التدريسية فى مؤسساتها التعليمية ليكونوا أسوة حسنة لتلاميذهم وطلابهم ، وان تقطع دابر تهريب أم الخبائث الى بلادها ودار بيعها فى أسواقها ، وتمنع استيرادها فى الخارج وانتاجها فى الداخل .

وان تفتح أبواب أجهزة اعلامها لعلماء الدين ليقولوا كلمة الدين فى أم الخبائث . وللاطباء والعلماء والادباء كلمة العلم والادب فى أخطارها ، وان يطهروا مناهج التعليم من كل ما يناقض الدين الحنيف . وان يعيدوا تنظيم المناهج التعليمية على أسس مستمدة من ديننا وتراثنا العظيم الذى ينفع الناس ، وان يضعوا تدريس الدين والتاريخ الاسلامى والتراث فى تلك المناهج ، وان يعيدوا للمسجد مكانته فى العلم والتعليم والعبادة ، وان يهتموا بتربية الاطفال بجعل الاسبقية للتربية بالنسبة للامهات قبل أي واجب آخر ، وان يكونوا قبل كل شىء قدوة حسنة للحكوميين .

ان على علماء المسلمين والحكام أن يتحركوا بسرعة وتعاون وثيق للتغلب على شرور أم الخبائث قبل فوات الاوان .

لقد رفع العلماء والحكام شعار : استعادة فلسطين من العدو الصهيونى الى أصحابها الشرعيين .

ولن يستطيعوا استعادتها بالمدمنين الملوثين ، فالمدمن لا يقاتل أبدا ، والملوث لا ينتصر أبدا .

والذى يقاتل هو المجاهد فى سبيل الله ، والذى ينتصر هو الطاهر من الادران .

فلينظر العلماء والحكام كيف يفعلون .

والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله وأصحابه الطيبين .

الاجتهاد وقضايا الحياة المعاصرة

د. وهبة الزحيلي
أستاذ الفقه الاسلامي بجامعة دمشق

يعشق الناس في عاداتهم وملابسهم وأفعالهم كل جديد وقد شغف الانسان بالجديد من القديم ، لان النفس البشرية تمل بطبعها القديم وتألف وتهتوى الجديد ، الا ان التجديد لا يكون في الواقع وبالمنطق مرغوبا في كل شيء ، لان سلطان الاعراف والبيئات لا يجد له تأثيرا في أصول الاشياء ومركوز الفطرة ، وانما يؤثر عادة في بعض نظم المعيشة مما يلمس الانسان له فائدة ، فليس اذا كل جديد نافعا ، كما أن ليس كل قديم ضارا .

وهذا هو شأن تشريع الاسلام في أصوله ومبادئه ، فقد نص صراحة على أصول الاعتقاد وأسس الاحكام ، وقرر أحكاما أساسية لا مجال للاجتهاد والتجديد فيها ، ووضع مبادىء العلاقات والمعاملات الاجتماعية ، وترك أمر التفصيل والتطبيق فيها لعقول المجتهدين ، تكريما من الله لهذه الامة حتى لا يهمل عقول أبنائها ، ومنعا من تعطيل فاعليتها ، ولئلا يحكم على الشريعة بالجمود ، ولتظل بقواعدها المرنة متجاوبة مع ظروف الحياة وتطوراتها النافعة الصحيحة ، وبخاصة في عصرنا حيث أوجدت المدنية في القرن العشرين أوضاعا وأنظمة سريعة ومعقدة ومتشابكة اقتضتها ظروف الحياة المعاصرة واختراعاتها التي ملأت البر والبحر والجو .

والعقل البشري وحده هو الميزان في اصطفاء واختيار النافع المفيد وترك البالي العتيق في ضوء الهدايا الالهية ولا يكابر عقل سوى في أن المعتقدات والعبادات لها صفة القداسة والدوام والبقاء ، فجاء الاسلام موضحا الاصول، ومحددا نطاقا من الاحكام الشرعية لا مجال للاجتهاد فيها ، وهي الاحكام الاسلامية المتعلقة بأصول الاعتقاد والدين ، وأركان الاسلام الخمسة من فرضية الصلوات الخمسة ،والصيام والزكاة والحج والشهادتين ، والاحكام التي تمس مقاصد الشريعة الخمسة وأصولها الكلية وهي الحفاظ على الدين والنفس والعقل والنسب (أو العرض) والمال ، مما اقتضى تحريم الردة وجهاد الاعداء ، وتحريم جرائم

الزنا والسرقة وشرب الخمر وسائر المسكرات والقتل وعقوباتها المقدرة شرعا لها ، ومثلها أيضا كل العقوبات والكفارات المقدرة فى الاسلام ، فانه لا مجال للاجتهاد فيها ٠

كما لا اجتهاد فيما دل عليه النص صراحة أو قطعا « لا مساغ للاجتهاد فى مورد النص » مثل توزيع عبء الاثبات بجعل البينة على المدعى ، واليمين على المدعى عليه ، فى قول النبى عليه الصلاة والسلام : « البينة على المدعى ، واليمين على من أنكر » فلا يسوغ لاحد أن يعكس هذا التوزيع ، فيقبل البينة من المدعى عليه ، ويرفضها من المدعى ، أو يجعل الخيار للحاكم فى تكليف أحد الخصمين بالبينة أو اليمين ٠

وفيما عدا ذلك تظل دائرة الاجتهاد خصبة واسعة فى النصوص الظنية التى تحتمل أكثر من معنى ، وفى الحوادث التى لا نص ولا اجماع فيها ، لان الاجماع القطعى فى حكم النص بل دلالته أقوى أحيانا ٠

والاجتهاد فرض فى الاسلام ، مارسه النبى صلى الله عليه وسلم ، والصحابة والتابعون من بعده ، والتزمه المجتهدون طريقا نيرا للحياة ودفعا للحرج أمام المسلمين وتحقيق اليسر والسماحة ، ورعاية الحاجات والضروريات والمصالح الطارئة لهم ، اخلاصا منهم لشريعة الله ، وتجاوبا مع تطلعات الناس ، واثباتا لصلاحية الشريعة الدائمة ٠

وهذا وضع طبيعى تجاه كل قانون أو تشريع تكون نصوصه عادة محدودة متناهية ، وحوادث الناس وأقضيتهم غير محدودة ولا متناهية ، والمحدود لا يحيط عادة بغير المحدود ، الا من طريق الاجتهاد ، ومن المعلوم أن الفقهاء مطالبون شرعا بتعريف الناس أحكام الله ، اذ ما من نازلة أو حادثة الا وللاسلام حكم فيها ايجابا أو تحريما كما قرر الامام الشافعى ٠ وأن لم يجتهد الفقهاء كانوا جميعا آثمين معطلين بلا تردد ، فالاجتهاد حياة التشريع ، ولا بقاء لشرع ما لم يظل الفقه والاجتهاد فيه حيا مرنا مفتوح الباب ذا فعالية وحركة ، فالاجتهاد فى الوقائع الجديدة التى تتطلب موقفا شرعيا محددا فيها هو من أعظم القرب التى نتقرب بها الى الله سبحانه وتعالى ، لانه نقطة الارتكاز التى يقوم عليها الحكم بصلاح شريعة الاسلام لكل زمان ومكان : « **ولو ردوه الى الرسول والى أولى الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم** » ٠

لكن الاجتهاد وهو بذل الجهد فى استنباط الاحكام الشرعية من أدلتها ، ليس كلمة سهلة يحلو ترديدها لبعض الناس ، فهو اختصاص لفئة من الناس قادرة عليه ، وكما لا يقبل قول غير مختص فى أفق غير اختصاصه ، فلا يقبل قول ادعياء الاجتهاد ومدعى التجديد ومظهرى الغيرة فيما ليسوا أهلا له ، ذلك ان الاجتهاد فن أيضا يتطلب القدرة

على فهم النصوص العربية فى القرآن والسنة ، والناسخ منها والمنسوخ ، والتعريف على مسائل الاجماع ووجوه القياس الصحيح وشرائطه المعتبرة ، ولا يصير المرء مجتهدا الا بعد أن يفهم أساليب العرب فى كلامهم وعاداتهم فى استعمال المفردات والتراكيب ، ويعلم بعلم أصول الفقه لانه عماد الاجتهاد ، ويدرج مقاصد الشريعة والمصالح التى تستهدف الشريعة حمايتها ، والمفاسد والمضار التى تتجه الشريعة الى محاربتها والقضاء عليها • ومعيار المصلحة والمفسدة هو الشيء الالهى ، وليس مجرد ما يراه العقل المحض مصلحة ، فقد يرى الانسان ما هو ضار نافعا وبالعكس ، وقد يتاثر بمصالحه واهوائه وشهواته : « **ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والارض ومن فيهن**» •

وبما ان المعاملات قائمة على رعاية المصالح البشرية فهي المجال الطبيعى للاجتهاد ، ونحن اليوم أشد الناس حاجة لبيان حكم الله فى المعاملات التى جرت فى سوق العقود وأعمال المصارف مثل خصم السند وتحصيل الاوراق التجارية وفتح الاعتمادات ، وأعمال الجمعيات التعاونية مثل اقراض المزارعين للمصالح الزراعية ، وأمور الاقتصاد وسياسة المال ، والشركات بانواعها المختلفة ، وبخاصة شركات التأمين ، وسياسة الحكم وأصوله ونظم وقواعد حكم الامة، والعلاقات الدولية العامة فى ظل الانظمة الجديدة للمجتمع الدولى كهيئة الامم المتحدة وفروعها ، وغير ذلك من شئون الحياة • فما موقفنا من كل ذلك ؟ والفقهاء يقررون عادة « لا ينكر تغير الاحكام بتغير الازمان » •

هذه دعوة للتجديد والاجتهاد يقولها ويرددها من الناحية النظرية كل المشتغلين والمعنيين بالفقه الاسلامى ، ولكن ذلك مع الاسف ما يزال الامر فى حيز التأكيد والترغيب دون أن أجد لاحدهم الا ما ندر نصيبا فى هذا المجال •

ويجدر معرفة سبب الاحجام والاقلال ويتلخص ذلك فى أمرين :

أولهما : عدم توفر الاستعداد الكافى لتطبيق الشريعة من قبل السلطة الحاكمة وان كنا نسمع هنا وهناك خطبا وأقوالا تنادى بتطبيق الشريعة ، وأظن أن أكثر هذه النداءات للالهاء والاستهلاك المحلى، بدليل الاعراض الفعلى عن تنفيذ ما تقترحه لجان استمداد القوانين من الشريعة •

ثانيهما : عدم توفر الوعى والادراك العقلى والتجريبى لدى النشء بعامة ، والخصوم الجاهلين بالشريعة بنحو خاص ، وذلك بأن الشريعة وثروة الفقهاء وآراء السلف ما يحقق الغاية ، ويزلزل أركان الضعفاء المتطفلين على القوانين الاجنبية • كما انه ينبغى على المجتمع المسلم وبخاصة فئة التجار وأصحاب الاهواء أن يعتقد ضرورة العمل بالشريعة ، وألا يعمل فى الخفاء

للوقوف أمام القوانين والانظمة الشرعية التى قد تهدد مصالحهم غير الشرعية وتحجر أهواءهم فاننا أمام محاولات استقاء القوانين من الشريعة حوربنا من كثير من المسلمين التجار ، والمثقفين الذين نهلوا علومهم من ثقافة الغرب ومعارفه ·

واذا تمكنا أولا من القضاء على مساعى هؤلاء الخصوم للشريعة ، وسددنا المنافذ أمام دعاوى وتيارات الاستغراب والاستشراق ، وبددنا المخاوف التى قد يثيرها غير المسلمين، عندئذ نتمكن من احلال شريعة الله المحل اللائق الواجب لها ·

وعندها أيضا يمكن ترجمة الدعوة الى الاجتهاد الى واقع فعلى ، اذ من العبث فتح صيدلية أدوية نافعة مثلا ، دون أن نجد أحدا يشترى منها ، أو يساوم على الاقل فيها ·

ومع أنى أرى ضرورة الاجتهاد فى قضايا الحياة المعاصرة فما هي المبادىء أو الاطر العامة لحل مشكلات الحياة الحديثة انى ـ مع غاية التواضع ـ أعلن لاول مرة مثل هذه المنطلقات الاجتهادية : لا يرفض الاسلام أو المسلمون كل ما جاءت به القوانين والحضارات الحديثة ، وانما نقر ونعترف بأغلب ما فيها من نظم مفيدة نافعة ، ونرفض بعض جوانبها السلبية أو عثراتها وأخطائها ونظمها غير المفيدة أو الضارة بمصلحة الانسان ، وان كانت محققة لمصلحة دولة أقوى · هذا مع العلم بأننا لا نود ابقاء تلك القوانين والانظمة على أنها مجرد متفقة مع الاسلام ، فهي غير اسلامية الصبغة والنهج والهدف ، ونود فى ديارنا الاخذ بما هو اسلامى صرف مبدءا وأسلوبا وغاية وتصورا وتطبيقا ·

وبامكاننا أن نجد فى صيدليات الفقه الاسلامى بمعناه الاوسع ـ فقه الصحابة والتابعين وفقه المذاهب المشهورة والنادرة ـ نجد ما يغطى حاجة التشريع فى الوقت الحاضر ، بما تمخضت عنه أقوال فقهائنا من ثروة فقهية خصبة لا مثيل لها فى العالم · فتعدد الاقوال الفقهية واختلاف النظريات والمبادىء وطرق استمداد الاحكام وتقريرها ، كل ذلك يجعلنا فى غنى عن استيراد واستجداء القوانين الاجنبية ، فاختلاف المذاهب رحمة ومفخرة ، يمكن الانتقاء منها حسب الظروف والتطورات وان الاخذ بقول ضعيف فى نطاق الفقه الاسلامى أولى وأجدر من أخذ تنظيم أجنبى · فالاجتهادات الاسلامية وافية تماما بالحاجات التشريعية الحديثة ، بل قد تفوقها وتسمو عنها فى رعاية الحق والعدل والمصالح الانسانية · وإذا لم نجد أصلا فى فقهنا ما يغطى الحاجة التشريعية الملائمة للتطور والمدنية ، فان من الممكن أن نجتهد ونجدد ونحقق الغاية ، فليست شروط الاجتهاد وأهلية الاجتهاد متعذرة ، وأنما الاجتهاد ممكن

وميسر كل الامكان ، فقد هيأ اللـــه للمتأخرين وعلماء العصر من يســـر المواصلات وطباعة الكتب وتداولهـــا والبحوث الفقهية المقارنة المتعددة بما لم يتهيأ للسابقين · وتستطيع اللجـــان المتخصصة المتفرغة وضع تشريعـــات متكاملة فى كل فروع القانون فى أشهر معدودات ، بالاهتداء بقواعـد الشرع الكلية ومقاصد التشريع والاعـــراف الصحيحة التى لا تصادم النصـــوص القطعية أو الخاصة المعينة بقضية محددة، لان قاعدة « تتغير الاحكام بتغير الازمان» لا تعنى تغير الاحكام الشرعية الاصلية، والا كنا معطلين للشريعة مباشرة ، وانما الذى يتبدل بتبدل الزمان والتطور وأخلاق الناس هو الاحكام الاجتهادية من قياسية ومصلحية أي التى قررها الاجتهاد بناء على القياس أو على دواعى المصلحـة ، بسبب فساد الاخلاق وضعـف الوازع الدينى (فساد الزمان) أو بسبب حدوث أوضاع تنظيمية وترتيبات ادارية تحقق الهدف الحقيقى للحكم الشرعى حتى لا يكـــون هناك عبث ، ولا عـبـث فى الشريعة ، وهذا هو المسمى التطور مثل قبول شهادة الامثل فالامثل من النـــاس بدل وصف العدالة الكاملة المطلوبـــة شرعا ، ومثل التسعير ونحو ذلك · ومثل التسجيل برقم المحضر بدل ذكر حدوده الاربعة ونحو ذلك مما يدخل تحت مبدأ المصالح المرسلة وليس مجرد العـرف وحــــده ·

ويمكننى الآن بيـــان أهـم مـبادىء الاجتهاد فى مختلف فروع القانون ·

أولا ــ فى نطاق القانون العام :

وذلك يشمل القانون الدولى العام ، والدستورى ، والادارى ، والجنائى ، والاقتصاد والمالية العامة ·

أ ــ العلاقات الدولية الخارجية : سبقت الشريعة االسلامية الى تقريـــر أسمى المبادىء والقيم التى تقوم عليها علاقات الدول الخارجية ، وهي احترام الكرامة الانسانية وتساوى جميع الشعوب فى الحقوق الانسانية ، والتزام العدالة المطلقة · واعتبار الفضيلة والتقـــوى أساس ــ العلاقات الدولية ، وتقديس المعاهدات والمواثيق ، والاعتراف بمبدأ المقابلة أو المعاملة بالمثل فيما لا يخالــف المبادىء الاسلامية ، ويمكن التعامل مع غير المسلمين على أساس التعـــاون والتضامن فى تبادل المنافع والعلـــوم والمعارف ، واعتبار السلم هو الاصـــل والاساس فى معاملة الدولة الاسلاميـــة لغيرها · ومن الجدير بالذكر أن النظرية الغالبة عند فقهائنا هي اعتبار الحـرب أصلا فى العلاقات الدولية ، تمشيا مـع واقع الفقهاء الذى كان الفقهاء يعاشونه فى عصرهم ، فلم تهدأ الحروب الناشبة بين المسلمين وأعدائهم ، والتى كـــان الاعداء هم السبب الأوضح الدافع لها · ونرى أن الاصح هو اعتبار السلـــم أساس العلاقات الخارجية ، لان تشريع القتال فى الاسلام كان لدفع العدوان

أو للدفاع عن النفس أو الدين أو حماية المستضعفين والمعاهدين ، فلم يكن الجهاد وقتل الانفس مقصودا لذاته ، وانما هو وسيلة لتحقيق مقصود أسمى ، وغاية الجهاد هي تحقيق السلام العام ونشر دعوة الاسلام فى العالم · وقواعد السلم والحرب غاية فى الانسانية والعدالة والمثالية · ففى السلم تحترم الحقوق المكتسبة للدول ورعاياها ، وفى الحرب لا يجوز تجاوز الحد الذى يدفع به شر العدو ، فلا حرب بدون انذار ، ولا تمثيل ولا تعذيب للاسرى ، ولا اتلاف الا لضرورة حربية ، ولا قتل لحيوان الا للاكل أو لضرورة حربية ، والقتال لمن قاتلنا لا لمن سالم كالنساء والاطفال ورجال الدين والشيوخ والعجزة · والرحمة فى الحرب وبعدها هو طابع الحروب الاسلامية « فاعرف التاريخ فلا تجد أرحم ولا أعدل من العرب » ·

واذا كان المسلمون اليوم يلتزمون بميثاق الامم المتحدة الذى يرعى السلم والامن الدوليين ، فذلك متفق جوهريا مع دعوة الاسلام لكن لا يجوز شرعا عند توفر القوة الحربية اقرارا لغاصب لما اغتصبه من ديار الاسلام كما هو الحال فى فلسطين وكشمير وغيرهما مما يستولى عليه المستعمرون ، دفعا للعدوان وقمعا للجشع والطمع فينا ، وحماية لمقدساتنا ·

2 ـ النظام الدستورى : يلتزم الدستور الاسلامى بحماية العقيدة ورعاية الاقليات غير الاسلامية ، وبالحريات والحقوق الاساسية للانسان كحق الحياة والتعلم والعمل والتأمين الاجتماعى ، وحق الحرية التى لا تصادم النظام العام والآداب العامة ، ولا تصادر حريات وحقوق الآخرين ، وحق المساواة التامة أمام الشريعة فى الحقوق والواجبات والمسئوليات ، فلا امتياز لحاكم أو شريف أو غني أو طائفة على الآخرين : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » « لا فضل لعربى على أعجمى ولا لابيض على أسود الا بالتقوى » وكلمة عمر المشهورة المستمدة من صميم روح الاسلام : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا » · هذا وقد مهد الاسلام لتحرير الناس دون أن يتمكن من الغاء الرق ، على نحو كان أفعل وأقوى فى ايقاظ الضمير الانسانى ، بدلا من منعه ووقوعه فى فشل المنع ، فسكوت الاسلام كرها على اباحة الرق معاملة بالمثل ودفعا للصعوبات والحرج الذى كان يصطدم به لا يعنى الرضا به أو الاقرار الضمنى لمساوئه ، وانما لتهيىء الظرف المناسب للتخلص من مرضه ، بدليل قول فقهائنا : الشرع يتشوق ويتعطش لتحرير الرقاب وعتق الانفس التى لم يبق مصدر لها الا الحرب المشروعة · فالغاء الرق من العالم يتفق تماما مع تطلعات الشرع والفكر والفقه الاسلامى ·

ويعتمد نظام الحكم فى الاسلام على أساس مبدأ الشورى الذى نص عليه

القرآن وطبقه الرسول عليه السلام ، فلا استبداد ولا جهل ، لان الشورى أساسها ومحورها هم العلماء والمتخصصون ولا يهم تحديد أداة الشورى وطريقتها وأسلوبها وكيفيتها وانما يرجع ذلك لتقدير المسلمين وما يتفق مع الزمان والعصر الذى يعيشون فيه ، ولعل أروع ما يرشد لذلك أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يحدد قبيل وفاته للمسلمين طريقة اختيار الخليفة ليتركهم فى سعة وتقدير من أمرهم وعقولهم واخلاصهم للمبدأ ٠

3 ـ **النظام الادارى :**

للحاكم سلطات تقديرية واسعة فى تنظيم وترتيب أمور الدولة وحماية البلاد وتوفير النظام والامن وقمع الفساد والاجرام ، ورعاية الاخلاق وتوفير المصلحة الاسلامية العليا ، وذلك فى حدود تنفيذ أوامر الشريعة ، وتحقيق المصالح العامة ، « تصرف الامام على الرعية منوط بالمصلحة» و « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق ، انما الطاعة فى المعروف » والحاكم مسئول أمام الله والناس عن كل انحراف ، ولا يجوز للحاكم أن يأخذ شيئا من أحد الا بحق ثابت معروف ٠ والامام راع ومسئول عن رعيته ٠ بل هو مسئول عن الشاة والحيوان ان ضل أو تعثر ٠

واجتماع هذه الصلاحيات الواسعة لا غرابة فيه اذا تصورنا تمثل الحاكم لكل معانى الاسلام وأحكامه ، وكان الحاكم من طراز الخلفاء الراشدين ونحوهم ، فان ساء الحال فلا مانع شرعا من الاخذ بمبدا التخصص فى العمل ، أو بمبدأ فصل السلطات ، وجعل اصدار التنظيمات بيد سلطة أهل الحل والعقد أو المنتخبين فى المجالس النيابية وفق النظام الاسلامى ، لان المقصود هو رعاية المصلحة العامة ، والاستجابة لمقتضياتها، والعبرة بالمعنى الجوهرى أو المضمون، لا الشكل والمظهر ٠

ومبدأ الاسلام هو ضرورة تضامن الرعية مع الحكام والاهتمام بالقضايا العامة ، والشعور بالمسئولية ، والايجابية لا السلبية فى مناقشة الاوضاع وتحليلها واستمداد الحلول المناسبة لكل ظرف ٠ واطاعة الحاكم والانقياد لاوامره فيما يرضى الله ورسوله ٠

4 ـ **العقوبة والجريمة أو القانون الجنائى :**

كل معصية مخالفة للشرع هي جريمة ، وقد تستوجب الجريمة عقابا أخرويا أو عقابا دنويا مناسبا عادلا لتحقيق الامن وزجر الجانى ٠ ويمكن ادخال كل ما نصت عليه القوانين الحالية تحت مبدأ التعزير فى الاسلام ، فلقد تركت الشريعة أغلب الجرائم لتقدير الحاكم ليحدد ما يراه مناسبا لظروف الجناية والجانى ولكل زمان ومكان ٠ وأما الحدود أو العقوبات المقدرة فى الشريعة وهي خمس فقط فلا سبيل الى الاجتهاد فى الغائها أو تجاوزها لورود

النص فى شأنها ، ولانها تمس ناحية أساسية من نظام المجتمع الاسلامى وهي حفظ الضروريات الخمس : وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال · ولكن ما ينبغى علمه أن استيفاء شروط تطبيق هذه الحدودأمكن الانتقال الى التعزيرات، ولا يصح الادعاء بعدم امكان تطبيق الشريعة بسبب هذه الحدود ، كما لا يجوز ترك الشريعة بسبب عقوبات الحدود ·

5 ـ الاقتصاد العام والمال :

يقوم النظام الاقتصادى فى الاسلام على أساس الحرية الاقتصادية ورعاية مبدأ التوازن بين الفرد والجماعة (وسطية الاسلام) وتفضيل المصلحة العامة على المصلحة الخاصة ، والحرص على توطيد دعائم المودة والمحبة والتعاون والتكافل الاجتماعى ، واقامة صرح الحق والعدل ، ورعاية الحقوق ، ووجوب الوفاء بالعهود والالتزامات ، ومحاربة كل أسباب النزاع والخصام والعداوة ، ومقاومة كل أشكال التمييز والاستغلال والظلم ، فلا غش ولا ربا ولا احتكار ·

وللدولة خزينة (بيت المال العام) مستقلة عن ملك الحاكم ، وعن أملاك الرعية الخاصة ·

وتحريم الربا أو الفائدة أمر مقطوع به فى الاسلام ، فلا يصح التعامل بالفائدة ، ولابد من اقامة نظام مصرفى يقوم على أساس غير ربوى ، من طريق شركة المضاربة الجائزة شرعا ، اذ يكون أصحاب المال هم المودعون وادارة المصرف كالعامل المضارب · ولقد قام النظام الاشتراكى الحديث من أجل محاربة الرأسمالية والربا واستغلال الطبقة الاقطاعية البرجوازية كذلك عقود التأمين ذات القسط الثابت لا تتفق مع الشريعة لقيامها على الغرر والاحتمال، ويمكن الاعتماد على بديل لها وهو التأمين التعاونى القائم على أساس التبرع والقرض الحسن والتعاون فى ترميم الاضرار وتخفيف آثار الاخطار ·

ويمكن القول بجواز الاعمال المصرفية التى لا يشوبها الربا على أساس الوكالة أو الحوالة أو الاجارة أو القرض ·

وبهذا يتضح أن أهم المعاملات المعاصرة هي أعمال البورصة والمصارف والشركات ، فهي المجال الحيوى للنظام الاقتصادى العالمى ، وبها تتأثر جميع المعاملات الفردية والجماعية ·

أما أعمال البورصة بورصة العقود التى تصادم قواعد الفقه من ناحيتى عدم وجود المبيع وقت العقد ، وعدم تحديد الثمن ، فقد نجد لها حلا فى بعض الآراء الفقهية ، فابن يتيمة يرى جواز بيع غير الموجود ، ويرى الحنفية والمالكية جواز بيع العين الغائبة أو غير المرئية على الصفة ولا حاجة للخيار ، طالما كان المبيع مطابقا للوصف · ولا يشترط الامام أحمد تحديد الثمن وقت البيع ، ويجيز التبايع على سعر المثل ·

وأما أعمال المصارف فما كان منها ربوى فلا يجوز وهذا محصور فى عمليتين هما قبول الودائع وأداء أرباح (فوائد ثابتة) للمودعين ، والاقراض بفائدة وأخذ أرباح من المقترضين ·

وأما ما لا ربا فيه فجائز وذلك يتمثل فى العمليات التجارية المصرفية الاخرى وهي خمس : تحويل عملات الى أخرى مقابل عمولة تحصل عليها ، وتحويل نقود من قطر الى قطر مقابل عمولة ، وحفظ ودائع مقابل أجر تحصل عليه من أصحابها ، واعتماد « الشيكات » السفرية مقابل عمولة ، وبيع أسهم الشركات مقابل عمولة · فهذه العمولة فى العمليات الخمسة انما هي أجر على عمل ، يقدره المصرف حسب قواعد مضبوطة وأنظمة عامة تكاد تكون متماثلة فى العالم · وقد سهلت هذه العمليات أمور الناس ، وقربت البعيد، وحققت الحاجات العامة ·

وأما الشركات الحديثة المساهمة منها وغير المساهمة فكلها جائزة فى الاسلام اما على أساس شركة المضاربة (رأس المال من جانب والعمل من جانب آخر) أو على أساس شركة العنان (الاشتراك فى رأس المال والعمل معا) وقد حرم الشرع الاحتكار لاضرار المحتكرين بمصالح الجماعة ، وحبس أقوات الناس ، وتأديته الى ارتفاع الاسعار زيادة عن سعر المثل ، مما يجيز للسلطة مصادرة الاموال المحتكرة وبيعها بسعر المثل لحساب أصحابها ، منعا من الحاق الظلم بالناس ·

وأجازت الشريعة وفقهاؤها التسعير للسلع والامتعة اذا كان ارتفاع السعر بسبب جشع التجار وتدخلهم فى مصادمة قانون العرض والطلب ، وذلك رعاية لمصلحة الناس ودفع الضرر والحرج عنهم ·

وأوجب الاسلام سد حاجيات الدولة وتأمين مرافقها من طريق الرسوم العادلة على الاغنياء ، كما أوجب كفاية الفقراء واغناءهم بالزكاة وغير الزكاة حتى يتحقق المقصود ، وتشيع آثار الرحمة والتكافل والرعاية ·

وأجاز الفقه الاسلامى كل الانظمة المعروفة بالتأمينات الاجتماعية للمسلم وغير المسلم ، وأقر الاجتهاد الحديث قوانين العمل وحقوق العمال والتزام أرباب العمل بالتعويض عن الاضرار الناتجة من اصابات العمال بالآلة وغيرها ، وذلك على أساس نظرية « الاجر العادل » أجر المثل ، وعملا بقاعدة « الغرم بالغنم » ، لان الاسلام يكره الجور ويمنع الظلم ويمقت الاكتناز والاحتكار والاستغلال ويبنى المجتمع الانسانى على الاخوة والمحبة والمساواة ورعاية الضعفاء من العمال والخدم والتابعين ، بل والعطف على الحيوان ، واشاعة الرحمة بين العالمين ·

ثانيا ـ القانون المدنى الخاص :

ان الفكر العام القانونى فى نطاق القانون الخاص يكاد يكون موحدا بين الفقه الاسلامى والقانون الوضعى ، فمصادر الالتزام واحدة ، وهي العقد والارادة المنفردة والفعل النافع (الاثراء بلا سبب) والفعل الضار ، والشرع والهدف واحد وهو رعاية الحقوق الخاصة ودفع الضرر وترميم آثاره لهذا كان كل ضرر موجبا للمسئولية والتعويض عنه عملا بالحديث النبوى : « لا ضرر ولا ضرار » والحق فى التعويض أو ضمان الالتزام بمختلف أنواعه مؤيد ومضمون بحماية القضاء، حتى ولو كان المقضى عليه هو الخليفة ٠ والعقد كالاقرار ملزم لعاقده دون غيره « **يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود** » ٠ والشروط العقدية حرة وملزمة للعاقدين الا ما يعارض النظام العام والآداب « المسلمون عندهم شروطهم الا شرطا أحل حراما أو حرم حلالا » ٠ والعقود كلها رضائية لا تخضع لشكلية معينة ، ما عدا عقد الزواج الذى يتطلب حضور الشاهدين ، ويجب تنفيذ العقود بحسن نية ، فكل غش أو تدليس أو تغرير من عاقد يمنح الآخر حق الخيار وفسخ العقد ، والعرف والعادة أساس لتوزيع الحقوق والواجبات بين المتعاقدين اذا لم ينص فى العقد على طريقة معينة ٠

واذا اقتضت المصلحة ايجاد عقود جديدة أو تقرير شروط عقدية جديدة فيمكن الاجتهاد فيها فى ضوء مبادىء الشريعة العامة ٠

ثالثا ـ تنظيم الاسرة أوالاحوال الشخصية :

حرصت الشريعة على تنظيم عقد الزواج لاقامة بنيان الاسرة على أوطد الدعائم التى تمكن من الحفاظ على بقاء النوع الانسانى وانجاب الاولاد وتربيتهم تربية سليمة لان الزواج مظهر من مظاهر الرقى الانسانى ، وهو راحة النفس الفاضلة ، وأساس سعادة الرجل والمرأة على حد سواء ، فجعل الزواج عقدا مدنيا كسائر العقود التى تنعقد بمجرد الايجاب والقبول مع حضور شاهدين بدون تدخل مرجع دينى فى شأنه ، وأحيطت فيه الحقوق والواجبات بتقديس دينى ، فوصف الزواج بانه « أحب الحلال الى الله » كما وصف الطلاق بانه « أبغض الحلال الى الله » وقد جعل الطلاق بيد الرجل لا بيد المرأة أو القاضى ، لانه مسئول عن واجبات الزوجية من مهر ونفقة والغنم بالغرم ٠ ومع ذلك يجوز عند عقد الزواج أن يتنازل الرجل للمرأة عن الحق فى الطلاق، ويصبح الطلاق بيدها ٠ واذا لم يتنازل عن ذلك الحق فلها ايضا أن تطلب من القضاء التفريق بينها وبين زوجها لاسباب متعددة كالغيبة سنة فأكثر ، أو للضرر وسوء العشرة ، أو لامراض منفرة كالجذام والبرص والجنون ، وقررت الشريعة رعاية الضعفاء

والمرضى والقصر من الاولاد بالولاية والوصاية ، والولاية سلطة للاقرب فالاقرب على شخص القاصر لتربيته وتعليمه وتزويجه وتأهيله للمستقبل . والوصاية سلطة ادارية للاقارب أو من يختاره القاضى على مال القاصر لحفظه وادارته واستثماره .

والارث فى الشريعة مشروع لتفتيت الملكية وتوزيعها بين الورثة فبالموت تنتقل ملكية المتوفى الى ورثته ، وهو حق جبرى بحكم الشرع لا بارادة المورث، فليس للمورث حرمان وارثه من حق الارث ، والارث مشروع فى الاسلام نعمة للوارث لا نقمة عليه ، فهو يتلقى الحقوق والاموال ، ولا يتحمل الديون التى على المورث . ووزع الشرع التركة توزيعا عادلا بين مستحقيها بحسب درجة القرابة للميت ، واذا لم يكن قريب وارث، فبيت المال (الخزينة العامة) وأرث من لا وارث له ، وثبت توزيع المواريث فى القرآن الكريم فى أجلى بيان وأعدله وأكمله ، وتم بيان قليل من احكام المواريث فى السنة أو الاجماع ، لان الارث من أهم الوسائل أثرا فى تملك الاموال . وأحكام الميراث الشرعى غير قابلة للتغيير والتبديل والاجتهاد فيها ، لانها مرتكزة على العدل ، ووضع الحقوق فى نصابها ، ومنع أسباب الخلاف والنزاع والخصام فيما بين الورثة . أما اعطاء الذكر ضعف الانثى فى الميراث فغاية فى العدل ، لان الرجل هو المكلف بالانفاق على الاسرة ، ولا تكلف المرأة بأية نفقة سواء أكانت أما أو زوجة أو بنتا أو أختا ، مما يجعلها موفورة الحظ ، ولها ادخار كامل نصيبها لظروف الحياة .

والخلاصة أننا نجد عن طريق الاجتهاد بالرأي الصحيح حلا لكل مشكلات الحياة المعاصرة ، ولكن ليس معنى الاجتهاد بالرأي هو الاعتماد على مجرد العقل والهوى والشهوة ، لان العقول تخطىء ، وانما لابد من الاهتداء بروح الشرع ، فالاجتهاد فى الشريعة محصور فى العمل بنصوص الشريعة وفهمها واستنباط المصالح والمعانى العامة منها والاهتداء بروح التشريع ومبادئه وقواعده الكلية ومقاصده التشريعية العامة ، وذلك أمر سهل للتفصيل والتفريع ورعاية المصالح والعدل والحق .

حاجة البشرية الى التشريع السماوى

الاستاذ عبد الرحمن الجيلالى

بسم الله الرحمن الرحيم ،

وصل اللهم وبارك على نبينا ومولانا محمد النبى المصطفى الكريم وعلى آله وصحبه أفضل الصلوات وأزكى التسليم .

أتقدم بالشكر الى هيئة المركز الثقافى الاسلامى . حيث انها لاحظت فيأخيكم هذا حسن ظنها وانه يلقى محاضرة ، اسمتها محاضرة وجعلت الموضوع دينيا باقتراح منها ، وان شاء الله نكون عند حسن ظنها .

فنقول بعد البسملة والحمدلة ، كما أشار الاخ الكريم ، مقدم هذه المحاضرة بالعنوان الذى سمعتموه وهو : (حاجة البشرية الى التشريع السماوى) .

فيقال أيها الاخوة الكرام ، وان العقل البشرى هو أعظم ما منح الانسان فى حياته ، حقا وهو أجل ما تكرمت به الخليقة الالهية (الخلقة الالهية) على هذا النوع البشرى وأنه ورد فى فضله، وفى شرفه ومدحه ، من أقوال الحكماء والعلماء والفلاسفة . والانبياء والمرسلين ما ورد من نصوص وثيقة ، وأقوال صحيحة . حتى انهم قالوا فى العقل . هو منبع العلم ومصدره وأنه أساس العلم ، وهو الوسيلة الى سعادة الدنيا والآخرة .

ويروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لابى الدرداء رضى الله تعالى عنه « ازدد عقلا تزدد قربا » . وقالوا « لو صور العقل لاظلمت معه الشمس » . هذا حق وصدق ، نعم هو كذلك ، فالحمد لله على نعمة العقل ، ويكفى فى التنويه بشرفه والتنويه بفضله أن نوه به القرآن الكريم ، وكان العقل هو مناط التكليف من الله جل جلاله . بالخلافة لعبده فى أرضه ، ولكن ما هو العقل ؟ وما هي ما هيته ؟ وما حقيقته ؟ لقد ذهب العلماء فى تعريف العقل مذاهب ، وعرفوه بتعاريف شتى وتتلخص هذه التعاريف وهذه الاقوال فى كلمة جاء بها ، التهامى (وهو صاحب كتاب « كشاف اصطلاحات الفنون » جمع هذه التعارف ، فى تعريف واحد يشتمل على جوهر ما عرف به العقل فقال « العقل غريزة للنفس ، تتمكن بها من ادراك الحقائق ، والتميز بين الامور

(*) محاضرة القيت بالمركز الثقافى الاسلامى بالجزائر العاصمة بتاريخ 1979/06/11.

الحسنة والقبيحة وهي تزداد قـــوة بالتجارب ، وتستنبط بها المصالـــح والاغراض ويحصل بها الوقوف عـــلى العواقب » ٠

ولكن مع هذا كله ومع المدح الذى ورد فى العقل فى التنويه به والتعريف بـه وغير ذلك مما ورد فيه من نصـــوص نبوية ، وآيـات قرآنيـــة ، وأقـــوال فلسفية ، ٠٠٠ الخ ٠

مع هذا كله نجد لهذا العقل ، نجد له حدودا ونهايات ، ينتهى عندهـــا ٠ ويقف دونها ، فلا يتجاوزها الى مـــا وراء ذلك ٠ بل يلتجىء العقل نفســـه الذى قيل فيه ما قيل حتى انه قيـــل « لو صور العقل لاظلمت أمامه الشمس» يلتجىء فى التلقين والتعليم ويلتجىء الى الاسترشاد والاستزادة من الغيب ، اذ غير خاف عليكم أيها السادة ، وعلى كل ذوى البصائر وعلى كل منصف سليم التفكير ، غير معاند ولا ممـارى ولا متعصب ، لا يدركها العقل ، ولا يدركها الانسان بعقله ، ولو بلغ ما بلغ مـــن شدة الذكاء والفطانة ، هناك أشيـــاء لا تدرك لا بالحواس ولا بالتمييـــز ولا بالعقل ، وانمـــا طريقهـــا التعلـــم ، والاسترشاد وهناك طريق آخر يســمى بالجوهر وهو غير العقل ، فالعقـــل مهما بلغ كما ذكرنا من اتساع الافق ، وهو قليل العناء فى كثيـــر من المواطـن المهمة ، كثير العناء المعضلات المدلهمة ، فالعقل ان عرف شيئا غابت عنه أشياء ٠

قل لمن يدعى فى العلـم معرفـــة
غلمت شيئا وغابت عنك أشيـاء

أو كما قيل لطالب علم النجم وعلـم الفلك ، ما قيل :

ولابد من شيخ يريك شخوصهـا
والا فنصـف العلم عندك ضائع

لا نكران فحاجة الانسان الى العقـل ضرورية ، لادراكنـا الاشيـــاء ولتعقل الاشياء ، غير أننا نراه لا يكتفى بهـذا الادراك لامتـلاك الملكة وللسلامة وليؤمن الخطـــأ ٠

فالعقل الملتبس به البدن ، أو البدن الملتبس بالعقل ، اذا نظرنـا اليـه الى صاحب هذا البدن الى الشخص الملتبس بالعقل نجده يجهل حتى مصالح نفسه، ومصالح ذاته وتسيير نفسه وشخصيته، لا يحسن كيف يعالج نفسه ، الا باكتساب ذلك من أهل المعرفة ، لمعالجة الاجسام ، ومعرفة العقاقير من الاطباء ، وهـــذا لا يدركه بحواس الانسان ولا يدركـــه بعقله ولا بذوقه ولا بتمييزه ، وانما يضطر للسؤال والاستفادة من الغير والاستعانة بالغير ، ان كان أعقل العقلاء ٠ فالعقـل كما نراه مجردا لا يغنى صاحبه ، ولا ينقذه من التهلكة ، بل قد يقع فى التهلكة وهو لا يدرى ، ويكفى لاستدلال عـــلى قصور العقل وعدم غنائه بسلوك طريق النجاة أننا نجد هذا الانسان العاقـــل يجهل حتى نفسه يجهل ماهيتها يجهـل روحه وحقيقتها ، لا أدرى فاذا كـــان الانسان الكامل العاقل ، التام الحواس

والادراك والتمييز نراه حائرا فى معرفة نفسه التى بين جنبيه ، يتخبط أحيانا فى البديهيات ، فلماذا يقع الحبل على الغارب ؟ فاذا بالحبل على الغارب فى الغيبيات ، وفعلا لا نرى أيها السادة والسيدات · أن فى استعمال العقل والاستبداد به لتقويم معيشة الانسان القصيرة فى هذه الحياة الدنيا ، لا يكفى للاستقامة على المنهج القويم ، بل نجد انفسنا مضطرين الى التعلم والاسترشاد والاستشارة والاستعانة بالغير ممن قضى منهم الازمنة والاعصار فى تقويم الانظار ، وتعديل الافكار ، وتثقيف الاذهان ، ووضع قوانين لحفظها · ومع هذا كله نجد من بين العقلاء ، من يقوم على ما وضع من شريعة العقل فيزعم أنه أرفع من واضعها وأعلم بالمصلحة من غيره · فيذهب بالناس مذهب شهواته ، فتذهب حرمة تلك القوانين وتتهدم عن القوانين الوضعية ، تذهب حرمتها ، وبناؤها ، ويفقد ما قصد بها ولوضعها ·

فها نحن أيها السادة والسيدات لا نزال الى الآن من هم هذه الحياة الدنيا نتخبط فى المشاكل تتجدد وتتعقد فى كل حين وآن ، فلا ندرى ولا نعرف بطريق العقل المجرد ، متى ، ولا كيف الخلاص منها بسلام ؟ فنحن لا نزال فى شوق ملح ، وتلهف الى طمانينة واستقرار نفسانى ، تسكن اليه خواطرنا وتطمئن اليه قلوبنا ذلك لما نجده فيما اذا عولنا على الاعتماد في الاهتداء على العقل البشرى وحده وجدنا أمامنا تفاوتا عظيما ، وأعنى بهذا التفاوت ، ما هو موجود من تفاوت الناس فى الادراك ، وفى العقل وفى التميز واختلافهم فى النظر والتفسير نظرا لاختلاف الغرائز وما فطر عليه الخلق من تفاوت درجاتهم فى تسليط على قمع الشهوات البهيمية ، وما يجد الانسان مع ذلك من قوة وضعف فى الفهم والادراك أو ما يقارب الفهم والادراك فيوافقه أو يخالفه ·

أيها الاخوة الكرام ــ لقد ثبت فى تاريخ العقيدة الدينية انها ترجع فى العهد القديم وفى عهدها الاول الى نحو ثمانية آلاف سنة مضت أي منذ شعر هذا الحيوان المفكر بالقوة العاقلة وهو الانسان ، منذ شعر بأنه مغلوب بقوة غيبية هي أرفع من قوته ومغلوب القوة ما انت منها بغلبتها عليه مما حوله ، وشعر بأنه محكوم بارادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم فى وجوه ربما لا يعرفها حق المعرفة ، ولا تتطرق اليها ارادته ، فذهب هذا الانسان حينئذ الى التفكير ، والى البحث عن هذه القوة التى تسوقه الى مستقبل يجهله ، فتصورها بعضهم فى الحيوانات ولا أدرى لماذا تصورها فى الحيوانات ؟ ربما لكثرة نفعها أو لكثرة ضررها ومنهم من تمثلها فى بعض الكواكب ، فعبدها وهي على ذلك لظهور أثرها ، ومنهم من تصورها فى الانهار والاشجار والاحجار لاعتبارات له فيها، ومنهم من تمثلت له هذه القوى فى آثار القوى مختلفة فى أنواع متفرقة، تتمثل فى أفراد من كل نوع وتتخالف

بتخالف الانواع فجعل لكل نوع الها ، فكان هناك اله للظلمة ، واله للنور ، واله للمطر ، واله للبحر ، واله للريح ، و ٠٠٠ الخ ٠

ومنهم من قدس الحيوانات كالصقر مثلا والنسر والقط والتمساح والبقر ، كل هذه عبدت على انها آلهة على انها قوة غيبية متسلطة على الانسان فى حياته ، ولا تزال الى يومنا هذا تعبد ، يعبد الحيوان وبالاخص فى الهند الذين لا يزالون يعبدون البقر ، ومنهم من أله الاشخاص وكان العرب فى الجاهلية أنفسهم قبل البعثة المحمدية على صاحبها أفضل الصلوات وأزكى التسليم ، يذكرون الله على ألسنتهم ويسمون أبناءهم - عبد الله - ومنهم والد النبى صلى الله عليه وسلم محمد بن عبد الله ، ويسمون تيم الله (والتيم بمعنى المستعبد وهو عائد الى عبد الله) لانهم يقولون عبد الله ، أو تيم الله ، وهم مع ذلك يعبدون الاوثان والاصنام ، ويقولون « لا نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » ويقول عنهم القرآن الكريم « **ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله** » وهم فى حال الجاهلية وما يعنون بقولهم « الله » ؟ يعنون من قولهم الله هو من كانت له القدرة على خلق ما ذكرتم ، من خلق السموات والارض ، هو الله ، من سخر الشمس والقمر هو الله ، يعنون صاحب هذه القوة فقط ، فهذا الشعور بهذه القوة الغيبية كاف فى الاستدلال به على أن البشرية فى حاجة الى تشريع سماوى ٠ ولو فرضنا وان هناك من البشر من يصعد بقوة عقله وتدبيره الى أعلى مراتب الملكوت معتمدا على ما أوتى من العقل وحده ، فاننا لا نجده الا مخطئا ٠ مخطىء فى اصابة عين الحقيقة فى كثير من الاشياء وما ذلك الا لعجزه على التسلط والتغلب على القوة الطبيعية الكامنة فى نفسه ، مع ما فى نفسه من نزعات الاهواء عن العقل ، الا ما شذ من الخلق ٠ فمن أجل ذلك وبسببه - أيها الاخوة الكرام - قلنا بحاجة البشرية الى دين سماوى وان العقل البشرى لا يكفى بالاهتداء الى الصواب ، فلابد لمن يأخذ بيده الى كل ما هوضرورى لهذا الانسان البشرى لصاحب العقل له على ما فيه الهناء والسعادة ٠ واذا أسلمنا بأن ما يراه عقل المرء هو وحده حق وعدل ، وهو كاف لاستقامة أحوال الانسان وانتظام شمله ، فانه فضلا عن تفاوت العقول ، وتضارب الافكار ، واختلاف الانظار ، فان الناس لا يرضون بحكم عقل عاقل ، لا يجمعون عليه ، وذلك لاختلاف أهوائهم واختلاف مراتب ادراكهم وغلبة الشهوات عليهم ، واختلاف النظر والغرائز فيهم فتضطرب آراؤهم ، فيما هو الصالح وما هو الاصلح ، ولما ركز ورتب فى الانسان من مزاج الميل الى مواقف الخير وباعث الشر ، فالانسان مفطور على ذلك ، واذا

كان هذا لانسان العالم ، المفكر ، والحكيم العاقل ، لا يزال يغتال الحقوق ويظلم من هو أضعف منه ، ولم يهتد الى الصواب ، فكيف يكون الحال ؟ اذا ألقى **الحبل على الغارب ، ووكل أمر هذا الانسان الى نفسه أو الى عقله ، عقله الشهوانى وغريزته الحيوانية ماذا يقع ؟**

لا شك وانه يلقى بنفسه الى التهلكة ، ويتدهور فى مهاوى الضلال ورحم الله من قال :

والظلم من شيم النفوس فان تجد

ذا عفة فلعلة لا يظلم

اذن فالعقل البشرى هو محتاج ضرورة الى نبراس يضىء له الطريق حتى يصل الى غايته سالما من كل الاخطار والآفات · ومن كل العثرات ، وهذا النبراس ما هو ؟ هو الشرائع السماوية التى جاءت بها الرسل عليهم سلام الله ، هو العقل ·

والعقل أيها الاخوة · وان كان يدرى ويعلم بفطرته بعض ما يهديه الى ما فى الحياة من خير أو شر · فانه على كل حال ، لا يدرك ذلك على حقيقته ، ولذلك نراه لا يتفق مع غيره ، فشملته العناية الربانية ، فأرسلت اليه الهداة يرشدونه ويهدونه الى سواء السبيل ، وليس معنى ذلك أيها الاخوة الكرام ان العقل بعيد عن الشرع ، أو هو مخالف للشرع كلا ، ثم ألف كلا · بل هما العقل والشرع متضافران فالعقل كالاساس والشرع كالبناء ، ولكن لا يغنى أساس ما لم يكن بناء ، ولا يثبت بناء ما لم يكن أساس، ولا يخفى أن كل تكليف بشرط العقل ورضي الله عن الامام على بن أبى طالب كرم الله وجهه حيث يقول :

« رأيت العقل عقلين ، فمطبوع ، ومسموع ، ولا ينفع مسموع اذا لم يكن مطبوع ، كما لا تنفع الشمس وضوء العين مملوء » واذا تأملنا أيها الاخوة ، خلقة أنواع الحيوان مطلقا الناطق منهم وغير الناطق ، ظهر لنا واضحا جليا ، أن فى الحيوانية ميلا عظيما الى الشر ، أو توقعا للشر أكثر من الخير ، والذى ينبؤنا على ذلك هو ما تظهر عليه الحيوانية أو الحيوان مطلقا فى خلقته الطبيعة من سلاح حاد ، فمن يومه الاول الذى يوجد فيه يولد الحيوان بسلاحه، فصاحب القرن يولد بقرنه ، وصاحب المخلب يظهر بمخالبه الجارحة ، ويظهر بأظافره الفتاكة وأنيابه القواطع ، وذوات منقار بمنقارها الحاد ، وذوات الشوك بشوكها المؤلم · وذوات السم الزعاف تولد كذلك بسمومها القاتلة ، نعم وان كان الاصل فى هذه الاشياء أو هذه الانواع من السلاح انما هي خلقت لدفاع أصحابها عن نفسه ، ولكنه يستعمل سلاحه هذا ، فى ظلم غيره فيتعدى به القوى على الضعيف ، ومن الحيوان هذا الانسان العجيب ، وما أدراك ما الانسان ! فهو ذلك الحيوان الناطق وليس معنى الناطق ، كما يفهم بداهة ،

معنى النطق أو الكلام ، أو التلفظ بالكلمات ، لا • فانما نعنى بالناطق هنا، المصطلح عليه فى علم المنطق ، والمناطقة اذا قالوا حيوان ناطق ، يعنون به المفكر بالقوة العاقلة فهذا هو الحيوان الناطق فى اصطلاح المناطقة ، وهو الذى نعنيه ، فهذا الحيوان الناطق يمتاز عن بقية أنواع الحيوان كله بكونه متعدد السلاح ، ليس له سلاح واحد كبقية الحيوانات ، بل هو متعدد السلاح ، فهذه يده التى يبطش بها وهذا لسانه وهذه سيوفه وحرابه ، ومدافعه وهذه بنادقه وهذه أساطيله وغواصاته وصواريخه متفجراته وما فى حكمها من مدمرات الحصون ومدكدكات القلاع وهذه ••• الخ • أضف الى ذلك كله نفسه الامارة بالسوء.واذا قارنا بين أسلحة الانسان هذه ، وبين بقية أنواع أسلحة الحيوان الاخرى الطبيعية ، كان سلاح الانسان طبعا هو أشد فتكا وأعظم خسارة ومع هذا كله فلا يزال الانسان مستمرا ، فى استنباط الحيل ليتمتع وان لم ينفع ، ويغلب عليه ذلك ، حتى انه ليخيل اليه أنه لا ضير عليه ولو انفرد وحده بالوجود عمن يطلب مغالبته ، وكلما لاح له النفع لنفسه فتح لفكره بابا من الحيلة، وهيأ له وسيلة لاستعمال القوة ، وعند ذلك يقوم التناهب مقام التواهب ، ويقوم الشقاق محل الوفاق ، ويثور الضابط لسير الانسان اما الحيلة واما القهر ، فهذا هو شأن الانسان فهو دائما يجرى فى حلبة سباق التفكير فى ابتداع وفى اختراع أفتك سلاح ليقضى به على غيره ، وصدق الله العظيم « **قتل الانسان ما أكفره** » •

ومهما ذكر الانسان فى القرآن الا وكان متبوعا بالذم والسخط ، فهل من حكمة أيها الاخوة الكرام ؟ كهذه الحكمة ، ليدرك هذا الحيوان المفترس مهلة ، كلا والله • اذن فكان من المعقول أن يسوسه سائس ويروضه مروض ، فلعل هذا السائس يحد من شوكته ويلطف من شدته • أو على الاقل يشذب من جبروته وطغيانه ، تطاوله على أبناء جنسه ، فكان هذا الانسان لهذا محتاجا ، بل فى أكثر الحاجة الى تشريع سماوى ، فأقام له الدين من أفراد جنسه مرشدين هادين ، وميزهم من بين أفراد المجتمع البشرى ميزهم بخصائص فى أنفسهم لا يشركهم فيها غيرهم وأيد ذلك زيادة فى الاقناع بآيات باهرات تملك النفوس وتأخذ الطريق على سوابق العقول ، فيستخزى الطامع ويذل الجامح ، وليصدم بها عقل العاقل فيرجع الى مستواه ويرجع الى نفسه هؤلاء هم الذين يطرقون القلوب بقوارع وينبهر لها بشر الجاهل فيرتد عن غيه بأمر الله ، ويدركون المدارك بظواهر من آياته فيحيطون القول بما لا مندوحة عن الله ، وأولئك هم الانبياء والمرسلون عليهم سلام الله •اذن فبعثة الانبياء صلوات الله عليهم من متممات تكوين الانسان والانسانية • اذ يقول صلى

الله عليه وسلم « بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » ٠

فبعثة الانبياء والمرسلين من متممات الانسانية ومكارم الاخلاق والبشرية ، والانسان هو فى أهم الحاجة اليهم ، ومنزلة البعثة من النوع البشرى هي بمنزلة العقل من الشخص هي نعمة أتمها الله على عباده لكي لا يكون للناس حجة على الله بعد الرسل، ولنأخذ بذلك مثالا أيها الاخوة الكرام مثلا هذه العملة المالية النقدية نقول السكة الذهبية والفضية ٠ ففى الشرع الاسلامى الكريم ، المنع البات من اختزانها من غير اعطاء بعضها للفقراء والمساكين ، ومن ذكرهم القرآن الكريم، من غير اعطائها لمن تصرف اليهم من الفقراء والمساكين وما عطف عليهم ممنوع ، لقد منع الشارع من ذلك ، كما يمنع الاسلام من اتخاذ الاوانى من هذه السكة من هذه النقود من هذه العملة أو هذا المعدن ٠

فاتخاذ الاوانى من الذهب والفضة للاكل والشرب ممنوع شرعا ، كما يمنع الاسلام بيع الذهب بالذهب والفضة بالفضة بزيادة هذا ممنوع فى الاسلام فاذا قيل لانسان لاتأكل ولا تشرب فى أوانى الذهب ولا فى أوانى الفضة أو لا تتخذ منهما آنية والا تعاقب ، ماذا يقول ؟ ٠ يقول أنا أتصرف فى ملكى ولا ينازعنى فيه أحد ، فكيف أعاقب على التصرف فى ملكى ؟ يقول هذا خارج عن العقل لانه لا يدرك السبب فى ذلك ، واذا قيل له ليس بيع الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة بزيادة والا تعاقب ، قال أنا أبيع وأشترى برضى واختيار منى ورضا صاحبى الذى أعامله ولولا البيع والشراء لخربت الدنيا وتعطلت المنافع هذا شيء خارج عن العقل كيف لا أتعامل بالذهب والفضة ، وكلامه هذا صحيح فى بادىء الرأي كما يقال :

على وجه حي مسحة من ملاحة
وتحت الثياب العار لو كان باديا

فهو لا يدرى يقول هذا خارج عن العقل ، لان العقل غير مدرك لذلك ، والا لماذا وجب العقاب ، فكيف أعاقب ؟ فيحتاج اذن العقل من وجود من يرشده ويدله على السر فى ذلك فيقال له : ان الحكمة التى نجدها فى وجود الذهب والفضة بين أيدينا ٠ هي الحياة بهما ، فهما فى حد ذاتهما حجران ، معدنان ، لا منفعة فى أعيانهما اذ لا يردان حما ولا بردا ٠ ولا يغذيان جسما ، والخلق كله محتاجون اليهما وذلك أن كل انسان يحتاج الى أشياء كثيرة هي مزدرية له فى حياته وفى معاشه ضرورية له فى حياته اليومية وهو محتاج الى مطعمه والى ملبسه والى مسكنه وقد لا يملك ما يحتاج اليه فى حياته ، ويملك ما يستغنى عنه ، كمن يملك مثلا حصانا وهو فى حاجة الى البر (القمح) والذى يملك البر قد يستغنى عنه وهو محتاج الى الفرس ، فلابد حينئذ من معاوضة صاحب الفرس ، فرسه هكذا بكل مقدار ولابد من تقدير العوض اذ لا يعطى

من البر ، بقليل أو بكثير ولا مناسبة بين البر والفرس حتى يقال يعطى له مثل هذا الوزن ، أو الصورة لا مناسبة بينهما ، فلا يدرى ان الفرس كم يساوى بالبر فتعذر المعاملة بين الناس فى هذا المثال وفى أشباهه . يحتاج الانسان الى متوسط يحكم بينهم بالعدل وكان الواسطة فى ذلك الذهب والفضة ، فكانا هما الحاكمين بين الناس فى جميع المعاملات فيقال هذا الفرس يسوى بما قدره مئة دينار مثلا . وهذا المقدار من البر يسوى بمثله فيقع التبادل بالمقابل بهذا المعدن . وان النازع ما دعى الى التعديل بين الذهب والفضة لانه لا غرر كما قلنا فى اعيانهما وانما خلقا لتتداولهما الايدى ويكونا حاكمين بالعدل ونسبتهما الى جميع الاموال نسبة واحدة .

فالذهب والفضة لا غرض فيهما وهما وسيلتان الى كل غرض ، فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكمة التى خلقا لها أنه يعاقب من طرف من أقامهما حاكمين بين الناس .

لماذا هذا العقاب ؟ لان الاستعمال وقع فى غير محله ووقع من المستعمل خروجا عن الحكمة التى خلق لاجلها بل أبطل الحكمة ، فعلى هذا وهذا هو مناط التكليف والعقاب وكان هذا الانسان المستعمل للذهب والفضة فى غير ما خلقا لهما كان كمن حبس الحاكم أو القاضى الذى يفصل بين الناس ويرفع الخصومات حبسهما فى سجن يمتنع على الحاكم ، الحكم بين الناس بسبب سجنه لان صاحب المال كنزه وادخره فقد ضيع وعطل سير التعامل بين الناس فكأنه سجن الحاكم ، وسجن القاضى فى فصل الخصومات بين الناس فاستحق لذلك العقاب ولا شك ان العقل اذا عرف هذا حكم بأن ادخار الذهب والفضة عن الناس ظلم واستحسن العقوبة عليه لان الله تبارك وتعالى لم يخلق شيئا هملا ، ولم يخلق شيئا للضياع وكذلك نقول مثلا من اتخذ آنية الذهب والفضة للاكل والشرب فهو ظالم وكان أشر من الذى كنزهما وادخرهما ذلك لان مثال هذا مثال من جعل حاكم أو طبيب البلد جعله جزارا أو بقالا فى أي عمل من الاعمال التى يستطيع أن يقوم بها الناس ، بخلاف الطب مثلا أو الحكم والفصل بين الناس لا يقوم بهما الا المختصين المتخصصين فى ذلك من الاطباء والفقهاء فمن النحاس مثلا أو الرصاص أو الحديد أو الفخار أو الطين أو القصدير أو غير ذلك ، كل هذه الاشياء تنوب عن الذهب والفضة فى تكوين هذه الآنية وفى استعمالها كآنية ، تنوب عن الذهب والفضة وتقوم مقامهما ، ولا تقوم هذه المعادن فى التعامل بين الناس ، يعنى القصدير أو الفخار لا تقوم مقام الذهب والفضة فى الفصل بين الناس فى نوازلهم انما يقوم بذلك الذهب والفضة ، ولا القصدير ولا النحاس ولا الرصاص يكفى للقيام بالمقصود الذى يراد من الذهب والفضة،

ولا شك ان العقل اذا عرف هذا لم يتوقف فى استحسانه ، واستحسان العقوبة عليه ، وكذلك نقول لمن باع الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة بزيادة لذاتهما وهما غير مقصودين ، لانه باع الذهب بالذهب أو الفضة بالفضة ، فكأن مقصوده بالذهب والفضة لا غير ، وذلك خلاف للحكمة ، لان من عنده الثوب مثلا وليس عنده ذهب ولا فضة ، وهو محتاج الى طعام فقد لا يقدر أن يشترى طعاما بالثوب ، لانه يملك الثوب، فهو معدول الى بيعه بالذهب والفضة لا يتوصل الى مقصوده ، فانهما كما ترون وسيلتان الى الغير ، لا غرض فى اعيانهما فان من عنده ذهب ، فأراد بيعه بذهب أو فضة ، أو بيع الفضة بالفضة فانه يمنع من ذلك ، لانه يبقى الذهب والفضة مقيدين محبوسين عنده ويكون هذا بمنزلة الذى كنزهما · وبمنزلة من قيد الحاكم كما قلنا ! أو الرسول المبلغ أو الموصل للحاجات فهو ظالم فلا معنى لبيع الذهب بالذهب ولا الفضة بالفضة لان اتخاذهما مقصودين ·

فاذا عرف العقل هذا أو عرف بهذا ، حسنه وحسن العقوبة فيه ، وكذلك نقول لمن يبيع الذهب أو الفضة بزيادة الى أجل ، كبيع عشرة بعشرين الى سنّة أو سنتين ، نقول لهذا ان مبنى الاجتماع البشرى ، وأساس الاديان هو استعمال ما يوجب المحبة ويوجب الالفة بين الناس ليحصل التناصر والتعاون والانسان اذا كان محتاجا ووجد من يسلفه ، فلا شك يتقلد ملة من أسلفه ويعتقد محبته ، ويرى ان نصرته واعانته أمر لازم له ففى منع بيع الذهب والفضة بزيادة الى أجل ابقاء لمنفعة السلف التى هي من أجل المقاصد، ولكن هذا السر ، فى منع لبس الذهب ، والفضة وتحريم اتخاذ الاوانى منهما ، ومنع التعامل بالربا فيهما ··· الخ ·

هذه الاسرار لا يدركها العقل وحده ومن تلقاء نفسه ، الا بالتعليم والكشف عن السر والتقويم والارشاد ، فاذا هدى اليه عرفه ·

وهذا دليل آخر على شدة حاجة البشرية الى التشريع السماوى · وهذا الذى ذكرناه أيها الاخوة الكرام هو عبارة عن جزئية فقط تبين لنا العقل البشرى وانه لا يكفى وحده فى طريق السعادة البشرية ، وان الشرع لا يخالف العقل ولكن فيه (فى الشرع الشريف) ما يهتدى اليه العقل الا بالتوضيح ، ونحن فى أشد الحاجة الى التوضيح ، والتوضيح جاءنا على يد الانبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه ، والانسان فى ذلك هو أشبه بالعليل الذى يصيبه الداء فى ناحية من جسمه يسعى فى معالجة ذلك الداء فى نفس المحل الذى وقع فيه الداء (المرض)، فاذا قيل له أن هذا الداء لا يعالج فى مكان كهذا انما يعالج فى عكس ذلك

المكان اذا كان فى أعلاه ربما يعالج فى أسفل الجسد أو فى ظاهره ربما يعالج من الباطن ·

فالعاقل ربما يستبعد ذلك ويقول كيف ، الداء هنا عن اليمين وأنا أعالجه هنا عن الشمال أو كان فى الاعلى ويعالج من الاسفل أو العكس فهذا يستبعده العقل ولا يدركه فيقول هذا خارج عن العقل ولكن ، اذا عرفه الطبيب ، كيفية انسحاب العروق ومنابت الاعصاب المشتبكة بالبدن ، أذعن ، حينئذ يذعن العليل ، وعرف أن هذا لا يدرك بالعقل، وانما يؤخذ عنه أهله عن طريق التلقين والتعليم وكذلك سر التشريع وأيضا أيها السادة ، فان ما أجمع عليه الباحثون من علماء من موحدين ووثنيين وفلاسفة وغيرهم من الحكماء ، الا ما شذ منهم وهم قليل ، أجمعوا على أن للنفس البشرية بقاء ، تحيا به متى تحيا به ؟ تحيا به حالا وتحيا به بعد مفارقة البدن وانها لا تموت موت فناء ، لانها (النفس) خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية « **وقل رب زدنى علما** » خلقت مستعدة لقبول الاستزادة من العلم والاستزاده هذه من طرق عدة ، وانما الموت المحتوم ، هو كما قال الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده رحمة الله عليه ، قال« الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء فقط » وان اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء ، وفيم تكون عليه النفس بعد مفارقتها للبدن ، وقالوا : ان الانسان حين يموت لا يموت حقيقة ، ولا يتحول الى ماض اطلاقا ، وانما هو يستمر حيا على نحو جلي ، لا نستطيع نحن أن نرى ذلك وليس بامكانياتنا ما يحدد لنا ذلك أو نعرفه به ، ولكنه حي على اية حال» كما أجمع على ذلك العلماء والفلاسفة والحكماء من المسلمين وغيرهم ·

وقالوا ان هذا العمر قصير ليس هو منتهى الانسان فى الوجود ، فاذا كان ذلك هو منتهى الحياة وكانت حياة الانسان لا تزيد على حياته الدنيا هذه فانها تكون مأساة لا يقبلها الضمير الانسانى ولا يرضى بها بل يثور عليها لانها مأساة مروعة حقا وتدعو الى القنوط وتخلق فى الاحياء منا من أراد الحياة ولو استقرت هذه المأساة فى ضمير ·

الانسان ما شاد حضارة ولا عمر بناء لانها حياة تدعو الى النهاية والى اليأس وانما الموت ، هو عبارة عن تجرد الجسم لهذه الحياة التى يحياها ، ويتحرك بها أمام أعيننا ، يتجرد منها هذا الجسم ، فينزعها عنه ، كما ينزع ثوبه ، أو كما ينزع الثوب عن البدن فيما يكون حيا باقيا فى طور آخر ، والحياة ثابتة مستمرة ، يبقى حيا وان لم يدركه الانسان « **أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون ، فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم** » ·

والحرص على الخلود هو غريزة بشرية أشار اليها القرآن الكريم فى قصة خلق آدم عليه السلام فحكى لنا حكاية ابليس مع آدم اذ قال له « **هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى** » ؟ وقال له « **ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين** » ٠

فغريزة الخلود هي طبيعة بشرية ، فكان ما كان من آدم وحواء بهذا الاغراء ٠

اذن فغريزة الخلود هي كما حققها الباحثون من العلماء والفلاسفة اسلاميين وغير اسلاميين ، هي طبيعة أو غريزة مركزة فى الانسان ، وأصيلة فى الطبيعة البشرية ،ولا تسمح الشخصية البشرية أو الشخصية الحية بهذه الحياة المحدودة التى تنتهى بالفناء المطلق ، هكذا ٠ نعم ، هكذا اتفقت كلمة العلماء والحكماء على اختلاف مللهم ونحلهم وعقائدهم ، الا ما شذ منهم وهم قليل ولهم على ذلك أدلتهم وبراهينهم المسطرة ، فاذا تحقق هذا فيا ترى من يحدثنا عن هذه الحياة المستمرة الخالدة ٠ الباقية ؟ كيف السلوك اليها ؟ وكيف السعادة بها ؟ ٠

وهذا ما حدثنا عنه أولئك الانبياء والمرسلون الذين جاءت معجزاتهم مصدقة لما جاءوا به من خبر السماء ٠ فكان البشر بذلك فى حاجة الى الرسل ٠

وهذه الفكرة أو العقيدة أو الحاجة الى ارسال الرسل وعقيدة حاجة الانسان الى التشريع السماوى هي عقيدة اسلامية ، قال بوجوبها عقلا عن الله عز وجل جميع الفلاسفة وطائفة المعتزلة معهم ، وبنى قول الفلاسفة هذا ، وهو كون ارسال الرسل للتشريع هو واجب عقلى على الله جل جلاله وعز سلطانه وملكه ، دليلهم فى ذلك ومبنى كلامهم هذا على قاعدة التعليل والطبيعة ، ذلك لانهم يقولون يلزم من وجود الله ، وجود العالم بالتعليل أو بالطبع ، كما يعتقدون ويلزم لوجود العلم ، وجود من يصلحه، فكان ارسال الرسل عندهم واجب على واجد الوجود ٠ أما المعتزلة فيبنون قولهم هذا وان كانوا متفقين مع الفلاسفة وانما مبنى عقيدتهم ٠ وقولهم هذا على غير مبنى الفلاسفة فان مبنى كلام الفلاسفة هو على قاعدة وجود الصلاح والاصلح ، وانهم يقولون النظاميؤدى الى صلاح النوع الانسانى على العموم فى المعاش والمعاد ، لا يتم النظام الا ببعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وكل ما هو كذلك وهو واجب على الله ، تعالى الله عن ذلك ، فهم يعتقدون الوجوب العقلى ، والفلاسفة مثلهم ٠

أما أهل السنة فيخالفونهم فى ذلك وانكانوا يعتقدون بأن ارسال الرسل هو واجب ، غير أن الواجب هنا عند أهل السنة ، هو واجب لا عقلى ، وليس بواجب وانما هو جائز ، أهل السنة

يخالفونهم فى ذلك ولا يعتقدون الوجوب العقلى وانما هو عندهم من باب الجائز العقلى ، وأهل السنة يقولـــون بأن ارسال الرسل هو جائز عقلا على الله سبحانه وتعالى ، وعلى كل فعقيدة الحاجة الى الشرع وعقيدة ارسال الرسل هي كما فى علم الكلام عقيدة أجمع عليها كل من أهل السنة والمعتزلة والفلاسفة ٠

وكونها من قبيل الجائز العقلى ، أو الواجب العقلى هذا بحث آخر ٠

فتبين لنا ذلـك ان البشرية هي فى حاجة الى التشريع السماوى وماذا فى هذا التشريع السماوى ؟ وماذا فى هذه الشرائع ؟

ماذا فى شرائع الانبياء التى جاءت بها هذه الشرائـع هي عبـارة عـمـا تعلمونه ، عبارة عن تعاليم أخلاقيـــة وارشادات ونظم اجتماعيـة ، وتهذيب للارواح وتسلية للنفوس وطهارة لها ٠ فبها يتوصل الانسان الى تنظيم المجتمع البشرى ، والسير به الى حياة أفضل فى الدنيا والفوز بالسعادة الابدية فى الآخرة والنظام المقصود من هذا المجتمع هو عبارة عن تعمير الارض ، والسيـر فى المعاملة مع الغير على مستوى قول الشارع الاعظم صلى الله عليه وسلم :

« لا ضرر ولا ضرار » ٠

نعم نجد الانسان فى نفسه قد وضع نظما وقوانين هي قاصرة على حياته فى هذه الدار ، وهي مختلفة لدى جميع الامم والحكومات متضاربة متناقضة ، وكثير ما يسعى أصحابها فى تعديلهـا وفى تحويلها وتغيير هذا وتقديم هذا ، وتأخير هـذا وحذف هـذا وزيـــادة هـذا ٠٠٠ الخ ٠

بيد ان القوانين الدينية والشرائـــع السماوية ثابتة ، صالحـة لكل زمـان ومكان ، موافقة لكل السكان ، لا يعتريها النقص ولا خلل ، صالحة لاستمراريـة الحياة ، فى الدارين تنزيل من حكيـــم حميــد ٠

فان قيل لنا ، ما دام الامر هكذا لماذا كان النسخ فى الشرائع ؟

قلنا ان ذلك النسخ ، أو هذا النسخ لا يتعدى بعض المظاهر لبعض الاحكام الشرعية المتعلقـة بمصالـــح العبـاد واللطف بهم ، نظرا لتعاقب العصـور وتطور الزمان واختلاف أحوال الامم ، وتفاوت مصالح الناس « **وخلقناكـــم أطوارا** » صدق الله العظيم « **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا** » ٠ فبهذا اختلفت الاحكام بحسب اختلاف ذلك كمعالجـة الطبيب فانه قد يأمر بتناول دواء خاص، فى زمن خاص ، فى وقت خاص، ثم يغيره فى وقت آخر حسب ما يقتضيه حـــال المريض ، وحسب ما يصلح شانــــه متمشيا به من صالح الى أصلح ، ومن نافع الى أنفع ، الى غيـر ذلـك ممـا تقتضيه الحكمة ، وفى الحقيقة ان أمـر التشريع الالهى ، هو عائد الى المشرع جل جلاله ٠ وهو الحاكم المطلق ، الفعال

لما يريد ، فيمكن أن يضع حكما ، ويرفع حكما لا لعلة ، ولا لغرض ، فهو العليم الخبير · ومع ذلك نجد الجوهر واللب واحد بين سائر الشرائع السماوية ، لا يختلف من نوح الى محمد عليهم الصلاة والسلام والى ذلك تشير الآية الكريمة : « **شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا اليك، وماوصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه** » ·

وأي نبى لم يأت أمته بخير جم ، وأي نبى لم يأت أمته بالخير الاعم ؟ ما هذا التخالف بين الشرائع فى رأي الانبياء ، ما هو الا بسبب تفاوت الاعصار كما ذكرنا فى المصالح ، من حيث أن كل واحد من الاحكام حق بالاضافة الى أهل زمانه ، مراعا فيه مصالح من خوطب به ، والكل متفق على توحيد الله ، وعلى وصفه جل جلاله بصفات الكمال التى تليق بجلاله ، وجميع الشرائع متفقة على أداء عبادة الله تبارك وتعالى المحتوية على تعظيمه وشكر نعمه التى لا تعد ولا تحصى « **وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها** » ·

وجميع الشرائع متفقة على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتحلى بحلية الادب ، والاخلاق الفاضلة ، والمزايا الكريمة ، كماانا نجد هذه الشرائع ، تحث الناس عن التخلى عن الرذائل والتحلى بالفضائل ، وجميع الشرائع المبينة على لسان الانبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه وكل الشرائع تتعلق بنظام حياة الانسان العادلة ، وما ينتظره فى حياته الآجلة، وهي فى الحقيقة هذه الشرائع · فى الحقيقة هي خلاصة ما اتعب به الفلاسفة والحكماء أنفسهم بالبلوغ اليها فأضاعوا أعمارهم ، فى دعوى البحث عن حياة أفضل ، وقد أراحهم الدين من ذلك كله · عن حجة وبرهان ، وبأدلة قاطعة لكل انسان كما يعلم ذلك من درس القرآن ، « **وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا** » ·

تأملات في كتاب الله

اختلاف الالوان والاشكال في عالم الحيوان

د. حامد صادق قنيبي

● الحيوان - دوابه وطيره - صفحة مفتوحة فى كتاب الله المنظور ، ذكرها كتابه المسطور فى آيات كثيرة ، وأشار الى اختلاف أنواعها وأشكالها وأعضائها وقواها ، وألوانها وأصواتها، ومنافعها ومضارها . وهي مع هذا الاختلاف خلقت من أصل واحد هو الماء والتراب . قال تعالى :

« **والله خلق كل دابة من ماء ، فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، ان الله على كل شيء قدير** » (1) وقال ايضا : « **وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم امثالكم ما فرطنا فى الكتاب من شيء ثم الى ربهم يحشرون** » (2) .

والسياق القرآني هنا يعرض نشأة الحياة من أصل واحد ، وطبيعة واحدة، ثم تنوعها مع وحدة النشأة والطبيعة .

وقد اختلف المفسرون فى المقصود بقوله (من ماء) وهل هو ماء النطف الذى يخرج من كل كائن حي للقاح ؟ أو المراد بالماء العنصر المعروف بناء على انه داخل فى قوام كل حيوان ، ولا غنى عنه فى تخلق الحيوان وحياته .

وآية (النور) تشبه آية (الرعد) « **يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الاكل** » (3) فى الدلالة على باهر القدرة فقد خلق الكل من الماء ثم تباينت الانواع والافراد تباينا تاما ، وفى هذا دلالة على كمال القدرة (4) .

وحقيقة ان كل دابة خلقت من ماء قد تعني ان كل حيوان نشأ فى أصله

---

(1) النور : 45 .
(2) الانعام : 38 .
(3) الرعد : 4 .
(4) انظر تفسير الزمخشري 3 - 71 وابن كثير 3 - 298 وتنوير المقياس من تفسير ابن عباس - الفيروز أبادى - ص 221 - مطبعة الاستقامة بالقاهرة 1380 هـ - 1960 م .

من تراب الارض ومائها ، وأن الماء قوام كل كائن حي ، وقد تعني أنه ما من دابة تدب على الارض الا وتكونت من بيضة من الانثى ولقاح من الذكر ، مع اختلاف أشكال الحيوان المنوى وخصائصه في كل نوع من أنواع الدواب ليتميز كل جنس من الحيوان عن الآخر بصفاته وخواصه (1) ٠

ونحن تمشيا مع منهجنا في هذا البحث ، لا نعلق الحقائق الثابتة على النظريات العلمية للتعديل والتبديل لذا نكتفي باثبات الحقيقة القرآنية ، وهي ان الله خلق الاحياء كلها من الماء « **وجعلنا من الماء كل شيء حي** » ، فهي ذات أصل واحد ، ثم هي ـ كما ترى العين ـ متنوعة الاشكال ، فمن الحيوان من يمشى على بطنه وهو الزاحف ، ومنه الماشى على اثنين ، ومنه الماشى على أربع ، ومنه الماشى على أكثر من ذلك ٠ وقد قدم ذكر الماشى على بطنه ـ الزاحف ـ لانه أظهر في الدلالة على قدرة الله سبحانه، لان الماشى بغير آلة أمره أعجب من غيره ٠٠ وكل ذلك وفق سنة الله ومشيئته ، لا عن فلتة ولا مصادفة و « **يخلق الله ما يشاء** » غير مقيد بشكل ولا هيئة ٠ فالنواميس التي تعمل في الكون قد اقتضتها مشيئته وارتضتها : « **ان الله على كل شيء قدير** » (2) ٠

وان تأمل الاحياء المتنوعة الاشكال والاحجام ، والاصول والانواع ، والخواص والالوان ـ وهي خارجة من أصل واحد ـ ليوحى بالتدبير المقصود، والمشيئة المدبرة ، وينفي كل فكرة المصادفة العمياء ، ويؤكد تقدير الله العزيز وأنه الصانع الحكيم الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ٠٠٠ وحتى عنصر الجمال في الكون وراءه قصد وتصميم ، فعناصر الجمال هي التناسق، والتناظر ، والتناغم في الاشكال والالوان والاصوات ، وتتكون من نسب مقدرة خاضعة لناموس ثابت أحكمته لتكوين الجميل ٠٠ وعليه كان من كمال هذا الجمال ان الاشياء تؤدى وظيفتها عن طريق جمالها ، فهذه الالوان العجيبة في الازهار تجذب النحل والفراش مع الرائحة الخاصة التي تفوح ٠٠ ووظيفة النحل والفراش بالقياس الى الزهرة هي القيام بنقل اللقاح ، لتنشأ الثمار ٠ وهكذا تؤدى الزهرة وظيفتها عن طريق جمالها ! ٠٠ والجمال في الجنس هو وسيلة لجذب الجنس الآخر اليه ، لاداء الوظيفة التي يقوم بها الجنسان ٠ وهكذا تتم الوظيفة عن طريق الجمال (3) ٠

وللطير من روائع الالوان والاشكال ما يعد مثالا في جمال التنسيق وبراعة التصوير ، فكل لون ينسجم مع غيره

---

(1) انظر المنتخب في تفسير القرآن الكريم ص 526 ، المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ، القاهرة 1975 م ٠

(2) انظر تفسير الزمخشري 3 ـ 71 ٠

(3) انظر في ظلال القرآن 6 ـ 698 ، ط 5 ٠ بيروت ، دار احياء التراث العربي، 1967 م ٠

بدقة بالغة ‥ وسبحان من صور فأبدع !

وهذه العصافير المغردة ، طالما أطربنا تغمها الشجى ، ولحنها العذب ، وتساءلنا لماذا تغرد ؟

فى الحقيقة ان الذكر يقوم بهذا التغريد غالبا ليجذب الحسان من الاناث ، فالتغريد موهبته التى يعرضها عليها لعله يحتل قلب احداها وينجب الصغار ، وتارة أخرى نرى الذكر يغرد أمام حشد من الذكور وهو هنا يعلن للملأ أنه يذود عن عشه وعن أنثاه ·

وتارة أيضا يعلن العصفور بتغريده هذا أنه ملك لهذا العش وما يحيط به وهو لا يهمه فيما يحيط به الا الغذاء وهو يدرى وغيره لا يدرى أن الغذاء لن يكفيه اذا سكن هذاا لمكان وشاركه فيه دخيل ، ولهذا فهو ينذر ويحذر بأنه لن يرضى للآخرين بأن ينغصوا عليه حياته، ويعلن استعداده للقتال والحرب ، ذلك عمله ، وليس على الانثى الا أن تبنى العش وتضع البيض (1) ·

فمن ياترى أوحى اليه أن ينادى الاناث بذلك التغريد ، ثم يتخذ منه أيضا نذيرا لحماية عشه ؟

ومن الاختلاف فى خلق الطيور والدواجن جهازها الهضمى ، وهو اختلاف يؤكد دقة المرمى ، ويظهر حسن القصد ، ويوضح جميل الصنع ، اذ يمتد من رأس كل طائر جزء صلب من الاسنان، عظمى التركيب هو المنقار ، الذى يستخدم فى التغذية عند جميع الطيور باختلاف أنواع غذائها بدلا من الفم والشفتين والاسنان ·

فالطيور الجارحة كالبوم والحدأة ، ذات منقار قوى مقوس حاد على شكل خطاف ، لتمزيق اللحوم · بينما للاوز والبط مناقير عريضة منبسطة مفلطحة كالمغرفة ، تلائم البحث عن الغذاء فى الطين والماء · وعلى جانب المنقار زوائد صغيرة كالاسنان لتساعد على قطع الحشائش ·

أما باقى الجهاز الهضمى للطير فهو غريب عجيب ، فقد خلقت له حوصلة وقانصة تهضم الطعام · ويلتقط الطير مواد صلبة لتساعد على هضم الطعام (2) ·

ومهما تحدثنا عن الطير ، فما يزال أمامنا كثير من مشاهده وكل ما فيه يتحدث عن الخالق ، وفى خلق ريش الطير الذى يتكون منه الجناح ما يدعو الفكر المتأمل أن يؤمن ، والقلب اليقظ أن يسجد ، فالملاحظ فى جناحى الطائر أنهما متساويان والا لما حفظ توازنه ،

---

(1) انظر من الخالق ‥ الله أم الصدفة ؟ ص 29 وما بعدها · تأليف رشدى مدبولى حسن ، القاهرة ، مكتبة الزهراء ، 1974 م ·

(2) انظر "الله والعلم الحديث" ص 61 ـ 63 ، عبد الرزاق نوفل ، القاهرة ، الناشرون العرب 1971 م ·

واستقام فى طيرانه · وذيله خلـــــق متناسبا مع جناحيه ، والملاحظ أيضا أن عينيه أقوى من الطير الارضى لحكمة : اذ يرى غذاءه وهو محلق فى الفضـــاء بخلاف الارضى فغذاؤه أمامه · قـــال تعالى : « **أو لم يروا الى الطير فوقهـم صافات ويقبضن ما يمسكهن الا الرحمن، انه بكل شىء بصير** » (1) ··· فهـــذه الطير السابحات فى الفضاء والقابضات الباسطات من الذى أودعها القدرة على ذلــك ؟ ···

انه الرحمن يمسكهن بنواميس الوجود المتناسقة ذلك التناسق العجيب ، وبقدرته القادرة التى لا تكل ، وعنايته الحاضرة التى لا تغيب ·

وبقى هنا شىء : وهو لمـــاذا قـــال (صافات ويقبضن) ولم يقل (صافات قابضات) ، أي لماذا عبر عن الصـــف بالاسم وعن القبض بالفعل ؟

« ان النكتة فى التعبير عن القبض بالفعل المضارع الذى يفـيد التكـــرار والتجدد هي تصويـر الحالـة لاذهـان المخاطبين وزيادة تعجبهم منها ، فانهـم حين نقول لهم انظروا الى الطير صافات يعجبون من أمرها ، ثم يخف العجـــب حينما يقع فى نفوسهم أنها عند بسـط أجنحتها يكون قد دعمها الهواء كمـــا يدعم الاجسام الرقيقة المنبسطة فيـــه ، فاذا نبهناهم الى أن الطيـر قد يقبض جناحيه فى أثناء الطيران ولا يقع يكون قد زدنا فى عجبهم ، وهجنا دهشتهم · والفعل المضارع بما فيـــه مـــن معنى التجدد والحدوث والزمن يساعد عـلى تصوير الحالة واحضارها فى ذهـــن المخاطب أكثر من الاسم ، يعرف ذلـــك من تفطن لاساليب العرب » (2) ·

هذا وان فى الجناح قدرة خفيـــة لا يعرف مصدرها ولم تزل من المشكلات التى لم يحلها العلم الحديث « فالقطار مثلا يقطع المسافات الشاسعة بقـــوة البخار الدافعة ، ولكن جناح الطائـر يحمله مئات الاميال بدون أن يستمـــد طاقة من الخارج · وقد يرفرف الجناحان بسرعة عظيمة مدة طويـلـة مـن الزمن مدفوعين بقوة كامنة لا يدرك منشؤهـــا ولا المورد الذى يغذيها · وتتضح هذه الظاهرة فى العصفور الطنان الـــذى يزيد حجمه قليلا عن النحلة ، فانه يستقر فى الهواء تحت زهرة بها رحيق مرفرفا جناحيه بسرعة مفرطة حتى ليخيل للرأى أنهما ساكنان » (3) ·

* * * *

والحديث عن مشاهـــد الحيـــوان ـ دوابه وطيره ـ فيه كثير من الحقائق التى تذهل ، وفيه من القدرات ما يقف أمامها الانسان مبهورا ، فهذه (الانعام) ذكرها القرآن فى آيات عديدة وامتـن

(1) الملـــك : 19 ·

(2) تفسير جزء تبارك للمغرسى ص 18 وقارن بتفسير الزمخشرى 4 ـ 138 ·

(3) غرائز الحيوانات ـ محمد محمد فياض ص 91 · سلسلة أقرأ العـــدد 48 سنة 1946 ·

علينا بمنافعها الكثيرة ، وأبدع خلقهـا وتكوينها ، وتذليلها ، وجعلها ، (على كونها من أكلات العشب) ،مخزنا للمواد البروتينية والدهنية ، مـن ضـروب الانتفاع بألبانها ولحومها وشحومهـا وأصوافها وأشعارها وأوبارها وجلودها وعظامها ، فضلا عن استخدامهـا فى حرث الارض ، والركوب ، وحمل الاثقال وجرها ٠

يقول القرآن الكريم :

« **والانعام خلقها لكـم فيـها دفء ومنافع ومنها تأكلون** » (1) ٠

ـ « **وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنـا خالصا سائغا للشاربين** » (2) ٠

ـ « **والله جعل لكم من بيوتكم سكنـا وجعل لكم من جلود الانعام بيوتـا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم اقامتكم ومن أصوافها وأوبارها وأشعارهـا أثاثـا ومتاعا الى حين** » (3) ٠

ـ « **أو لم يروا أنا خلقنا لهم ممـا عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون ٠ وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنهـا يأكلون ٠ ولهم فيها منافع ومشـارب أفلا يشكرون** » (4) ٠

ـ « **الله الذى جعل لكم الانعام لتركبوا منها ومنها تاكلون ٠ ولكم فيها منافع ولتبلغوا عليها حاجة فى صدوركـم وعليها وعلى الفلك تحملون** » (5) ٠

هذا بعض ما ذكره القرآن من منافع الانعام الصريحة المفصلة ، والمنافـع الخفية المجملة ، ونبه الى ما فيها من تلبية لضرورات البشر مما لا يستغـنى عنه : ففى الانعام دفء من الجلـود والاصواف والاوبار والاشعار ، ومنافع فى هـذه فى الحليـب واللحـم وما اليهما ٠ ومنها يأكل الانسان لحما ولبنا وسمنا ، ومنافع فى حمل الاثقال الى البلد البعيد لا يبلغونه الا بشق الانفس ٠

والانعام آية مشهودة منظورة مـن آيات الله ، ليست غائبـة ولا بعيـدة ، ولا غامضة تحتاج الى تدبر أو تفكير ٠٠ فهي ملك الانسان ، ذللها الله لمنافعه ٠٠ وكل ذلك بقدرة الله وتدبيره ، وبما أودع الانسان والانعام من الخصائص ، فجعل الانسان قادرا على تذليلها واستخدامها والانتفاع بها ، وجعلها مذللة نافعـة ملبية لشتى حاجات الانسان ٠ ومـا يملك الناس أن يصنعوا من ذلك كلـه شيئا ، وما يملكون أن يذللوا ذبابـة

---

(1) النحـل : 5 ٠
(2) النحـل : 66 ٠
(3) النحـل : 80 ٠
(4) يـس : 71 ـ 73 ٠
(5) غافـر : 79 و 80 ٠

لم يركب الله فى خصائصها أن تكون ذلولا لهم · (أفلا يشكرون) ·

وقال تعالى :

« وان لكم فى الانعام لعبرة نسقيكم مما فى بطونه من بين فرث ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين » (1) ·

نعم انها لعبرة ما بعدها عبرة لبن خالص أبيض ناصع سائغ للشاربين يخرج من بين فرث قذر ذى رائحة كريهة ودم أحمر قان ، فقد خرج اللبن أبيض طيبا · ان فى ذلك لآية لقوم يعقلون ·

« توجد فى ضروع الماشية غدد خاصة لافراز اللبن (الحليب) تمدها الاوعية الشريانية بخلاصة مكونة من الدم ، والكيلوز ، وهو خلاصة الغذاء المهضوم ، وكلاهما غير مستساغ طعما، ثم تقوم الغدد اللبنية باستخلاص العناصر اللازمة لتموين اللبن من هذين السائلين : الدم الكويلوز ، وتفرز عليهما عصارات خاصة تحيلها الى لبن يختلف فى لونه ومذاقه اختلافا تاما عن كل منهما » (2) ·

فما أعظم الاعجاز فى هذه الآية الكونية التى تصف للناس سرا يتم فى الظلام ، ومن المحال أن تراه عين انسان ، وتخبر كيف يصنع اللبن فى هذا المعمل اللحمى وكيف يطبخ فيخرج ناصع البياض نظيفا من بين فرث ودم أحمر · فسبحان من أخرج هذا الابيض من ذلك الاحمر ·

وحين ينظر الانسان الى نعم الله فى ضوء ما سبق يحس أنه مغمور بفيض من نعم‌الله ، فيض يتمثله فى كل شيء حوله ، وفى كل مرة يركب فيها دابة، أو يأكل قطعة لحم ، أو يشرب جرعة حليب ، أو يتناول من سمن أو جبن ، أو يلبس ثوبا من شعر أو صوف أو وبر ·· لمسة وجدانية تشعر قلبه بوجود الخالق ورحمته ونعمته · ويشمل هذا كل ما تمس يده من أشياء حوله ، وكل ما يستخدمه من حي أو جامد فى هذا الكون الكبير · وتعود حياته كلها تسبيحا لله وحمدا وعبادة آناءالليل وأطراف النهار ·

---

(1) النحل : 66 ·
(2) المنتخب فى تفسير القرآن ص 395 ·

الاسلام والعلاقات الدولية

د٠عبد الحليم عويس

اذا كانت الجوانب الاجتماعية والاقتصادية تمثل السياسة الداخلية للدولة الاسلامية ، فان « العلاقات الدولية » تمثل السياسة الخارجية لهذه الدولة ٠

وبامكاننا ـ باطمئنان كبير ـ أن نقول : ان الخصائص الاخلاقية والانسانية التى أرسى الاسلام دعائمها كمبادىء عامة ، تمتد من السياسة الداخلية الى السياسة الخارجية ٠ فالاسلام فى كل تشريعاته وخصائصه ـ كل منسجم يهدف الى غايات نبيلة ، ويعتمد ـ فى وصوله اليها ـ وسائل نبيلة كذلك ٠

وفقهاء الاسلام يقسمون العالم ثلاثة أقسام :

1 ـ دار الاسلام وهي كل البلدان الاسلامية ٠ وعقيدتها واحدة وشريعتها واحدة ٠

2 ـ دار الحرب ، وهي الدول المعادية للاسلام المتاخمة لبلاده التى لا يأمن المسلم فيها على دمه أو عرضه أو ماله ٠

3 ـ دار العهد ، وهي الدول التى بينها وبين المسلمين عهود ٠

وقد تحدثنا عن دار الاسلام حين تحدثنا عن المفاهيم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية العامة فى الصفحات السابقة ٠

أما دار الحرب ودار العهد ، فهما موضوع حديثنا هذا ٠

الاسس العامة للعلاقات الدولية فى الاسلام :

يضع الاسلام قواعد عامة لتعامله الدولى ، يبنى على أساسها تعامله مع الانسانية خارج دار الاسلام ٠٠ أي مع دار الحرب ودار العهد ٠٠

* فالاسلام ـ أولا ـ دين الله ، لكل الناس ، لم يأت لجنس دون جنس ، فهو عقيدة منفتحة ، وليست مغلقة « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » ٠

* والاسلام لم يأت حربا على الانسانية ، بل جاء ناشرا للواء السلم والرحمة والحب « **يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة** » (1) « فان

(1) البقرة : 308 ٠

اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا اليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » ٠ (2)

* والامة الاسلامية مسئولة عن نشر الخير والمعروف بين الناس ، فليست هي بالامة السلبية « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » ٠ (3)**

* واعادة القوة ـ بالتالى ـ أمر هام بالنسبة للامة الاسلامية « **وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ٠ (1)**

* والحرب فى الاسلام انما شرعت لمنع الطواغيت عن مقاومة الحق والعدل ٠ ولدفع الاذى عن المؤمنين ، ولارهاب الباطل حتى لا يفكر فى غزو الحق ٠؟

ومع ذلك فهذه الحرب لها آداب انسانية ، لم يشهد التاريخ تطبيقا لها يقارب التطبيق الاسلامى الانسانى الفريد ٠

* والحرب فى الاسلام جزء من رسالته فى تحرير المستضعفين فى الارض « **وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا اخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا » ٠ (2)**

* والمسلمون ملزمون بالوفاء بكل العهود والمواثيق التى بينهم وبين الكفار، ولا يجوز لهم اهتبال الفرص والغدر ونقض العهود « **وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها » (3) ٠**

* والتسامح ركيزة أساسية فى سياسة الاسلام ٠ وكان له دوره فى نشر الاسلام ، واقبال الشعوب عليه ٠

هذه بايجاز شديد هي الاسس العامة للعلاقات الدولية فى الاسلام وهي ليست شعارات مزيفة بل هي واقع تاريخى حى بهر الاوروبيين أنفسهم فتحدثوا عنه باطناب ، وجعلوه من أبرز مزايا الاسلام (والاسلام كله مزايا لو أبصروه بعين الحق) ٠

من الواقع التاريخى :

ويؤكد الواقع التاريخى تطبيق المسلمين الحي النادر لهذه الاسس ٠

والصور التى يذكرها التاريخ لا تعطى الاسلام امتيازه فى جانب العلاقات الدولية فحسب ، بل هي ـ فى الوقت نفسه ـ دليل على الجذب الناتج

---

(2) النساء : 90 ٠
(3) آل عمران : 104 ٠
(1) الانفال : 60 ٠
(2) النحل : 91 ٠
(3) النساء : 75 ٠

عن التدهور الخلقى الذى يتسم به اتباع الاديان الاخرى التى خلا تاريخها من كل صور الانسانية · وما مواقف الصليبيين فى الحروب الصليبية عنا ببعيد ، حين حاصروا « معرة النعمان» بسوريا ، وأعطوا أهلها عهودا ثم غدروا بهم ، وقتلوهم عن آخرهم ، وهم أكثر من مائة ألف · وما جرائمهم ببعيدة أيضا حين شددوا الحصار على « بيت المقدس » ، وأعطوا أهلها الامان ·

فلما دخلوها ذبحوا كل من فيها حتى تحولت المدينة الى أنهار من الدماء ·

ولا نستطرد فى ذكر هذه الصور الكريهة ، فليست ما نهدف اليه ، وانما هدفنا توضيح الاسس التى كانت عليها العلاقات الدولية فى الاسلام من الناحية التطبيقية والعملية ·

بعد تسعين سنة من مجزرة بيت المقدس الآنفة الذكر نجح صلاح الدين الايوبى فى استرداد بيت المقدس من أيدى الصليبيين · فماذا فعل بمن فيها من النصارى ؟ ـ لقد كان فيها ما يزيد على مائة ألف أعطاهم صلاح الدين الامان على أنفسهم وأموالهم ··· فلم يقتل واحدا منهم ، وانما سمح لهم بالخروج لقاء مبلغ زهيد يدفعه القادرون منهم · وقد تجاوز عن فقرائهم ، وكانوا أكثر من خمسين ألفا ، فلم يأخذ منهم شيئا · ولما أراد البطريك الفرنجى الخروج سمح له بالخروج ومعه من أموال الكنائس الكثير ، فاقترح أحد المسلمين أخذ هذه الاموال ، فأبى صلاح الدين وقال : « لا أغدر بهم » ·

والاكثر من ذلك أن كثيرا من النسوة النصرانيات ذهبن اليه يشتكين الفقر والحاجة الى المأوى والعائل ، وأطلق الاسرى من رجالهن ، وأعطاهن مالا كثيرا (1) ·

ولما فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية دون عهد أمان ، دخل الى كنيسة « أيا صوفيا » ، وكان قد لجأ اليها رجال الكنيسة ، فأحسن استقبالهم، وأكد حمايته لهم ، وطلب من النصارى الفزعين الموجودين فيها أن يذهبوا الى بيوتهم آمنين ثم نظم شئونهم ، وترك لهم حق اتباع كنائسهم الخاصة ، وقوانينهم الملية ، وتقاليدهم المتعلقة بالاحوال الشخصية ، وترك للقساوسة انتخاب بطريك لهم فانتخبوا «جناديوس»، واحتفل السلطان بانتخابه بنفس الابهة التى كانت متبعة فى عهد البيزنطيين ، وجعل له حرسا خاصا من الانكشارية، ثم أعلن السلطان اعترافه بقوانين الكنيسة الارثوذكسية ، ووضعها تحت رعايته، ثم جمعت واشتريت كل الآثار النصرانية التى نهبت يوم الفتح ، وسلمت للكنائس والاديرة » · (2)

---

(1) نقلا عن المرحوم الاستاذ : مصطفى السباعى : من روائع حضارتنا ص 99 ـ 101 ·

(2) المرجع السابق 101 ، 102 ·

فهل يضم التاريخ الصليبى أو اليهودى فى كل أدواره صورا تشابه مع هذه الصور أو تقاربها ؟ ٠

ان الخبائث والفتن وصور التخلف والتحلل وغيرها من المظاهر التى تركها الاستعمار الاوروبى الحديث فى كل البلاد التى دخلها أوضح اجابة حية شاهدة على ذلك ٠

وان الاخلاق الحضارية ، ومظاهر الفروسية ، ونواحى العمران التى تركها المسلمون فى الاندلس وصقلية ، وجزر البحر الابيض الاخرى ، والتى لا زالت حية يعترف الاوروبيون بفضلها، ويحتفلون بها (1) كتراث خالد عاش بينهم – هذه الاخلاق والآثار العمرانية والفنية أكبر دليل حي على مدى تسامح الاسلام ، وأقوى شاهد على نوعية علاقاته بالدول التى اتصلت بنوره ، واستضاءت به « **يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره الكافرون** » ٠ (2) صدق الله العظيم ٠

(1) تقيم اسبانيا بين الحين والحين احتفالات ضخمة لابطال حضارتنا الاسلامية والعربية من أمثال ابن حزم الاندلسى ، ولسان الدين بن الخطيب ، ومن أمثال بعض الشعراء كابن زيدون ، وابن عباد ، وابن عمار وغيرهم ٠

(2) الصف : 8 ٠

العلاقات الابدية بين الاسلام والعربية

د٠ أحمد بن نعمان

يعتبر الدين من أقوى النظم الاجتماعية التى عرفتها البشرية منذ بدء الخليقة ، ولئن اختلف العلماء فى تحديداتهم لماهيته ، وتضاربت آراؤهم حول تحديد مصادره ، أو سبب وجوده ٠٠ فانهم لا يختلفون على انه موجود كظاهرة اجتماعية صاحبت الانسان فى جميع أطواره الثقافية عبر التاريخ ، وان له علاقة تأثير وتأثر بمعظم النظم الاجتماعية السائدة فى المجتمع لعلاقته بالانسان وارتباطه بصميم الواقع الاجتماعى ٠

وانطلاقا من هذه المسلمة سنحاول ان نتبين علاقة النظام الدينى بالنظام اللغوى كما نلاحظهما فى الحالات التالية :

1) ان الاديان مهما اختلفت أنواعها فهي مجموعة من القواعد الضابطة لسلوك الفرد مع نفسه ومع الجماعة، ومن حيث هي كذلك تتطلب ـ بالضرورة ـ الاستعمال اللغوى فى الدعوة لها ، وفى ممارسة طقوسها ، بل وفى اعتناقها كالتشهد فى الاسلام مثلا (حيث يعتبر التلفظ بالشهادتين شرطا أساسيا للدخول (فى الدين الاسلامى) ٠

2) يؤثر الدين فى اللغة ببعض الخصائص التى يتميز بها ، ومن هذه الخصائص الرموز التى تحمل الدلالات، ولا توجد بنفس المعنى فى غير النطاق الدينى ، ككلمة (أحد) التى ترمز الى الوحدانية وكلمة (البعث) التى ترمز الى يوم القيامة فى الآخرة وكذا (الخلود) ، و (الصراط) و (الحساب والعقاب) ٠٠٠ والرموز الحرفية مثل (الف ، لام ، ميم) و (ياسين) و (كاف هي عين صاد) فى القرآن الكريم ٠ فهذا النظام الرمزى فى لغة الدين له تأثير ظاهر فى النظام اللغوى عموما حيث يغير مدلول كلمات أو يضيف دلالات جديدة الى اللغة السائدة ٠

3) من خصائص الدين انه يتعلق بمبادىء وقيم ثابتة ، وبكائن أو كائنات علوية أبدية ، والاتصال بهذا الكائن العلوى الابدى ، او اتصال الكائن العلوى بالكائنات الدنيا يتم بوسيلة الاتصال التى هي اللغة ومن ثم يكون الدين من

أقوى الوسائل المحافظة على اللغة ونجد ذلك واضحا فى لغة الدعوات مثلا ، وأسلوب التضرع الى الله ... الذى لا يكاد يتغير فى جميع الديانات منذ ظهورها ، مع انه كلام بشر ، ويجوز الاجتهاد فى تغيير أسلوبه (نقصد الكلمات التى تصاغ بها الدعوات الى الله ، وليس كلام الله المقدس الذى لا يجوز تغييره) ، ومن الامثلة البارزة على ذلك : اللغة العبرية التى زالت من التداول منذ أكثر من عشرين قرنا ، ولكنها بقيت محفوظة كلغة خاصة بفضل علاقتها بأسفار التوراة التى ظل اليهود يحافظون عليها حيثما تشتتوا فى أقطار العالم الى أن كونوا وطنا قوميا لهم فى هذا القرن . فوجدوا وسيلة الاتصال، قائمة بين اليهود ـ على ضعفها ـ فعملوا على تقويتها ، واثرائها بالمفردات العلمية لتساير العصر ، ليجعلوا منها احدى دعائم القومية اليهودية ، واحدى وسائل الاتصال بين أشتات اليهود من سلالات البشر المختلفة . (1)

ويمكن القول بأن اللغة العبرية لو لم تكن لغة الدين اليهودى لزالت من الوجود الى الابد ، ولعلها هي اللغة الوحيدة التى عادت الى وضعها الصحى بعد جمود دام أكثر من عشرين قرنا !

ونفس الكلام يمكن أن يقال على اللغة العربية ، فلو لم يكن القرآن هو حافظ اللغة العربية لتغيرت كثيرا عما هي عليه الآن ، ولو فرضنا ان التوراة أو الانجيل أو القرآن أنزلوا باللغة السامية الاولى لوجدنا هذه اللغة مستعملة الى يومنا هذا .

وأقرب مثال الينا فى هذه الحالة هي اللغة القبطية فى مصر ، فعلى الرغم من زوال هذه اللغة تماما من التداول اليومى منذ عدة قرون فاننا نجدها باقية فى الكنائس القطبية ، ومستعملة فى الطقوس الكنائسية والادعية والتراتيل . (2)

ويكفى القول (فى موضوع المحافظة، بأن الدين يتعلق بكائن أبدى (خالد) . واللغة التى بلغ بها هذا الدين ، أو اللغة التى تمارس بها طقوسه ، لابد أن تكون بالضرورة باقية ما بقي هذا الدين قائما فى المجتمع .

4) تفرض لغة الدين نفسها على معظم فئات المجتمع ، لان الدين يخلق عادات وقيما وتقاليد فى المجتمع لا يجد الفرد بدا من اتباعها ـ طوعا أو كرها ـ ومن الامثلة التى يظهر فيها فرض الدين للغة على الالسن ترديد الناس لبعض التعابير الدينية المختلفة . والملاحظ

(1) انظر مقال Nicholas Boudet فى جريدة Le Monde عدد 15 يونيو 1965 ، وانظر مقالات للدكتور : مبارك باكر . بمجلة (أكتوبر) عدد 20 فبراير 1977

(2) أحمد مختار عمر ، اللغة العربية فى مصر ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة 1970 ص 1 ، 2 (من المقدمة) .

ان تلك التعابير تتردد على ألسنة أناس يجهرون بالحادهم · فهم على كفرهم يذكرون (الله) اذ يقسمون بقولهم (والله العظيم) أو يترحمون على الاموات بقولهم (الله يرحمه) أو يردون على المتسولين بقولهم (الله يفتح ، أو الله كريم) وذلك يصدر منهم ـ لاشعوريا ـ بحكم العادة ، والتطبع أو ـ شعوريا ـ بفعل ما للنظام الدينى من قوة الجبر والالزام لافراد الجماعة على عدم الخروج عن بعض قواعده ، وضوابطه العامة ·

ويظهر تأثير الدين فى اللغة فى المناسبات المتعددة كالمواسم والاعياد ، وترديد الناس للمدائح الدينية بكيفية خاصة ، ولغة خاصة · ومن أوجه هذا الارتباط بين الدين واللغة ما يظهر باستمرار من كتابات أدبية ، أو فلسفية أو فقهية ، أو عامية ··· تكتب حول الدين شرحا أو نشرا ، أو دفاعا عنه فى وجه خصومه ·

5) والملاحظ فى هذا المثال الاخير ان للغة ـ أيضا ـ تأثيرا فى الدين بقدر ما للدين من دور فى نشر اللغة ، والحفاظ عليها ··· فبالقدر الذى كان الدين دافعا للكتاب ، والفلاسفة ، والعلماء على التفكير وانتاج الآثار الادبية الرائعة دفاعا عنه ونشرا له ، كانت اللغة وسيلة مؤثرة فى الدين بوصفها أداة تبليغ للآخرين · وكلما كانت غنية فى بلاغتها ، وأجادت التعبير عن التعاليم التى يبشر بها الدين كلما ساعدت على نشره وأرسخت مبادئه ورغبت فيه ··· ولعل بلاغة القرآن واعجازه البيانى الذى يؤثر فى النفوس لاوضح مثال على تأثير اللغة فى الدين · ولا أدل على ذلك من أن القرآن المترجم لا يجد قارئه أي ذوق أو جاذبية ، أو أثر فى نفسه أشبه بذلك الذى يستشعره المسلم من بلاغة المعنى ، وحلاوة التعبير وعذوبته عندما يقرأ القرآن بلغته الاصلية · ونخلص الى الاقرار بوجود علاقة قوية بين الدين واللغة تتمثل فى تأثير كل منهما فى الآخر بمقادير متفاوتة · وبقدر ما يكون الدين منتشرا فى المجتمع بقدر ما تكون علاقته باللغة أقوى تأثيرا وتأثرا ، والعكس صحيح فى بعض الاحيان : أي بقدر ما يبتعد أفراد المجتمع عن الدين تكون لغة هذا الدين ضعيفة فى المجتمع ، وأبرز مثال على ذلك ضعف اللغة اللاتينية وتقلصها فى أروبا (3) حينما بدأ نطاق الدين المسيحى يضيق مع بداية عصر التنوير والثورة التكنولوجية ، مما اضطر رجال الدين المسيحى فى السنوات الاخيرة الى الافتاء بجواز القاء خطب الوعظ ··· باللغات المحلية التى يفهمها

(3) توجد أسباب أخرى ساعدت على تقلص اللغة اللاتينية فى الواقع الاوربى ابتداء من القرن 16 عشر الى جانب الابتعاد عن الدين ·

الجمهور ترغيبا له فى الدين (4) وفى هذه الحال أيضا نجدنا أمام مثال واضح لتأثير اللغة فى الدين حيث يعمد اليها كوسيلة لنشر الدين ، والتبشير به وترغيب الناس فى تعاليمه (5) ٠

واذا كانت للغة علاقة تأثير وتأثر بالدين السائد فى المجتمع ٠٠٠ على النحو الذى حاولنا التدليل عليه فيما سبق ٠٠ فان للغة العربية علاقة خاصة بالدين الاسلامى تتميز بها عن علاقة سائر اللغات فى العالم بدياناتها السماوية، أو الوضعية ، ويعود السبب الاول لهذه العلاقة الى نزول القرآن باللغة العربية، وما نجم عن ذلك من تقديس المسلمين للغة العربية كتقديسهم للقرآن ، وتقديس المجتمع لشىء من الاشياء يتطلب بالضرورة فهمه والمحافظة عليه ٠ وهكذا ارتبطت اللغة العربية ارتباطا قويا بالاسلام لانها مفتاح فهم للعقيدة الدينية ووسيلة المحافظة عليها ، ما بقى لهذه العقيدة معتنقون فى المجتمع ولو تتبعنا تاريخ اللغة العربية فى مختلف أطوارها فاننا نجدها تدين بوجودها فى البلدان العربية الحالية ، وبقائها وانتشارها المستمر فى العالم للدين الاسلامى أولا وأخيرا ٠ فمهما قيل عن رقي اللغة العربية فى العصر الجاهلى ، ومهما اختلف الباحثون حول سمو معانيها ونضجها فى ذلك الوقت ، والمتمثل فى القصائد المعلقة ، وسجع الكهان ٠٠٠ الا أن ما لا يختلف فيه أحد ان هذه اللغة كانت لغة قوم من البدو (فى الجملة) لا يعرفون للحضارة المعاصرة ولا للتاثير فى الشعوب المجاورة لهم أو التأثر بها سبيلا (الا قليلا ، لا يقاس بما تتاثر به المجتمعات فى مثل حالتهم تلك) ٠ وكانت لغتهم بالتالى محصورة فى الحيز الجغرافى للجزيرة العربية ، ولم تختلط باللغات المجاورة لهم فى ذلك الوقت ، الا عن طريق رحلات الشتاء والصيف وكانت العربية فى هذه الحالة تتاثر دون تأثير يذكر فى غيرها من اللغات القوية السائدة فى ذلك الوقت مما أدى ببعض

(4) حدث ذلك فى ايطاليا سنة 1970 علما بأن اللغة اللاتينية ما تزال مقدسة ومحافظا عليها أشد المحافظة فى الفاتيكان بما تبق مع قوله بأن الدين يحافظ على لغته نسبيا ـ ولكن ليس بالضرورة أن يحافظ الدين على لغته فى مجتمع غير متدين ٠

(5) يظهر ذلك فى الحملات التبشيرية بالدين المسيحى التى ما انفكت تجوب أقطار العالم ، وخاصة افريقيا مبلغة تعاليم المسيح باللغات المحلية ، علما بأن هذا ان انطبق على الديانة الاسلامية من حيث أسلوب الدعوة باللغات المحلية فانه لا تنطبق عليها فى تلاوة القرآن الكريم باللغات المحلية أو الدعاء ، أو الصلاة وهذا ما يجعل اللغة العربية أكثر ارتباطا بالاسلام من غيرها من الديانات كما سيأتى ٠

المستشرقين الالمان الى القول بأن اللغة العربية كانت ذات ميزة التوالد الذاتى، أي انها تحمل مقومات التطور من ذاتيتها دون أن تقبل الدخيل من اللغات الاخرى (7) مما جعلها تصل فى عزلتها المعروفة الى ما بلغته من رقي ٠

ومهما يكن من أمر فان اللغة العربية ما كان لها أن تبرح الجزيرة العربية ولا أن تكتسح الاقطار المجاورة شرقا وغربا ، وتنتشر فيها ، وتؤثر فى لغاتها، أو تحل محلها بالسرعة والكيفية التى عرفها صدر الاسلام لو لم تكن لغة القرآن ، ولغة العبادة ، ولغة فهم الدين الجديد فالاسلام كان دفعا جديدا لرقي اللغة العربية ، وجاء هذا الدفع على يد القرآن والحديث ، فأوجد القرآن نسقا جديدا فى التعبير الى جانب الشعر والنثر ، وكان القرآن الرابط الاقوى بين اللغة والدين ، فما يقوله القرآن يصبح القاعدة والمعيار حتىوان لم يكن للعرب عهد به ٠ فالقرآن هو الفيصل فى الدين واللغة العربية ٠ وفى ذلك يقول المستشرق الالمانى (يوهان فك) « ان لغة القرآن تختلف اختلافا غير يسير عن لغة الشعراء السائدة فى الجزيرة ٠ فلغة القرآن تعرض من حيث هي أثر لغوى ، صورة فذة لا يدانيها اثر لغوى فى العربية على الاطلاق ، ففى القرآن لاول مرة فى تاريخ اللغة العربية يكشف الستار عن عالم فكرى تحت شعار التوحيد ، لا تعد لغة الكهنة والعرافين الفنية المسجوعة الا نموذجا واهيا له من حيث وسائل الاسلوب ، ومسالك المجاز فى اللفظ والدلالة » ٠ (8)

ولو تتبعنا اللغة العربية فى العهد الاسلامى لوجدنا كتاباتها متاثرة فى المبنى والمعنى بالقرآن ويليه الحديث ، ومن امثلة الكلمات والتعابير المتداولة فى اللغة العربية والتى ترجع فى أصلها الى القرآن : (العروة الوثقى ، سنة الله ، مثقال ذرة ، أسوة حسنة ، المثل الاعلى ، بكرة وأصيلا ، لا يكلف الله نفسا الا وسعها) ، والى جانب القرآن يوجد الحديث الذى ترك آثاره على اللغة العربية أيضا ٠

ونتج عن حرص المسلمين على فهم القرآن والحديث ، ان اجتهدوا فى

---

(6) السيوطى ، المزهر فى علوم اللغة ، دار احياء الكتب العربية (ب ت) ص 293

(7) د٠ عائشة عبد الرحمن ، لغتنا والحياة ٠ دار المعارف بمصر القاهرة 1976 ص 48 ٠

(8) يوهان فك ، العربية ، ترجمة د٠ عبد الحليم النجار ، مطبعة دار الكتاب العربى 1951 ص 4 ٠

وضع قواعد النحو والصرف لحماية القرآن من اللحن فى قراءة العديد من آيات القرآن مثل : « **انما يخشى الله من عباده العلماء** » (9) « **ان الله برىء من المشركين ورسوله** » (10) و « **واذ ابتلى ابراهيم ربه** » (11) ولولا القواعد النحوية التى تمكن القارىء من قراءة مثل هذه الآيات بكيفية سليمة لوقع فيها تحريف كبير ، كما يسر المسلمون قراءته بوضع النقط ، والحركات على الحروف ، وتعمقوا فى دراسة فقه اللغة العربية لتفسيره ، وفهم دلالاته العميقة ، ووضعوا علوم البيان لمعرفة سر الاعجاز البيانى فى القرآن ، وفى هذا المعنى يقول ابن خلدون « أعلم أن ثمرة هذا الفن (أي البيان) انما هو فهم اعجاز القرآن » • (12) وكان للاسلام فضله على اللغة العربية فى اشتراط التشهد بها مما جعل الملايين من الشعوب الاسلامية حتى غير العربية منها تحاول أن تتعلم اللغة العربية ولو بالقدر اليسير الذى يمكنها من قراءة الدعوات وبعض السور القصار من القرآن الكريم ، وهذه الشعوب ان لم تجد اللغة العربية، فهي دائمة التشوق اليها من غيرها ، وهذه الرغبة في تعلمها ، والتحدث بها، نلاحظها بكل وضوح لدى كافة الشعوب الاسلامية فى العالم • ففى الوقت الذى لا نجد للغة العربية أثرا يذكر فى المجتمع الهندوسى ، نجدها اللغة الثانية فى باكستان ، ويوجد اتجاد قوي فى هذا البلد لجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية والوطنية بدلا من اللغة الانجليزية ، كما كانت اللغة العربية فى موريطانيا ، وفى الصومال اللغة الثانية من حيث الاستعمال حتى قبل انضمام هذين البلدين الى الجامعة العربية • فالاسلام اذن هو الذى أخرج العربية من جزيرتها لتنتشر فى أقطار العالم العربى والاسلامى ، وجعل عباقرة الشعوب الاسلامية ينتجون الآثار الادبية والفكرية الخالدة باللغة العربية (فى زمن قصير) وما كتب الرازى ، وابن سينا ، والفرابى ، والغزالى ، والبيرونى، وسيبويه ، والطبرى ، والبخارى ••• الا أمثلة على ذلك • ولولا الاسلام ما وجدت البلدان العربية التى لا تجمعها الا وحدة اللغة ، والتاريخ الثقافى المرتبط بهذه اللغة ، لان الدين - وان كان رابطها الاول - فهو ليس خاصا بها وحدها كامة بل تشترك معها فيه كل البلدان الإسلامية في العالم •

---

(9) الآية 28 من سورة فاطر •

(10) الآية 3 من سورة التوبة •

(11) الآية 124 من سورة البقرة •

(12) المقدمة ، مطبعة دار الشعب ، القاهرة ، ب ت ، ص 521 •

والبلدان العربية ان وجدت بحكم وقوعها تحت السلطان المباشر للامبراطورية العربية الاسلامية فى عهد الخلافات المتعاقبة على الوطن العربى عبر التاريخ المديد للحضارة الاسلامية فان الاسلام هو الذى حافظ على اللغة العربية فى هذه الاقطار بعد زوال الخلافة الاسلامية وتفتت المجتمع العربى الى دول صغيرة متناحرة منغلقة على نفسها ، وظهرت لهجات متباينة ضاعف من تباينها تفشى الامية والاحتلال الاجنبى الذى عمق الهوة ، وخلق أسباب العرقلة بين أجزاء المجتمع العربى الى درجة أن اصبح الامى الجزائرى المتحدث باللهجة العامية فى العاصمة مثلا يصعب عليه التفاهم مع الامى العربى فى العراق أو اليمن أو السعودية أو مصر ، ولا أدل على ذلك من أن كل الافلام الجزائرية الناطقة **باللهجة العامية تترجم الى اللغة** العربية الفصحى عند عرضها فى البلدان العربية فى الوقت الحاضر ، وكادت تصبح هذه اللهجات العامية (المنتشرة فى البلا دالعربية) لغات مستقلة بذاتها مثلما وقع للهجا تالاوروبية فى العصر الوسيط حيث استقلت عن اللغة اللاتينية الام استقلالا كليا ، واصبحت كل لغة تكون قومية بذاتها (13) . فرغم الظروف الموضوعية ، وما بذله الاستعمار (وما يزال يبذله بكل وقاحة وبدون ملل أو يأس الى اليوم !) من جهود للقضاء على اللغة العربية الفصحى ، فان تلك المساعى كلها تحطمت على صخرة القرآن حيث بقيت لغة القرآن - رغم انتشار اللهجات المحلية - هي اللغة العربية النموذجية الوحيدة التى تفرض نفسها فرضا على كافة اللهجات العربية والمعين الاقوى والاصفى الذى أخذت ولا زالت تأخذ منه اللهجات العربية مفرداتها للتعبير اليومى (14) وبفضل القرآن وحده أصبح للفرد العربى لهجة محلية يستعملها فى التداول اليومى مع أبناء وطنه أو عشيرته (فى غياب انتشار التعليم) ولغة عربية فصحى تصله بأبناء أمته فى كافة الاقطار الشقيقة سواء بالاذاعة أو الصحافة المكتوبة أو أي طريق من طرق الاتصال اللغوى .

وأقوى دليل على هذه العلاقة بين اللغة العربية والدين الاسلامى هو فشل كل المحاولات التى بذلت لتغيير قواعد اللغة العربية أو حروفها (15) أو اجراء أي اصلاح فيها ، ولو كان ذا غرض بناء ومضمون النتائج ... وذلك لان اللغة العربية هي لغة القرآن (كلام

(13) ساطع الحصرى ، آراء وأحاديث فى اللغة والادب ، دار العلم للملايين بيروت ص 50 .

(14) جمال البنا ، روح الاسلام ، مطبعة حسان - القاهرة 1972 ص 70 الى 78

(15) عثمان صبرى ، نحو أبجدية عربية جديدة ، مطبعة المصرى بالاسكندرية 1964 ، ص 13 - 19 .

الله الازلى الابدى) فبقى المسلمون يحافظون عليها كحفاظهم على أرواحهم المرتبطة بجوهر القرآن ·

وخلاصة القول فان اللغة العربية مرتبطة ارتباطا شديدا (حتميا أبديا) بالدين الاسلامى فى البلدان العربية والاسلامية وهي باقية على أي شكل من الاشكال ما بقى هذا الدين سائدا فى أية بقعة من بقاع المعمورة ·

فهو حاميها من الزوال ومساعدها على الانتشار ، واذا استطاع كمال أتاترك ـ مثلا ـ أن يغير الحروف اللاتينية بالحروف العربية فى اللغة التركية (16) فانه لم يستطع هو ولن يستطيع أتباعه أن يغيروا حروف القرآن ولا أن يفرضوا ترجمته باللغة التركية على المجتمع التركى المسلم حيث ما يزال يرتل القرآن باللغة العربية ويكتب بحروفها الى اليوم وقد بلغنا فى المدة الاخيرة ان الاتجاه السائد فى هذا البلد المسلم يسير الى ترسيم تعليم اللغة العربية كلغة ثانية فى المدارس الابتدائية والثانوية والجامعات التركية ، ونفس الاتجاه يسود ايران بعد الثورة وكذلك ماليزيا فى المدة الاخيرة ·

كما يلاحظ ان انتشار الاسلام فى الوقت الحاضر فى أي بلد من بلدان العالم (فى افريقيا ، وآسيا وأمريكا وأوربا) يؤدى بطريقة عفوية الى انتشار مؤسسات لتعليم اللغة العربية، لغة تأدية طقوس هذا الدين الحنيف ·

فذلك هو سر بقاء اللغة العربية وصمودها فى الماضى وعامل انتشارها وازدهارها فى المستقبل مصداقا لقوله تعالى : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » · (17)

صدق الله العظيم ·

(يتبع)

---

(16) عبد القادر الكرمنى ، اللغة والتجدد ، المطبعة العلمية بحلب 1938، ص 55

(17) سورة الحجر الآية 9 ·

مقاومة احمد بن سالم خليفة الامير عبد القادر في بلاد القبائل

الاستاذ اسماعيل العربي

يعتبر نهر يسر نهرا من صميم بلاد القبائل الكبرى بمجراه وبروافده التى تاتيه كلها ، تقريبا من جبال جرجرا ٠ والنهر يتخذ عند أصله اسم « أسيف بوبشرة » ، وبعد منطلقه الاول ، يتسع مجراه تدريجيا بما يتلقاه من الروافد التى تاتيه ، خصوصا ، من أيت يتوره وايليتن وايلولن أومالو وأيت يجر ٠ وعندما يقترب النهر من المنطقة التى تفصل بين أيت بوخالفة وأيت واجنون ، يحمل اسم « أسيف اعمريون » ٠

ونهر يسر غير قابل للملاحة، بسبب تعرجاته المفاجئة وانعطافاته السريعة ، وبسبب الصخور الكثيرة التى تنتشر فى مهده ٠ ثم ان مياه النهر تكون غزيرة جارفة فى أوقات الشتاء وفى مواسم الامطار وأوقات ذوبان الثلوج على قمم الجبال ٠ وأما فى فصل الصيف فان مياهه تقل ، وشأنه فى ذلك شأن جميع الانهار الجزائرية ، بل ان مجراه قد يجف تماما ، كما حدث أكثر من مرة فى الاعوام الاخيرة التى قلت فيها الامطار ٠

وأهم روافد النهر ، هما «أسيف نايت عيسى » الذى ينصب فيه فى منتصف أراضى ايعمريون ، شرقى تيزى وزو ٠ والرافد الثانى يتكون من مجارى وجداول جبال المعاتقة الذى يكون خيطا رقيقا من الماء ثم لا يزال يقوى حتى يلقى بنفسه فى أحضان النهر ٠

وهذان الرافدان يقسمان سفوح جرجرة الجنوبية من منابع يسر شرقا حتى نهر يسر غربا الى ثلاث مناطق ٠ والمنطقتان الاوليتان شبه متساويتان فى المساحة وتشكلان حوض نهر سبو ، وتقع فى المنطقة الشرقية منهما من القبائل المهمة ، أيت بوشعيب ــ ايليلتن ــ ايلولن أومالو ــ ايت يتورة ــ ايت منجلات ٠

والمنطقة الوسطى تقطنها قبائل ايت عيسى ــ ايت خليفة ــ ايت صدقه ــ المعاتقة ــ ايت كوفى ــ وايت عبد المومن ٠

وفى المنطقة الثالثة ، وهي المنطقة الغربية التى تمتد بين يسر غربا ووادى بوجدورة شرقا (وهي أوسع المناطق

(*) محاضرة ألقيت بالمركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة بتاريخ 23 ــ 10 ــ 1978

الثلاث ، يقيم عدد من القبائل أكبرها وأهمها قبائل فليسه أومليل ـ آيت خلفون ـ آيت عزيز وحرشاوة . وهذه القبائل كلها تشكل العمود الفقري لقيادة أحمد بن سالم العسكرية ، كما تمثل أراضيها مسارح لمعارك دفع فيها الآلاف من أبناء القبائل الكبرى حياتهم ثمنا للحرية والشرف .

وأما قبيلة بنى جعد ، وهي قبيلة أحمد بن سالم ، فتقع ديارها عند منابع الصومام ويسر ، وقد كانت ترتبط بعلاقاتهم وتحالف مع كثير من هذه القبائل ، وفى مقدمتها قبيلة فليسه أومليل التى كانت تمارس نفوذا قويا فى المناطق التى تمتد حتى جنوب البويرة . وقد اشتهرت فى عهد الاتراك بثوراتها العديدة التى كانت تقودها أسرة ابن زعمون على الحاميات التركية ، ولكنه لدى نزول القوات الفرنسية الغازية تناست القبيلة هذا النضال الداخلى وقدمت قوة كبيرة من الفرسان لمساندة الجيش التركى وضعتها تحت قيادة محمد بن زعمون .

وفى شرق وجنوب قبيلة بنى جعد تمتد أراضى حمزة (البويرة) التى كانت تخضع لنفوذ ابن محيى الدين الذى اتصل عندما بلغته اخبار انتصاراته بالامير عبد القادر ليعرض عليه نفوذه فى هذه المنطقة . ولكن روح الرجل وحبه للمال سوف ينتهى الى أن يلقى بنفسه فى أحضان الفرنسيين الذين خلعوا عليه لقب آغا . وهذا الشخص سيقف صراحة ضد القوى الوطنية وسيواجه ابن سالم فى أكثر من معركة . ولكن من هو أحمد ابن سالم ؟

قدرت سلطات الاحتلال عمر أحمد ابن سالم حينما استسلم فى سنة 1848 بحوالى 45 سنة ، وبعبارة أخرى ، فقد ولد حسب هذا التقدير فى سنة 1803 (اي ان سنه قريبة من سن الامير عبد القادر الذى ولد فى سنة 1808) . وقد وصف ابن سالم بأنه طويل القامة ويحمل لحية سوداء ، وذو عينين سوداوين وأسنان بيضاء ناصعة البياض ، وانه رجل يتسم بالعقل والرزانة ويتحلى بالتقوى وطاعة الله . وكذلك كان طلبة العلم فى منطقته يقدرون فيه ، الى جانب علمه بشئون الدين واللغة العربية ، تواضعه وعمله الدائب من أجل المصلحة العامة .

وابن سالم ينتمى الى أسرة من المرابطين من قبيلة بنى جعد وكانت لها زاوية عامرة تقع فى بلخروب حيث دفن أجداد أحمد بن سالم الذين كانت المنطقة تحيطهم ، ولا سيما والده ، مخلوف ، بهالة من الاحترام والتبجيل .

وأما والد المترجم له ، مخلوف ، فقد اشتهر بالتقوى والورع الى حد بلغت معه أخباره الداي حسين ، آخر دايات الجزائر الذى منحه حظوة ومكانة حتى أنه خوله السلطة ، فيما تقول الرواية ،

للعفو عن المجرمين الذين يقابلونـــــه صدفة فى طريقهم الى ساحة الاعدام ٠ وأما زاوية الاسرة ، فقد كانت عــلى غرار زوايا بلاد القبائل مقصدا لطلاب العلم كما كان شيوخها ملجئا للفصــل فى القضايا والنزاعات بين الافــــراد والعشائر ٠ على ان شهرة مخلـــوف وحظوته لدى السلطات التركية ، كانت مثارا لحســـد أسرة منافســـة مـــن المرابطين ، أسرة احمد بن طاهر الــتى عملت لقلب الاوضاع لصالحها لـــدى انهيار الحكم التركى ، وقد انتهى الصراع بين الاسرتين بمقتل الشيخ مخلـــوف الذى خلفه على رأس الاسرة والزاوية، ابنه أحمد ٠

ماذا كان موقف أحمد بن ســالــم فى المرحلة الاولى التى أعقبت احتلال مدينة الجزائر ؟

نحن لا نعرف شيئا عن ذلك عـــلى سبيل اليقين ، ولكن المرجح ان عواطف أحمد بن سالم ، ومثله فى ذلك مثل بقية زعماء بلاد القبائل لم تتبلور الى اعمال محددة ضد الغزاة الا فى مرحلـــة متأخرة ٠ واذا كان يتابع باهتمـــام تطورات نضال الامير عبد القــادر فى المناطق الغربية ، فان أصداء هـــذا النضال تصل الى بلاد القبائل ضعيفة ، من حيث ان ولاية وهران التى كـــانت مدة طويلة هي المســرح الاســاسى لعمليات جيش الامير تفصلها عن بلاد القبائل ولاية تيطرى ٠

ولكنه عندما استقرت الامور للامير فى ولاية وهران فى ظل معاهدة ديمشال (1834) ـ فى تلك المعاهدة التى سمحت للامير بنشر نفوذه بين قبائل شلــف ومليانة والمدية ، أخذت بلاد القبائــل تستيقض لاهمية المقاومة الوطنية الــتى أوقفت الغزاة عند حدود لا يتجاوزونها فى الاتجاه الغربى ٠ وقد اقترب الامير من بلاد القبائل عقب تسلمه زمام الادارة رسميا فى مليانة والمدية اللتين عيـــن عليهما وعلى أراضيهـما الحاج محيى الدين الصغير ومحمد بن عيسى البركانى (أوائل سنة 1835) ٠

وعقب فتح لمدية اتخذ الامير اجرائين بهدف نشر نفوذه فى منطقة بلاد القبائل، أولهما تعيين محمد بن محيى الديــن ، آغا الخيالة على بنى سليمان ، ولكن هذا الرجل كان يرى انه أحق بالخلافة على لمدية من البركانى ، وقد انتهت به هذه المنافسة الى السجن بأمر مـــن الامير ، والاجراء الثانى هو تعييـــن شخص لا نعرف شيئا كثيرا عنه اسمه سى السعدى خليفة على بلاد القبائل الكبرى فى سنة 1837 ٠ وقد زوده الامير برسائل الى زعماء بلاد القبائل ، وفى مقدمتهم ابن زعمون وبلقاسم أوقاسى ٠ ولكن هذا الرجل كان ضعيف الشخصية وأثبت عجزه ، على الرغم من أنه كان صهرا لابن زعمون ، عن ممارسة أي نفوذ بين زعماء بلاد القبائل ٠ وكذلــك استخلص الرجل نتيجة الموقف بنفسه وقدم استقالته من منصبه ٠

ولكن التجربة التى قام بها ولد سى السعدى ، كانت مفيدة للامير من حيث انها سمحت له بجمع معلومات عن العلاقات بين القبائل وزعمائها وخصوصا عن امكانيات هذه المنطقة العسكرية واستراتيجية بوصفها منطقة جبلية وتقع خلف المنطقة المحتلة مباشرة ·

وقرب بلاد القبائل من المنطقة المحتلة سلاح ذو حدين · فان معرفة استغلال طاقتها البشرية وموقعها الجغرافى قد يكون عاملا حاسما فى الحرب ، ولكن هذا القرب نفسه يوفر فرصا لتوغل النفوذ الفرنسى فى بلاد القبائل ، ولا سيما بما تنطوى عليه العلاقات التجارية من اغراء بالكسب المادى · وهذه الحقيقة الاخيرة اثبتتها ثورة الزواتنة الذين ينتمون الى أصل كروغلى، ضد نفوذ الامير · ولكنه بعد ما أعادهم الى صوابهم بهجوم مظفر ، استخلصت القبائل المجاورة العبرة واتعظت بالدرس ، فأخذت فى أوائل سنة 1838 تسارع الى الاعتراف بسلطان الامير وبدفع الضرائب المستحقة ·

وفى الجولة التى قام بها الامير عقب هذا النصر فى المنطقة تعلم هو الآخر درسا أساسيا وأدرك مدى تشبث بلاد القبائل المجاورة العبرة واتعظت تقوم الزعامة فيها على أساس من التوافق والتراضى بين مختلف الفئات الاجتماعية ، ولذلك فهو لم يفرض عليهم شخصا من طراز سى السعدى ، وانما وضعهم أمام مسئولياتهم فقال لهم « عليكم ان تنظروا وتختاروا من ترونه أهلا للخلافة » ·

وبعد مشاورات مع زعماء المنطقة عرض الامير الخلافة على بلقاسم أوقاسى ، ولكن الرجل اعتذر عن قبولها قائلا ان البلد على وشك الدخول فى حرب مع العدو ، وانه لضمان تجنيد بلاد القبائل وتعبئة قواها يقتضى الامر تعيين شخصية دينية من المرابطين · وأضاف انه لا يوجد فى رأيه من هو أولى بهذه المهمة من أحمد بن سالم · واثر ذلك استدعى الامير أحمد بن سالم وعينه خليفة على الفور وخلع عليه برنوس الخلافة ، ثم أمر ، رمزا لترسيمه، باقامة استعراض عسكرى على أنغام الموسيقى · وقد كان هذا الاستعراض الذى يشرف عليه السلطان بنفسه حدثا عظيما فى نظر السكان وهو بالتأكيد بادرة لم تعرف لها بلاد القبائل مثيلا ·

وعقب هذا التعيين عمد الامير الى تقسيم بلاد القبائل الكبرى الى دائرتين (آغاليك) عين على رأس احدهما بلقاسم أوقاسى وعلى رأس الاخرى ابن محيى الدين · وفى نفس الوقت وجه الامير رسائل الى زعماء فليسه يدعوهم فيها الى اعلان الطاعة والى الانضمام الى صفوف المقاومة ، وعلى الفور قدم ابن زعمون طاعته وطاعة أسرته القوية، فعينه الامير أغا على فليسه وبنى خلفون والمعاتقه ونزليوه وجشطوله وأولاد عزيز ·

وبهذه الترتيبات الادارية بسط الامير سلطانه الذى بلغ أوجه فى ظل معاهدة تافنا التى عقدت بينه وبين الحكومة الفرنسية فى سنة 1837 ، على جبال القبائل الكبرى التى ظلت مستعصية على الغزاة فى مختلف العصور ·

ومن الاجراءات الادارية الاخرى التى اتخذها الامير فى غضون هذه الرحلة ، فصل أغلبية بنى سليمان التى كانت تابعة للبركانى عن المدية وضمها الى خلافة ابن سالم ، وبذلك اصبحت هذه الخلافة أكبر خلافة فى الدولة ـ على الاقل من الناحية الجغرافية · وقد كان من مزايا هذا الاجراء انه يلحق بنى سليمان بمنطقة بلاد القبائل التى ينتمون اليها ، فى الوقت الذى يجسم فيه الخلاف الذى كان مستحكما بين ابن محيى الدين والبركانى ويتيح الفرصة للاول أن يفتح صفحة جديدة بيضاء مع ابن سالم ·

وبعد ما أقام مركزا عسكريا فى برج سبو لمراقبة تحركات العدو ، أوصى زعماء القبائل بالتضامن والامتثال لاوامر الخليفة ابن سالم واغواته ، رحل الامير عبد القادر عن بلاد القبائل التى أصبحت الآن من أقوى وأمنع قواعده وعاد الى المدية ليكرس اهتمامه لمشكلة الواحات ، وفى مقدمتها الاغواط وعين ماضى ، معقل التيجانى ·

كان على رأس الادارة الاستعمارية فى المنطقة المحتلة فى هذه الآونة المريشال «فالى» الذى خلف «دامريمون» الذى لقى مصرعه تحت أسوار قسنطينة الباسلة ، · وقد كان هذا العسكرى من أشد المعارضين لضم الامير مليانة والمدية الى مملكته · ولكنه لم يكد يقبل بالامر الواقع ويعترف بالوضعية الجديدة حتى رأى الامير يطوق المنطقة المحتلة من الخلف بضمه بلاد القبائل ، على أن أسوأ مما حل ما يتوقع · فان مخطط الامير لضم ولاية قسنطينة الى مملكته مخطط معروف لدى سلطات الاحتلال · وبعد ما رأى الامير تصلب السلطات الاستعمارية المحلية ، بعث بوزير خارجيته ابن عراش يتفاوض بشأنه مع لوى فليب، ملك فرنسا نفسه · ولكن قوى الاستعمار سبقته الى باريس لتخرب مهمته السامية وتقوض المشروع ، لانه اذا كان احتلال فرنسا لقسنطينة يجد معارضة لا يستهان بها فى باريس ، فان الادارة الاستعمارية المحلية كانت مصممة عليه ، ولو أدى الامر الى خرق نصوص معاهدة تافنا واشعال نار الحرب مع الامير عبد القادر ·

ومهما يكن من أمر ، فقد وجد فالى على مقربة منه وعلى حافة الطريق المؤدية الى قسنطينة خليفة للامير (أحمد ابن سالم) قوى الشوكة مرهوب الجانب ومزودا بالسلطة للدخول فى اتصالات مع الوالى العام فى جميع الشئون المحلية ·

ونحن نجد بين أيدينا رسالة (أو بعبارة أدق ترجمة فرنسية لرسالة)

وجهها ابن سالم الى المريشال فـــالى بتاريخ 1 سبتمبر 1838 ، تبدأ بالعبــارة التاليـــة :

« الى من أجهل اسمه بسبب عـــدم وجود صلة بينى وبينــه ، الى قائــــد الجيوش الفرنسية » ٠

وفى هذ الرسالة يخبر ابن سالـــم الوالى العام بأن السلطان الحاج عبــد القادر قد أصــدر أوامره بالتعايش فى تفاهــم مع الفرنسييــن وانه هو ، تبعا لذلك يسمح للفرنسيين بالتردد عـــلى أسواق بلاد القبائل التى تقع فى منطقة خلافته لشراء ما يحتاجون اليه بشرط أن يدفعوا ضريبة الدخـــول الى هذه الاسواق ٠

وتمضى رسالة أحمد بن سالم لتؤكد للمريشال فالى أنه يستطيع أن يثق بأن السلام قائم وشامل وانه ما من أحـــد يستطيع أن يلحق أي ضرر بالفرنسيين، ثم يعرب عن أمله فى أن يحترم الفرنسيون شروط السلام التى تنص عليها المعاهدة بأمانة واخلاص ٠

ولما اثار أحمد بن سالم قضية اعتداء رجال احدى القبائل الموالية للفرنسيين يدعى الهادى حيث جردوه من أموالـــه واعتدوا على نسائه اضاف قائلا :

« فاذا كان هذا الحادث من تدبيركم فأبلغونا ذلك حيث انه يعتبر غـــــدرا وخيانة ، والخيانة لا يمكن أن تأتى من أمثالكم ، ولكنه اذا كانت المسئوليـــة تقع على رجال القبيلة وحدهم فاعلمونا بذلك وأمروهم باعادة الاموال الـــتى أخذوها الى سيدى الهادى وبأن لا يعودوا لمثل هذه الافعال ٠

واختتم ابن سالم رسالته قائلا انـــه عدل عن انزال العقاب بهذه القبيلة لان الامير أمره بعــدم متابعـــة الاشخاص الذين يلجئون الى الفرنسيين ٠

والرسالة الثانية التى عثرنا عليهــا وجهها أحمد بن سالم عن طريق القبطان بيليسيى رئيس المكتــب العربى ، وهي مؤرخة فى 8 شوال 1254 (26 سبتمبــر 1838) ٠ وفى هذه الرسالة يبلغ أحمد ابن سالم فالى أنه بعد ما استقر الحكــم للمسلمين ٠٠٠ لم يعد هناك مبرر لقلق الفرنسيين ، « فان السلطان يريـــد أن يعيش معكم فى سلام ، وهو قد أمرنــا بذلك ونحن ننفذ أوامره » ٠

ويمضى فيقول انه على الرغم مـــن ذلك فان الفرنسيين يسمحون لاعوانهم بالاستيلاء على البضائع ٠ فان هــؤلاء يوقفون التجار ويحولـــون بذلــك دون مواصلة التبادل التجاري ٠ وبعد ذلــك يذكر ابن سالم الوالى العام بأن استتباب الامن فى الطرق أمــر فى مصلحـــة الفرنسيين أكثر مما هو فى مصلحـــة العرب ٠

وفى شهر ديسمبر 1839 ، كتب ابن سالم رسالة أخرى الى فالى يذكره بأن « السلطان عقد الصلح معكم ونحـــن نتوقــع أن تلتزمــوا طريـــق العـــدل والانصـــاف ٠

وفى هذه الرسالة يشكو الخليفة من اعتداء بعض أعوان الفرنسيين على رجال من بنى مستيد ويذكر الوالى العام أن الامير كتب اليه بشأن هؤلاء المعتدين عدة مرات ثم يعرب عن دهشته لان يرى السلطات الفرنسية تقف مكتوفة الايدى أمام هذه الحوادث ·

* * *

كانت عمراوه وبنو سليمان وبنو جعد تشكل القاعدة الثلاثية الاضلاع التى يقوم عليها حكم أحمد بن سالم · وبعد ما قبل ابن محيى الدين آغا بنى سليمان التعاون مع الخليفة فى المرحلة الاولى ، لم تلبث الاغراض الشخصية التى كان يخفيها أن ظهرت ، فراح يضع العراقيل أمام أحمد بن سالم ، بل ويحرض على الثورة عليه ، هذا من جهة، ومن جهة أخرى ، فقد بدا لعمراوة بعد وقت ان ابن سالم يحابى بنى جعد فى الوظائف العمومية وفى غير ذلك من المزايا · وقد سرت عدوى التذمر لتبلغ فليسه أيضا · ولكن بلقاسم أوقاسى وابن زعمون ظلا على ثباتهما وولائهما للخليفة ·

وهذا الشقاق سيعرضه أحمد بن سالم على الامير ويطلب اليه الارشاد والمساعدة ·

وبمجرد ما بلغته هذه الاخبار ، سارع الامير بارسال شحنات من الذخيرة ومعها تعزيزات عسكرية الى الخليفة ليبرهن له على تضامنه معه · وفى الوقت نفسه كتب رسالة الى عمراوة يوبخهم فيها للصعوبات التى يثيرونها للخليفة ·

ويبدو ان الامير ، من جهة أخرى لفت نظر ابن سالم الى ما تشكو منه عمراوة، لاننا نرى انه عندما قرر الامير تكليف الخليفة بمهمة جباية ضريبة اضافية تسمى « المعونة » ، عهد ابن سالم بالقيام بهذه المهمة الى رجال قبيلة عمراوة · وقد بلغ ما جمعته عمراوة فى هذه المناسبة 45 الف فرنك ·

ولكن مصاعب أخرى كانت تنتظر الخليفة · فقد قامت قبيلة بنى واجنون بهجوم على برج سبو المركز العسكرى الذى أقيم للمراقبة · ولما بلغت هذه الاخبار الى الامير ، سارع بارسال مساعد له برتبة آغا اسمه أبو زيد (وكان معروفا بشجاعته) على رأس بعثة تتكون من ستة ضباط برتبة سياف وبعث معهم 122 خيمة و 600 بدلة عسكرية مع أمر الى الخليفة بأن يقوم فورا بتجنيد قوة تكون نواة لجيش نظامى ·

ولم يمض سوى وقت قصير حتى كان لدى الخليفة جيش يتكون من 600 جندى وعلى رأسهم العدد الضرورى من الضباط ، ممن قامت البعثة العسكرية بتدريبهم · ولكن هذه القوة التى جهزت بصورة مستعجلة لمواجهة ضغط القبائل لم تتلق التدريب الكافى · وقد ظهر هذا النقص فى أول اشتباك لها مع بنى خلفون الذين انزلوا بها هزيمة منكرة ، وهكذا وجد الخليفة ان استخدام هذه القوة لجمع الزكاة اجدى من استعمالها للاغراض الحربية · وقد نجحت فعلا فى جمع مبلغ 60000 فرنك ·

ولكن كفاءة هذا الجيش الاقليمي ستتحسن تدريجيا وعدد أفراده سوف يزداد حتى يبلغ الالف ، بحيث يتمكن أحمد بن سالم فى ظرف وجيز من اعادة القبائل العاصية وفى مقدمتهم عمراوة الى حظيرة الطاعة ٠ وعند ذلك فقط قرر الامير زيارة بلاد القبائل للمرة الثانية ٠

وفى منتصف سنة 1839 ، نزل الامير ببرج حمزة فكان ابن سالم على رأس زعماء القبائل الذين كانوا فى استقباله، وانزله فى بيت أسرته فى بلخروب ، ثم قام معه بجولة الى برج بوغنى ، ثم الى زاوية سيدى على أوموسى ٠ وفى كل مكان كانت القبائل تقف فى طريقه لتحية الرجل الذى تتجسد فيه الآن فى نظرهم كل معانى الحرية والكرامة القومية ٠

وقد افضت هذه الرحلة بالامير الذى اصطحب معه الخليفة وزعماء فليسة وعمراوة الى آقبو وسيدى عيش محاذيا وادى الساحل ثم الى بنى وغليس وسار حتى بلغ جبال توجه التى تطل على بجاية التى كانت مدينة محتلة ٠ ولكن هذه الرحلة التى كانت لهانتائج طيبة فى تدعيم سلطة ابن سالم فى البداية قد انتهت نهاية محزنة وكادت تكون كارثة ٠

فان حاكم بجاية الفرنسى عندما علم بوجود الامير فى منطقته وهو يعرف ان بلده يرتبط بالامير بمعاهدة تافنا ، سارع الى توجيه رسالة اليه مع أحد ضباطه يرحب فيها بمقدمه ويقدم اليه المجاملات المتعارفة فى مثل هذه المناسبات ٠ ولكن زعماء القبائل الذين يرون عاصمة مقاطعتهم محتلة ، لم يكونوا ليأخذوا الاعتبارات الديبلوماسية فى حسابهم ٠ وكذلك اتهموا الامير ومرافقيه بأنهم خرقوا حرمة الضيافة وانهم يتراسلون مع المسيحيين بقصد تعريض منطقتهم للخطر ٠ ولذلك اضطر الامير الى مغادرة المنطقة بسرعة وفى حركة سرية ٠ ولكنه لما وصل الى وادى امسيس تعرض له الشيخ بن داوود واتباعه ولم ينج الامير من الموت الا بتدخل امزيان أورابح وبلقاسم أوقاسى.

* * * *

كان فشل سفارة ابن عراش فى باريس فى منتصف سنة 1838 ورفض الامير التصديق على مشروع فالى لتعديل معاهدة تافنا بشكل يطلق يد فرنسا فى جميع مناطق ولاية قسنطينة نذيرا بأن البلد مقبل على حرب ضروس ٠٠ وبالفعل ، فقد استقبل الامير فى 31 أكتوبر 1839 فارسين فى تكدمت قطعا مسافة 400 كليو متر فى يومين ليسلما اليه رسالة من أحمد بن سالم ، تقول كان الدوق دورليان ابن الملك والماريشال فالى قد جازا فى مضيق البيبان على رأس جيوش فرنسية محاولين بذلك فتح طريق المواصلات بين الجزائر وقسنطينة وخارقين بذلك نصوص معاهدة تافنا ٠

كان موقف ابن سالم فى غاية الحرج عندما رأى الجيش الفرنسى بقيادة ابن الملك يخترق حرمة أراضى ولايته ٠ هل يقاوم المعتدين بالسلاح وهو ليس لديه أوامر بذلك ، فيتسبب فى بدء الحرب ، أم يغض النظر ويترك الغزاة

يمرون ليثبتوا بهذه السابقة حقهم فى المرور من والى قسنطينة ؟ وبعد تفكير وترو ، قام على رأس قوة لمناوشة الجيش الفرنسى عند جسر بنى هنى ، وبذلك تجنب الدخول فى معركة غير متكافئة فى الوقت الذى أثبت فيه انه وقف بالسلاح فى وجه العدوان الغادر ٠

* * * *

بعدما رفض مؤتمر بوخرشوفة الذى ضم رجال الحكومة والاعيان مشروع فالى لتعديل معاهدة تافنا ، وقرر مواجهة التحدى الفرنسى باستئناف القتال ، بعث الامير ببيان رسمى الى الخلفاء والاغوات يعلن فيه قيام الجيش الفرنسى باعتداء على حدود المملكة « بحيث تجاوز الحدود المقررة بيننا وبينهم ومروا ببلادنا من قسنطينة الى الجزائر » حسب نص البيان ٠ وكذلك بعث الى أحمد بن سالم يبلغه انه هو الرجل الذى يعتمد عليه فى بلاد القبائل التى هي خط المواجهة الاول لقيادة عجلة الحرب ٠

واثر ذلك ، جمع أحمد بن سالم جيشه فى معسكر عين بسام ، ومن هناك أخذ يذيع بيانات ويوجه الرسائل الى زعماء مختلف القبائل يشرح فيها الوضع الجديد ويحثهم على جمع الشتات وتنظيم الصفوف لمواجهة العدو ٠ وبعد جولات هنا وهناك يقرأ فيها بنفسه بيانات الامير ، عاد الى عين بسام ، ثم انتقل الى برج حمزة حيث التحق به قياده وآغاواته على رأس القوات العسكرية التى كانت تحت أوامر كل منهم ٠

ولما تجمعت لديه قوة كبيرة من الجيش النظامى والمتطوعين سار الخليفة على رأسها الى واد خضرة الذى يمثل الحدود الرسمية مع المنطقة المحتلة، ولكنه قبل أن يشرع فى الهجوم بوقت قصير وصله أمر من الامير بأن يمتنع عن ذلك ويترك حركة الهجوم لجيشى ابن علال والبركانى فى الغرب ٠

ولكن المجاهدين المتطوعين الذين كانوا خلف ابن سالم ، لم يستطيعوا الوقوف مكتوفى الايدى حينما شاهدوا سحب الدخان ترتفع عاليا فى سهول متيجة عقب بدء الهجوم من الغرب ، وقد سارع آلاف من أبناء القبائل واخترقوا المراكز العسكرية التى أقامها فالى بكثير من الجهد وأخذوا يتدافعون كالسيل لتخريب الضياع ولتدمير التحصينات الفرنسية ٠ واما ابن سالم وجيشه النظامى ، فقد وصل الى متيجة فى المرحلة الاخيرة من المعركة ، بعد ما حاول عبثا كبح جماح المتطوعين تطبيقا لتعليمات الامير ٠

وبعد ما تحولت هذه السهول الوارفة الى صحراء قاحلة فى ظرف وجيز أصدر ابن سالم أوامره الى الجموع التى أبدت شيئا غير قليل من سوء النظام بأن ترحل عن متيجة وذلك لكي يتجنب الهجوم الفرنسى المضاد ٠ أما هو فقد انتقل على رأس قواته الى مزيونة حيث فاجأه الامير بزيارة خاطفة ٠ وبعد ما أقام هناك يومين كان يحرر خلالهما الرسائل ويصدر الاوامر الى زعماء القبائل ، وجه الامير أحمد

بن سالم الى برج سبو وسار هو الى جبل بوزغزة حيث انضم اليه خليفة بلاد القبائل بعد ذلك على رأس قوة معتبرة من عمراوة وبنى يراتن وبنى واجتون وفليسه وبنى جناد ، وقد ضرب معسكره عند وادى بودواو ·

ومن معسكر بودواو شن ابن سالم هجمات موفقة على المراكز التى حصنها المريشال فالى فى المنطقة وزودها بالمؤن منذ عدة أشهر استعدادا لفتح طريق المواصلات بين الجزائر وقسنطينة ·

كانت المشكلة الاساسية التى واجهها أحمد بن سالم فى مرحلة المعارك ، هى ان جموع القبائل لا تلبث أن تتبخر فى الهواء بعد كل معركة وبذلك تترك فراغا ماديا وادبيا فى صفوف الجيش · هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان بلاد القبائل لا تتوفر فيها المرافق الضرورية لايواء جيش كبير ولتدريبه وتزويده بالمواد الغذائية والذخيرة بصفة مستمرة ·

وهذه الاعتبارات هي التى اضطرت الامير الى سحب قوات المشاة التى وضعها تحت تصرف ابن سالم ليضمها الى جيشى مليانة ولمدية ، ولكنه على كل حال ترك له الخيالة النظامية والقوات التى يجمعها محليا من فرسان ومشاة ·

على ان ابن سالم سرعان ما أعاد بناء جيشه على أساس محلى ولم يلبث ان وجد تحت تصرفه قوة ضاربة معتبرة وقام على رأسها فى هجوم شامل على منشئات العدو وجيوشه ، ولم يتوقف الا فى الحراش ·

وفى مرحلة تالية غير ابن سالم خططه ، وبدلا من الاعتماد على جيش كبير ، فضل استخدام جماعات صغيرة للقيام بأغراض محدودة ، تختفى فى الغابات بالنهار وتنقض على منشئات العدو بالليل لتنزل به خسائر فى الممتلكات وتبعث الرعب فى نفوس المعمرين ·

وفى احدى هجمات العصابات التى شارك فيها أحمد بن سالم بنفسه وفى رفقة الحسين ابن زعمون ، زعيم فليسه، اتجه المجاهدون الى معسكر الحراش الفرنسى ، ولكن العدو كان لهم بالمرصاد وواجههم بنيران شديدة كانت تنهال عليهم من كل جهة · وقد نجا ابن سالم بنفسه ولكن الحسين بن زعمون أصيب برصاصة اردته قتيلا ·

وبينما كانت قوات العدو منهمكة فى محاصرة الحصون التى أقامها الامير فى الجنوب فى سنة 1841 ، استغل ابن سالم ذلك الهدوء ليقيم هو حصنا له فى بلخروب ، لانه كان يرى ان تدمير العدو لحصن يجب أن يشحذ العزائم لبناء حصن آخر أقوى وامنع ·

ولما انسحب الامير فى اتجاه المغرب الاقصى ، واجه البركانى وابن علال صعوبات جمة فى التجنيد وجمع المال الضرورى لتمويل الحرب ، ولكن وضع ابن سالم ظل قويا بفضل قوة نفوذه فى بلاد القبائل ، وأيضا بفضل الاستقلال المالى والادارى الذى كانت تتمتع به خلافته ، ولان العدو لم يكن قد مس الامكانيات المادية والمعنوية فى هذه المنطقة ·

على ان ابن سالم كان يشعر بالعبء الفادح الذى ألقي على عاتقه بوصفه القائد الاول للمعركة فى الداخل بعد رحيل الامير وكبار خلفائه الى المغرب . ولكن الشيء الذى كان يحز فى نفسه أكثر من غيره ، هو انقطاع الاتصال بالامير بسبب تعرض العدو للمراسلات .

وازاء قلقه المستمر على الامير ، ولا سيما عقب الاشاعات التى أذاعها العدو بموته ، قرر زعماء بنى جعد واولاد بن داوود وونوغة وعمراوة تشكيل وفد من خيرة فرسانهم ليقوم بالبحث عن الامير فى الغرب . ولما عرضوا الفكرة على ابن سالم قبل بها ولكن بشرط ان يضم الوفد أحد أشقائه .

وكذلك سار هذا الوفد الغريب الذى يتكون من أكثر من 400 فارس وفى مقدمتهم زعماء القبائل للبحث عن الامير فى الغرب سالكين حافة الصحراء ولما لحقوا بمعسكره سلموا اليه رسالة ابن سالم التى تحمل اليه مخاوفه من الاراجيف التى يذيعها العدو بقصد شن العزائم وتخدير الارادات .

وقد فرح الامير بهذه المبادرة وأحسن استقبال الوفد ورد على ابن سالم برسالة ارفقها بهدية ، وهي عبارة عن فرسه الشخصى وسيفه ، وهما أعز ممتلكاته . وهذه الاخبار التى عاد بها الوفد والتى أكدت للرأي العام أن الامير ليس حيا فقط ولكنه كذلك لا يزال يبادل العدو الضربات ، كان لها ولهدية الامير أثر معنوى منعش فى نفوس سكان بلاد القبائل .

والعنصر الايجابى الآخر فى الموقف، هو انه عندما عجز البركانى (خليفة المدية) عن توفير المال للمحافظة على قوته النظامية وقرر الهجرة الى المغرب، رفضت هذه القوة السير معه وفضلت الالتحاق بجيش ابن سالم . ولما كانت هذه القوة حسنة التدريب وقد ساهمت فى المعركة بقيادة واحد من أشجع وابرع القادة العسكريين الذين أنجبتهم الجزائر . وفى فترة لاحقة ، بعث الامير الى ابن سالم بكاتبه الخاص ، الحاج محمد بن الخروبى الذى اشتهر بعلمه وتقواه ليكون بجنبه وليعمل مستشارا له .

وهذه التطورات الحميدة لم تلبث ان ظهرت نتائجها على صعيد العمليات العسكرية حيث سمحت لابن سالم بتسجيل عدة انتصارات فى هجماته المتوالية على منشئات العدو فى السهول، واشهر هذه الانتصارات هي التى سجلها فى بوفاريك وفى البليدة حيث قضت قوات القبائل على تشكيلات عسكرية بأكملها . وهذه المعارك سيقيم لها الفرنسيون نصبا تذكاريا فيما بعد فى بنى مراد لاحياء ذكرى قتلاهم .

ونحن يجب ألا ننسى أن الذى يواجهه ابن سالم فى أوائل سنة 1842 هو الجنرال بيجو الذى كان على رأس قوة عسكرية هائلة حسنة التدريب والتجهيز .

وبعد ما احتلوا المدن الرئيسية فى الغرب ووضعوا حاميات فى القواعد العسكرية التى بناها الامير ثم خربها فى الجنوب تحت ضغط الجيوش التى

يقودها لامورسيير وبيد وسانت ارنو ، ادركت القيادة الفرنسية ان ابن سالم قد أصبح القوة الوحيدة المهمة فى البلد • وكذلك اتجهوا للقضاء عليه • وقبل الحملات العسكرية التى ستكون بلاد القبائل مسرحا لها ، بدأوا بشن حملة سياسية للدعاية كان لها بعض التأثير فى نفوس القبائل الضعيفة الايمان •

ولما رأى ابن سالم انه لا طاقة له بمواجهة القوة الفرنسية التى ستتحول اليه الآن بكاملها ، قرر أن مما لا جدوى منه مواصلة الحرب النظامية ، ولذلك انسحب الى الجبال وأخذ يعد العدة لشن حرب العصابات •

وأما بيجو الذى تلقى عونا جديد بتحول ابن محيى الدين الى المعسكر الفرنسى ، فانه قرر ، بعد سلسلة من الرسائل التى تنطوى على الكذب والمراوغة مع وزير الحربية ، تأمين منطقة الاحتلال بالاستيلاء على المواقع المجاورة لها • وفى 29 سبتمبر سار على رأس حملة عسكرية عسكرت عند وادى خضرة ثم واصلت سيرها حتى دخلت سوق حمزة فى 10 أكتوبر 1842 • وهذه العملية كانت لها قيمة سيكولوجية أكبر من قيمتها العسكرية ، حيث أحست بعض القبائل مثل بنى خلفون وبنى جناد بالخطر وبدأ الاضطراب فى صفوفها ، بل ان فليسة نفسها ستسرى فيها عدوى الخوف وتزعم أن الفرنسيين لا يريدون لهم شرا الا بسبب وجود ابن سالم بين ظهرانيهم • وكذلك طلبوا اليه أن يخرج من أرضهم • ولما خرج من أرضهم فى اتجاه شيطه سلطو، عليه أشرارهم ليعتدوا عليه ويستولوا على أمتعته •

ومع ذلك ، فان أكبر انتصار يحققه ابن سالم هو الذى سجله بعد هذه الاهانة ، وضد جيش كان على رأسه الدوق دو مان ابن الملك نفسه ، وكان فى طريقه لاخضاع قبيلة نزليوة الباسلة ، ولم ينج بحياته الا بأعجوبة •

ولكنه على الرغم من اصداء هذه المعركة التى قاد فيها الخليفة ألف رجل ، فقد واجه مشكلة داخلية غريبة • فان ابن سالم كان قد أودع ذخيرته ومئونه عندما أحس بالخطر فى الجبال فى زاوية سيدى عبد الرحمن • ولما بعث فى طلبها رد عليه مسئولون برفض طلبه قائلين ان هذه أموال الدولة وابن سالم لم يعد صاحب السلطان وانهم لن يسلموا هذه الودائع الا للامير عبد القادر !

وجريا على عادته فى التذرع بالصبر ومعالجة الامور السياسية باللين ،كتب ابن سالم الى الامير ليعرض عليه المشكلة • وبمجرد ما استلم رسالته كتب الامير رسالة طويلة موجهة الى بلاد القبائل كلها يدعو زعماء القبائل فيها الى الاستمرار على الطاعة والولاء للخليفة أحمد بن سالم • وكذلك كانت هذه الرسالة بردا وسلاما فى نفوس المجاهدين المخلصين •

على ان الاخبار التى وردت بسقوط زمالة الامير عبد القادر كان لها وقع الصاعقة فى بلاد القبائل وبين صفوف

ابن سالم بصفة خاصة . فقد فسر الجميع هذا الحدث الذى لا نظير له بأنه بداية النهاية لمقاومة الامير . واثر ذلك قرر ابن سالم أن يجمد جهوده مؤقتا ريثما تمر سحابة التشاؤم المخيمة على النفوس ، فانسحب مع اثنين من اغاواته وبعض ضباطه ونحو عشرين من الجنود الى وادى شلاطة حيث بقى يرقب الاحداث عن كثب ويكتب رسائله الى زعماء القبائل .

ولكن روح التخاذل والانهزام التى تسرى فى القبائل لم تنج منها أسرة الخليفة نفسها . فان أحد اخويه ، عمر ، قرر الخروج من صفوف النضال ليعيش حياة هادئة . وأما أخوه الآخر ، علي ، فقد سلم نفسه للفرنسيين، ولكن الاخ الثالث ، زيد ، ظل على ولائه لاحمد بن سالم وفى الاستمرار فى الكفاح .

وفى هذه الاثناء ، تلقى أحمد بن سالم طعنة من الخلف ، فان ابنه هرب فى رفقة طالب الى الجزائر ، وهناك سلم نفسه للسلطات الفرنسية التى لم تكن تحلم برهينة من هذا القالب . ولذلك سارعت الى ارسال الشاب الى فرنسا بحجة تعليمه وتلقينه أفكارا تربطه بفرنسا ، لو أن الغرض الحقيقى هو الدعاية للمجهود السياسى والعسكرى الذى يبذلونه .

وكأنما لا تأتى المصائب منفردة ، فقد وردت فى الآونة نفسها أخبار استشهاد القائد المحنك والزعيم العظيم الذى كانت شجاعته مضرب المثل ، ابن علال ، خليفة مليانة ، وكان ذلك فى ساحة القتال والشرف .

وفى 26 أبريل 1844 خرج الوالى العام الجنرال بيجو على رأس حملة تتكون من 8000 جندى من الحراش وعسكر فى وادى الخميس ثم اجتاز نهر بودواو وسار على الضفة اليسرى لنهر يسر حتى وصل الى ثنية بنى عيشة ، وفى الطريق انضمت اليها قوات الآغا الفرنسى ابن محيى الدين . وفى نفس الوقت اتجهت قوة بحرية الى دلس التى سيتخذها الجيش المحتل قاعدة للتموين .

وقد ترك ابن سالم هذه القوة تتوغل فى الجبال عن خطة ولم يتعرض لها الا فى امايوحين وقعت بين الطرفين معركة شديدة أبدى فيها الوطنيون ضروبا من الشجاعة والتضحية . وقد جاء فى تقرير لبيجو الى وزير الحربية عن هذه المعركة قوله : « يجب علينا أن ننصف هؤلاء الاعداء فقد أرغمونا على الاستمرار فى المعركة وقتا أطول مما كنت أريد » .

وبعد هذه المعركة أخذت جموع القبائل تتكتل من جديد وتعيد تنظيم صفوفها . وبعد ما شن عليهم بيجو هجوما قليل الجدوى ، ضرب مخيمه عند عين ثرة ، وبينما كان جنوده يستجمون شنت عليهم قوات ابن سالم هجمات موفقة ، ولكنها لم تمنع بيجو من مواصلة سيره الى بلخروب ، قلعة ابن سالم ، التى خربها واطلق جنوده فى عمليات مخزية للسلب والنهب والاحراق وقوض منزل الخليفة حتى الاساس . وبعد ذلك انحدرت القوة

الغازية الى عين بسام ثم الى بـرج حمزة لتعود الى الجزائر فى 28 مايـو

وعندما ظهر الامير من جديد كالبرق الخاطف فى أولاد نايل فى سنة 1846 ، التحق به ابن سالم مع بقية زعمـاء المقاومة ليستعرضوا الحالة معه ٠ وقد كان من بين المشروعات التى عرضها عليه مشروع لغزو متيجة ٠ وبالفعل فقد سار على رأس قواته النظاميـة وفرسان أولاد نايل ودخل سهول متيجة ليصول ويجول فيها ويدمر منشئـات العدو ويمعـن فى تخريـب ضيـا المعمرين ، وقيل انه لم يبق بينه وبيـن دخول الجزائر سوى مسافة أربـع ساعات ، كان ذلك هو الرد على تخريب بلخـروب ٠

ولكن العدو سوف يحشد حشـودد ويقوم بهجوم مفاجىء على معسكر ابـن سالم فى المكان المسمى « منزل الطبول » وهناك استولى على غنائم منـهـا 300 فرسا و 600 بندقية وعددا من السروج ٠ ولكن الغنيمة الكبرى افلتت من أيديهم ، فلم يعرفوا ان الامير عبد القادر كـان موجودا فى هذا المعسكر أثناء تخريبـه الا بعد ما أفلت والتجأ الى المعاتقة ٠

سيستمر أحمد بن سالم فى المقاومة بكل ما أوتي من العـزم والتصميـم والشجاعة ، يوما له ويوما عليه ، ولكن الروح المعنوية كانت ضعيفة بين السكان ٠

وقد اغتنم الوالى العام هذا الوضع ليعيد الى ابن سالم ابنه مكرما معززا ٠ وفى أوائل ينايـر 1847 كتب ابن سالم الى الوالى العام ليشكره على هذه المبادرة ٠

وقد أعقبت هذه المراسلة مقابلة جرت بين الخليفة وبين رئيس المكتب العربى فى سور الغزلان تباحث فيها الطرفـان فى شروط التسليم ٠

وفى 27 فبرايـر دخل أحمد بن سالم وكبار رجاله الى المعسكر الفـرنسى ، فى سور الغزلان ، ولكن بلقاسم أوقاسى لم يكن من بين هذه الجماعة ، ولما نقل أبطال المقاومة الى مدينة الجزائر نظم بيجو استعراضا فخما للخيالة تكريمـا لهم فأطلقت البنادق النـار وعزفـت الموسيقى ٠ وهناك أعد له منزل فخـم ليقيم فيه فى انتظار نقله الى الشـرق حسب رغبته ٠

لقد شاءت الاقدار أن يصـل الى الجزائر فى نفس الوقت زعيـم وطنى شجاع آخر ألقى السلاح ، ألا وهو محمد ابن عبد الله « بومعزة » زعيم الظهرة الذى استسلم للكلونيل سانت ارنو ٠

وهكذا انتهت قصة نضال أحمد بن سالم ، وأما لواء المقاومـة فى بـلاد القبائل فسوف يرفعه زعماء آخـرون وتسير وراءهم أجيال أخرى يسلم كـل منها مشعل الحرية للآخر حتى فاتـح نوفمبـر ٠

مظاهر المقاومة وروادها فى الشرق القسنطينى ضد الاستعمار الفرنسى فى القرن التاسع عشر

د· يحيى بوعزيــز

يشمل الشرق القسنطينى ، الرقعـة الجغرافية الواسعة التى كانت تمثـــل بايلية الشرق ، أو بايليك قسنطينــــة ، والتى تمتد من البحر شمالا ألى ما وراء بسكرة وواد سوف فى حوض ريـــغ وايغرغر جنوبا ، ومن الحدود التونسية شرقا ، الى ما وراء اقليم ونوغة وبرج حمزة ، وأعماق جرجرة غربا · ويحوى على جبال البيبان ، وحوض الصومام، وجبال البابور ، وقسنطينة ، وعنابة ، وسوق اهراس ، والسهول العليـــا القسنطينية ، وكتلة جبال الاوراس ، والنمامشة ، وتبسة ، وجبال الحضنة، وحوضها ، وجبال الزاب والزيبان ، واقليم سوف فى حوض واد ريـــغ ، وواحات الصحراء الشمالية الشرقيـة مثل تقرت وورقلة ·

والشرق القسنطينى بصفة عامـــة جبلى فى معظمه ، من حيث المظهـــــر التضاريسى ، تلتقى فى وسطه سلسلتا : جبال الاطلس الشمالية التلية ، وجبال الاطلس الجنوبية الصحراوية عند كتلة الاوراس ، وليس فيه عـــن الاحواض والسهول ، سوى حوض واد الصومام، والسهول العليا القسنطينية التى تمثـل الجزء الشرقى من اقليم الهضاب العليا الجزائرية الى جانب منبسطات تبسة ، وحوض واد سوف ، وريغ ، وسهـول عنابة وسكيكدة · تناله نسبة لا بـأس بها من الرطوبة فى الشتاء لارتفاعــــه وقربه من جبهــة البحـر الشمــاليـــة المتوسطية · ونسبة كثافةالسـكان فيه عالية عبر التاريخ اذا ما قورن بوسط البلاد وغربها ، وذلك لظروف تاريخية ·

والحياة الاقتصادية فيه تعتمد على الفلاحة وتربية المواشى أساسا ، يضاف اليها النشاط التجارى ، والصناعـــة التقليدية التى كانت تدر على أصحابها مردودا لا بأس به فى القرى العمرانية الكبيرة وعلى رأسها مدينة قسنطينة ·

وبعد الاحتلال الفرنسى للجزائـــر العاصمة عام 1830 ، واجه الفرنسيون صعوبات كبيرة فى التوسع الى الغـرب الوهرانى بسبب مقاومة الامـيـر عبـد القادر التى دامت خمسة عشر عاما ،

(*) ألقيت هذه المحاضرة بكلية الشعب فى مدينة قسنطينة يوم 3 مارس 1979 بمناسبة ملتقى · (قسنطينة عبر التاريخ) ·

والى الشرق القسنطينى بسبب عوامل رئيسية ثلاثة :

أولا : الطبيعة الجغرافية التضاريسية الصعبة التى تتمثل فى كثرة الجبـــال ووعورة اختراقها ، والتنقل عبرها ٠

ثانيـــا : بروز الحاج أحمد بـــاي بمقاومته الصلبة والعودة دامت ثمانية عشـر عاما ٠

ثالثـــا : صلابة المقاومة التى أبداها السكان ، وصمودها ، واستمرارهـــا قرابة خمسين عاما ٠

فقد اعتصم بمختلف مناطق الشرق القسنطينى ، معظم المقاومين الجزائريين، البسطاء ، والكبار ٠ وتحولت جبالــه وواحاته الى معقل للكفاح المسلح طوال نصف قرن من الزمن من عام 1830 الى ما وراء 1880 ، وبرز فى هذه الجهـات أبطال وزعماء ، بذلوا النفس والنفيس، فى سبيل انجاح القضـيـة الوطنيـــة التحريرية ، وقادوا جماهير السكان ، الى المعارك الكبرى، أو الجهاد المقدس كما كانوا يعبرون عنه ، ضـد القوات الاستعمارية الغازية ، ولم يبخلوا بتقديم أية تضحية مهما كانت غالية ٠ ولقـــد مرت المقاومة المسلحة فى الشــــرق القسنطينى ، بمرحلتين اثنتين رئيسيتين :

الاولى تدخل فى اطار مقاومة الحـــاج أحمد باي والامير عـبد الـقـادر فى الثلاثينات ، والاربعينات ، والثانيـــة جاءت بعدها وتلتها فى مظـهـر شعبى صرف امتدت الى عام 1880 ٠

أما المرحلة الاولى : فقـد امـتـدت عقدين من الزمن تقريبا ، وتتصف بكثير من التعقيد ، والتشابه ، بسبب الصراع الحاد الذى كـــان قائمـا بيـن رائدى المقاومة : الحاج أحمد باي ، والاميـر عبد القادر ٠ والذى لم يكن ، عـــلى أي حال ، فىصالح المقاومة الجزائرية ٠

فالامير عبد القادر اغتنم فرصـــة ابرام معاهدة واد تافنة أواخـر مـاي 1837 ، ومد نفوذه ، وسيطرتـــه الى الشرق الجزائرى ، وكون لنفسه ثلاث ولايات هي :

– ولاية برج حمزة (برج البويرة)، وأولى عليها البطل المجاهد أحمد الطيب ابن سالم ، وتشمل معظم جبال جرجرة، وحوض الصومام ، وجزءا من جبال البيبان الغربية ٠

– وولاية مجانة وأولى عليها : على التوالى : محمد بن عبد السلام المقرانى، وأحمد بن عمر العيساوى ، والخروبى، وتشمل الجزء الشرقى مـن جبـــال البيبان وسهول سطيف ، والمسيلـــة وجبال الحضنة ٠

– وولاية الزيبان والصحراء الشرقية، وأولى عليها على التوالى : كلا من فرحات ابن سعيد ، والحسن بن عزوز ، ومحمد الصغير بن عبد الرحـمان بن أحمـــد بلحاج ٠ وتشمل كل الواحات الصحراوية الشرقية ، وعلى رأسها مدينة بسكرة قاعدة الولاية ٠

والحاج أحمد باي ركز جهوده بمدينة قسنطينة عاصمة بايليكه حتى انتزعـت

منه فى أكتوبر 1837 فانسحب الى جبال الاوراس ، وأحمر خدو ، وأخذ من هناك ينظم المقاومة ويشن الحملات العسكرية ضد الاستعمار الفرنسى ، وأعوانه وضد خصومه من أعوان الامير عبد القادر • ومن ضمن المعارك التى خاضها معارك جبال أولاد سلطان ، فى ربيع عام 1844 ضد الدوق دومان ابن الملك الفرنسى لويس فيليب وقواته الضخمة • وقد انتصر فيها الحاج أحمد باي انتصارا عظيما بعد معارك دامت ثلاثة أيام • وحكى عنها فى مذكراته ، وتعرض لها كل من محمد بن عبد الكريم القسنطينى فى رسالته الى كاهية الكاف، ومحمد الصغير بن عبد الرحمن فى رسالته الى على بن سالم البوغالى •

غير ان معضلة الحاج أحمد باي تتمثل فى خيانة صهره بن قانة له ، وتآمره ضده ، وخلق متاعب وصعوبات جمة له ، شرحها فى مذكراته وقال عنه بأنه بمثابة امرأة الى جانب فرحات ابن سعيد الذى يلقب بثعلب الصحراء رغم أنه خصم له كذلك • وكان ذلك سببا فى اخفاق الحاج أحمد واستسلامه للفرنسيين فى نهاية ربيع عام 1848 • ومن ضمن من برز للمقاومة خلال هذه المرحلة : الحاج مصطفى صهر الامير عبد القادر ، ومحمد عبد السلام المقرانى، والحسن بن عزوز ، ومحمد الصغير ابن عبد الرحمن ، والشيخ الحسناوى ابن بلقاسم الحنانشى ، والشريف مولاي محمد رفيق الشريف بومعزة ، والشريف سى موسى الاغواطى ، والشيخ بن شابيرة البوسعادى وذلك فى جبال البيبان ، والحضنة ، والبابور ، والاوراس ، ووادى سوف ، والمسيلة، وبوسعادة ، وبسكرة ، وبجاية ، وغيرها • وقام الكثير منهم بنشاط سياسى لصالح الامير عبد القادر ، فراسلوا بايات تونس ، ووزراءها لربط الصلة بينهم وبينه ، وتمتينها وليحيطوهم، علما كذلك بنشاط الحاج أحمد باي وأتباعه وانتصاراته ومن هؤلاء : الحسن بن عزوز ، ومحمد بن الصغير ابن عبد الرحمن ، والشيخ الحسناوى ، ومحمد بن عبد الكريم القسنطينى ، ونشرنا عن ذلك دراستين اثنتين بمجلة الاصالة ، والمجلة التاريخية المغربية التونسية •

أما المرحلة الثانية فطويلة بعض الشىء تمتد الى ثلاثة عقود من الزمن ، وبرز خلالها عدد من الابطال والزعماء ، قادوا ثورات وتمردات ضد الجيش الفرنسي الاستعمارى ، اختلفت فى الظروف ، والوسائل ، والطول ، والقصر ، والضحايا ، والنتائج ، ولكن أهدافها واحدة وهي طرد الغزاة الاستعماريين واستعادة استقلال البلاد وحريتها ، ففى واحة الزعاطشة جنوب شرق بسكرة برز الشيخ بوزيان وابنه، والحاج موسى الاغواطى ، وغيرهم عام 1849 وقادوا ثورة بطولية بلغت الذروة فى التضحية ، والفداء ، رغم العزلة وقلة الامكانيات وضخامة القوات

الاستعمارية التى كانوا يواجهونها ، وكان عددها حوالى عشرين ألفا واستطاعوا أن يصمدوا أكثر من خمسين يوما وكبدوا القوات الاستعمارية خسائر مادية وبشرية كبيرة ٠

وفى الاغواط وورقلة ، وتقرت ،برز الشريف محمد بن عبد الله ورفاقه وخاضوا معارك ضارية ضد القوات الاستعمارية التى قادها بيليسى ، وماكماهون وغيرهما من الضباط والجنرالات الفرنسيين وتمكنوا من الاستقلال بالمنطقة مدة من الزمن فى مطلع الخمسينات ، الى أن اهتدى الفرنسيون للاستعانة بحمزة ولد بوبكر ولدسيدى الشيخ ، وقومه وكافؤوه على عمله بتعيينه خليفة على الجنوب الوهرانى ٠

وفى جبال جرجرة ، والبابور ، وحوض الصومام برز الشريف بوبغلة ، والشريف بوصبع ، وبوحمارة ، والحاج عمر ، وفاطمة نسومر ، وشنوا بجموعهم حروبا طاحنة ضد الجيوش الاستعمارية وفتكوا بالكثير منها وكلفوها ضحايا كثيرة ولم تستطع القوات الاستعمارية أن تتغلغل فى أعماق جرجرة الا بعد أن جند الفرنسيون عشرات الآلاف من الجنود وكلفوا الجنرال راندون بغزو المنطقة فى ربيع وصيف عام 1857 ، بعد أن عادت قواتهم من حروب شبه جزيرة القرم فى شمال البحر الاسود بشرق البحر المتوسط وكان من ضمن المعارك الكبرى التى خاضها السكان معركة ايشريضن يوم 24 جوان 1857 ، قرب اربعاء نايت ايراثن ٠

وفى جبال الحضنة ، والخنقة ، وبريكة ، وبسكرة ، برز محمد بوخنتاش البراكتى ، والشيخ الصادق الرحمانى، أواخر الخمسينات ومطلع الستينات ، وقادوا جماهير السكان ضد القوات الاستعمارية فى معظم جهات الهضاب العليا ، وأبدوا من البطولة والشجاعة ما جعل شعراء الملحون يتغنون بمعاركهم مثل معركة خنق أم حمام ٠

وبرز فى هذه المنطقة كذلك ابراهيم ابن عبد الله ، وسى الفضيل بن على، خوجة الباشاغا سى سليمان ولد حمزة ولد سيد ىالشيخ وحفزوا السكان على الثورة الحمل السلاح عام 1864 ، امتدادا لثورة أولاد سيدى الشيخ بالجنوب الوهرانى ، وثورة الزواغة وفرجيوة بالبابور شمال قسنطينة ٠

وفى عام 1871 برز المقرانى والحداد بثورتهما وقادوا جماهير السكان الى المعارك فى جبال البابور ، وبوطالب ، وجرجرة ، وحوض الصومام ، وونوغة، والحضنة ، وجبال الاوراس ، وفى واحات أعماق الصحراء الى عين الطيبة وخاضوا أكثر من 340 معركة كبيرة ، فضلا عن المعارك الصغيرة ، والجانبية، ودامت ثورتهم قرابة عام كلفت الفرنسيين ضحايا كبيرة فى الارواح والعمران والامكانيات الاقتصادية ٠

وفى عام 1876 اندلعت الثورة فى واحة العمرى بزعامة الشيخ محمد يحيى، والمقدم الشيخ عايش الرحمانى ، وأبدى السكان بطولة وشجاعة رغم العزلة وانعدام الامكانيات المادية والاسلحة ٠ وبعد ثلاث سنوات اندلعت ثـــورة الاوراس الغربية عام 1879 بزعامة الشيخ محمد أمزيان ، وتحولت جبال وشعاب المنطقة وقراهـا الى معاقـل للثـــوار والمجاهدين الذين ضحوا بكل ما لديهم فى سبيل انـجـاح قضيتـهـم وعانوا ما لا يتصور من المشـاق والاتعـــاب والمـــآسى ٠

مميزات وخصائص هذه الثورات :

هكذا كان الشرق القسنطينى برقعتـه الواسعة مسرحا لعدد كبيـــر مـــن الثورات ، والتمردات دامت كما ذكرنا نصف قرن من الزمن وتتصف بالمظاهر التاليـــة :

أولا : ان أحداثها كثيرة ومكثفة فى العقديـن الاوليـــن : الاربعينـــات ، والخمسينات ، وفيما بعد ذلك أخذت تقل، وتتقلص نتيجة للضغط الاستعمـــارى الشرس ، ماديا وبشريا ، وتطبيقـــه سياسة القـتـل والطـرد الجـمـاعى والتجويع ، والتجريد من الامـــلاك العقارية والمنقولة ٠

ثانيا : ان زعماءها كانت تنقصهـم فكرة التخطيط ، وتعوزهم الاسلحـــة الكافية ، والضرورية ، والمتطورة على عكس عدوهم ٠ ولم يكونوا يملكون الا الحماس الدينى والوطنى كسلاح معنوى، والفؤوس والعصي ، والخناجر ، وبعض بنادق الصيد ، كسلاح مادى ٠ وهي ضعيفة الفعالية كثيرا ٠

ثالثـا : لعب القادة الدينيون دورا بارزا فيها خاصة الرحمانيون الــذين كانت الثورة ضد الاستعمار الفـرنسى الاجنبى ، فطرية فيهم ، ويرتمون فيها أفواجا وجماعات دون تردد ، بجماهير اتباعهم الكثيرين ، فى طول الجزائـــر وعرضها ، خاصة الشرق القسنطينى ، أمثال : الشيخ بوزيان بالزعاطشـة ، وبن عزوز فى واحة البرج ، والحداد وعزيز فى صدوق ، وبن قيالة ومولاي الشقفة وعمر برعرعور ، فى البابور ، والحاج عمـر ، والجـعـدى فى ذراع الميزان ، وبن التـــواتى فى مقـــاوس وبريكة ، وسى الصديق فى بلزمة ، وسى الصادق فى الخنقة وبسكرة ، والشيخ عايش فى العمرى ، والشيـخ محمد امزيان فى الحمام بالاوراس ، وهكـــذا ٠

رابعـا : أن هذه الثورات فى الشرق القسنطينى ، وان ارتبطت بأســـماء أشخاص ، وزعماء عائـــلات كبيـرة أوروستقراطية فى معظمها الا أن الذين اكتووا بنيرانها ، ولعبوا الادوار البارزة فيها ، هي الطبقات الشعبية الكادحـة من الفلاحين والعمال ، شيوخا وشبابا، رجالا ونساء ٠ وهذه الطبقات الشعبية الكادحـــة لم تكن لها مصالـــح أو امتيازات تدافع عنها دفعتها الى هـذه الثورات ، وانما هو الحافـز الوطـنى الصرف الذى كان ممزوجا بالعامـــل الدينى فى تلك الفترة ، وهذا على عكس

ما ادعى ويدعى الكتاب الفرنسيون الاستعماريون .

فقد حرص هؤلاء الكتاب ومعظمهم من الضباط والجنرالات ، على نعت هذه الثورة بأسباب اقتصادية ، واجتماعية ، ليفرغوها من محتواها وأهدافها الوطنية ، وحاولوا أن يصلوا الى النتائج التالية :

أولا : ادعوا انالجزائريين عنصريون متعصبون دينيا وعرقيا ، ولا يستطيعون أن يتعايشوا مع الاجانب الاوروبيين المسيحيين، ولذلك كانوا يثورون باستمرار ضدهم وهو مصدر ثوراتهم المتعددة ضد الفرنسيين والدليل فى نظرهم هو كثرة رجال الدينالذين يرتمون فى هذه الثورات ويقودونها وهي دعوى باطلة لان الجاليات الاجنبية الاوروبية المسيحية قبل عام 1830 كانت تقطن بالجزائر ، فى أمن وبحبوحة من العيش ، ومنها الجالية الفرنسية التى تمركزت بساحل القالة وعنابة منذ تأسيس مراكز صيد المرجان بها فى منتصف القرن 16 م .

ثانيا : ادعوا ان الجزائريين لا يثورون الا عندما يشتد عليهم الفقر ، والجوع ، والعرى ، والخصاصة ، أما عندما تتحسن أحوالهم الاقتصادية وينمو ثراؤهم فانهم يخلدون الى الهدوء والسكينة ويرضون بحكم الاجانب ، ومنهم الفرنسيون . وهذا يعنى فى نظرهم طبعا ، ان الجزائريين لا يثورون الا من أجل بطونهم الجائعة ، وأجسامهم العارية . أما الفكرة الوطنية فبعيدة عنهم . وهذا ادعاء استعمارى بحت وخطير تبناه معظم من كتب عن ثورات الجزائر التحريرية فى القرن الماضى ، والحالى ، أمثال : لويس رين ، وروبين، وشاتولى ، وولسانى ، وهيربيون ، وبول أزان ، وفوانو ، وفيرو ، وترومل‍ى، ولاباسى ، ومارقون ، وهمزى قارو ، وبيليسى ، وشارل ريشارد ، وأوقيستان بيرنارد . وسويى ، ولالمان ،وبريبوا ، وقورشود ، وغيرهم .

وحتى من كتب عنها فى القرن الحالى ممن لا يزالون أحياء ، لم يتخلوا عن هذه الفكرة ، وحذوا حذوها أمثال جوليان ، وأجورون ، ونوشى ، وبرونان . ولاكوست .

ثالثا : ان معظم هذه الثورات حسب زعمهم ليست وطنية جزائرية ، لانها اندلعت بسبب ايحاءات ، وايعازات من الخارج ، من طرف قوى أجنبية فاتهموا المقرانى والحداد ، ومحيى الدين ابن الامير عبد القادر ، بعمالتهم للبرونسيين الالمان ، والدولة العثمانية، واتهموا الشريف بوشوشة ، وبن ناصر ابن شهرة ، والشريف محمد بن عبد الله ، بعمالتهم للسنوسية ، واتهموا آخرين بعمالتهم للانجليز المنافسين لهم فى النشاط الاستعمارى ، وهي نفس المواقف والادعاءات التى حاول الفرنسيون أن يلصقوها بثورة أول نفمبر 1954 عندما ادعوا أن ثوارها (فلاقة) وقطاع طرق ، خارجون عن القانون ، دفعوا من جهات أجنبية ليقلقوا أمن البلاد والسكان . ووضعوا مشروع قسنطينة الاقتصادى ليقضوا عليها علىأساس أن أسبابها اقتصادية . ولكن الثورة سفهت أحلامهم ، وكذبت

ادعاءاتهم ، واثبتت للعالم أجمع أن قضية الاستقلال الوطنية الكبرى ، هي أهم أسباب ثورة أول نوفمبر الكبرى عام 1954 وكل الثورات الاخرى قبلها طوال القرن التاسع عشر . وقد لعب الدين فيها دورا بارزا باعتباره احدى الركائز الكبرى للشخصية الوطنية الجزائرية ، ولا ضير فى ذلك بل انه من مظاهر الفخور والاعتزاز لكفاحنا الوطنى .

ومما تجدر ملاحظته هنا هو أن السلطات الاستعمارية ، خلال عهود ملكية جويلية (1830 ـ 1848) والجمهورية الثانية (1848 ـ 1852) والامبراطورية الثانية (1852 ـ 1870) اتبعت سياسة استمالة العائلات الارستقراطية اليها ، واسناد وظائف كبيرة لزعمائها مثل القائد ، والآغا ، والباشاغا ، والخليفة، لتتمكن بواسطتهم من اخضاع السكان اليها بسهولة ، ودون تكاليف وأتعاب كبيرة . وبقيت على هذه السياسة حتى منتصف عقد الستينات ، ثم أخذت بعد ذلك تغير من سياستها ، واصبحت تميل الى تطبيق الحكم المباشر والاستغناء عن وساطة هذه العائلات الكبيرة وزعمائها بعد أن قضت حاجتها ونالت وطرها منها ومنهم .

فعمدت الى التقليل من نفوذها ، وتقليم أظافرها وكبرياء زعمائها ، وانزلتهم من مركز الخليفة الى الباشاغا ، ومن الآغا الى القايد وهكذا وهو ما فعلته مع زعماء عائلة أولاد مقران بمجانة، وزعماء أولاد سيدى الشيخ بالبيض ، وأولاد بن عاشور ، وبن عزالدين فى الزواغة وفرجيوة وغيرهم . وهو مصدر ثورات البعض منهم .

وقد ألح الكتاب الفرنسيون كثيرا على هذا الجانب ، وعلى رأسهم لويس رين ليؤكدوا الطابع الشخصى لثورتهم، وابعاد العنصر الوطنى عنهم ولكننا بينا أن الجماهير الشعبية هي التى لعبت الادوار البارزة والرئيسية وهي ليست لها مصالح أو امتيازات تدافع عنها ، وانما الفكرة الوطنية الصميمة هي التى حفزتها الى ذلك ، وهي فكرة ممزوجة بالروح الدينية التى هي وطنية كذلك .

أحداث البابور والشمال القسنطينى فيما بين 1840 ـ 1871

فى الوقت الذى كان فيه الحاج مصطفى صهر الامير عبد القادر ، والحسن بن عزوز ، وأحمد بلحاج ، يقاومون القوات الفرنسية ، فى جبال المسيلة والحضنة ، وبوسعادة ، وسهول سطيف ، البرج ، ومجانة ، عام 1840 ثار سكان منطقة سكيكدة ، وهاجموا قرية الحروش ، وهددوا طرق المواصلات بين قسنطينة والموانى الساحلية ، واضطر الفرنسيون الى اخلاء معسكر عين الترك غرب سطيف ، ومارس الجنرال قالبوا : تخريب منازل السكان، ومزارعهم بصفة جماعية .

وثار سكان أولاد تبان فى جبال بوطالب بزعامة الشيخ ساعد التبانى ، وأولاد سيدى أحمد ، بريغة القبالة ، وأولاد بنى عبد النور غرب سطيف ، وهاجموا القوات الفرنسية التى كانت

تحارب جموع الحاج مصطفى واتباعه، وجموع مولاي الطيب بعموشة ·

وفى عام 1846 برز مولاي محمد فى غبولة ببنى شبانة على الضفة اليمنى لواد الصومام ، وكان من رفاق الثائر بومعزة فى جبال الونشريس وحوض الشلف · فاستقر لدى أولاد صالح بجبال البابور ، وقاوم نفوذ وسيطرة بوعكاز بن عاشور فى فرجيوة ، وهاجم بنى ورزالدين ، وتنقل بين القرى والمداشر ، واصطدم بزعماء عائلة ابن عبيد ، وعائلة ابن عاشور المتعاونين مع جيش الاحتلال ، ووقف الى جانبه الشريف سى موسى الاغواطى الذى أسس زاوية ببنى يعلى ، ونظموا عدة هجومات ضد القوات الفرنسية فى السهول العليا وخاضوا معارك عدة فى جبل عنينى وبنى فوغال ، والعلمة ، وصدراتة ، وأولاد نابت ، وجبل مغريس وثنية طكوكة ، وجيجل ، وعموشة ، وبنى عفيف ، وبنى وجهان ، وبنى يعلى ، وبنى ورتلان ، وبنى عيدل ، وبنى جماتى ، وبنى عباس ، وأولاد سيدى ابراهيم ·

وخلال اندلاع ثورة سكان واحة الزعاطشة عام 1849 ، اغتنم سكان البابور الفرصة ، وحملوا السلاح وثاروا ضد القوات الفرنسية واعوانها فامتدت اليهم ثورة الشريف بوبغلة التى انطلقت فى بنى مليكش عام 1851 بجبال جرجرة · وبرز الشريف بوصبع فى هضبة القل ليدعم ثورتهم ، وثورة بوبغلة ورفاقه ، واضطر الجنرال توسكى ، وماكماهون ، وسانت ارنو ، أن يزودوا قوات ضخمة لمواجهتهم ·

ولم تنته أحداث بوبغلة ، وبوصبع، فى البابور ، حتى اندلعت أحداث أخرى فى ربيع عام 1862 · وامتدت الى العام الموالى ، وخاض الثوار معارك عديدة فى خراطة ، وواد البرد ، ومجاز النوق، وخلف الله ، وجبل منتانو ، وعين سلطان، وتاقربوست ، وراجت اشاعات بين السكان بأن الفرنسيين يسعون لطردهم من املاكهم واراضيهم ليملكوها للمعمرين الاوروبيين القادمين من أوروبا · كما يسعون لتجنيد شبابهم وابنائهم فى الجيش الفرنسى · وقويت هذه الاشاعة كثيرا بعد أن تم انشاء مركز تاقيطونت العسكرى ، فثاروا وهاجموه ، وسقط ضحايا عديدون وكثيرون من الطرفين ·

وفى صيف عام 1858 اندلعت أحداث الثورة مرة أخرى فى هضبة جيجل ، والقل ، وحوض واد الكبير ، بعد أن قامت السلطات الفرنسية بتمليك غابات الفلين (الفرنان) للمعمرين الاوروبيين، فأشعل الثوار النيران فى الغابات واحرقوا حوالى 550 ألف شجرة فلين · ورفضوا دفع الضرائب للسلطات الاستعمارية ، وجدوا فى اقتناء الاسلحة والبارود · واضطر الجنرال قاستو : *Gastu* أن يهاجمهم بقوات ضخمة ، وأن ينشىء مركز الميلية العسكرى على الضفة اليمنى لواد الكبير ·

ومع ذلك لم تتوقف ثورة سكان البابور، فاستغلوا رحيل القوات العسكرية الفرنسية الى ايطاليا للمشاركة فى الحروب التى اندلعت هناك عام 1859 ، وجدوا فى اقتناء الاسلحة والبارود ، وهاجموا الاسواق التى يرتادها

الفرنسيون ، وقطعوا خطوط الهاتف بين قسنطينة وجيجل أربع مرات . وساءت الاوضاع كثيرا فى الزواغة وواد الكبير وفى دائرة جيجل مرة أخرى وخاض الثوار ضد الجنرال ديفو ، وقواته التى تبلغ عشرة آلاف جندى معارك كثيرة وضارية فى العروسة ، وبوطويل . وينتمون الى أولاد على ، وبنى عيشة، وبنى حبيبى ، وبنى يدر ، وبنى فتاح ، وبنى مسلم ، وأولاد عواط وبنى طوفوط وأولاد عيدون ، وعرب تاسقيفت ، وغيرهم .

ثورة سكان الزواغة وفرجيوة وأسبابها عام 1864

كانت منطقة فرجيوة تشتهر بعائلة بوعكاز بن عاشور التى نزحت اليها من واد زناتى خلال عهد الاتراك ، ولعب زعماؤها دورا بارزا فى احداثها وتولى الحاج بوعكاز بن عاشور مشيخة فرجيوة من طرف الحاج أحمد باي عام 1834 ، واشترك معه فى حروبه ضد الفرنسيين ، واتسع نفوذه حتى شمل كل مناطق فرجيوة ، وساحل البابور ، وبنى فوغال ، وأولاد عمران ، وأولاد سيدى على ، والرواشد وسواحل جيجل .

وبعد احتلال الفرنسيين لمدينة قسنطينة عينه المارشال فالى شيخا على فرجيوة تحت امرة الخليفة بلحملاوى . واشترك فى عملية استكشاف الطريق بين قسنطينة وسطيف لقافلة فالى التى ستعبر مضيق البيبان فى أكتوبر 1839 ، وتآمر على رئيسه بلحملاوى ولفق له تهمة فعزله الفرنسيون ونفوه مدة الى تونس ، على أمل أن يحل فى مكانه .

وفى عام 1850 أقتيد الى قسنطينة ، ورافق الجنرال سانت ارنو فى حملته العسكرية على بلا دالبابور فى العام الموالى ، بين قسنطينة ، والقل ، وجيجل . واستعمل كأداة لاخضاع السكان ، ومنح نيشان الشرف بعد عودته واذن له بالذهاب الى الحج لعدة شهور .

وخلال السنوات التالية اشترك مع الفرنسيين فى كل العمليات العسكرية التى شنها الجيش الفرنسى على هذه المنطقة حتى عام 1861 ، ثم تغيرت الاوضاع عليه ، وأصدر الجنرال ديفو قرارا فى شهر نوفمبر بابعاده من فرجيوة الى قسنطينة وقسمت ناحية الى منطقتين اثنتين : فرجيوة ، وعين عليها سى أحمد خوجة ، والبابور والدهامشة ، وعين عليها سى أحمد بن الدراجى ، وكلاهما من أقاربه وكان ذلك بداية لانهيار مركزه ونفوذه وضعف شخصيته فأخذ يميل هو الآخر الى الثورة .

أما الزواغة ، فقد اشتهرت بها عائلة أولاد بنى عز الدين الذين كانوا يتولون مناصب فى عهد الاتراك واشتهروا بعد الاحتلال الفرنسى باثارة الاضطرابات . وعندما غزا الجنرال بيدو مناطق بنى قايد ، وبنى خطاب ، وأولاد عيدون ، عام 1847 تمهيدا للتوسع الاستعمارى فى البابور وضع أولاد بنى عز الدين أنفسهم تحت تصرف السلطات الفرنسية، وبرز بورنان كزعيم مشاغب ، وحاول أن يستغل أحداث ثورة الزعاطشة لاثارة السكان ، فاقترح بن عاشور على السلطات الفرنسية أن تعينه قائدا على المنطقة فأخذت برأيه ، واعدت مشروعا

واسعا لاحتواء زعماء أسرة بنى عز الدين فعين بولخراص قائدا على موية، وبنى تليلان ، وبنى ابراهيم وعينت الشيخ محمد بن عز الدين قائدا على الزواغة، وأولاد عسكر ، وأولاد يحيى وأولاد عوات ، وعينت بورنان قائدا على حوض واد الكبير .

واشترك بورنان فى حملة سانت ارنو الكبيرة عام 1851 مثل بنى عاشور . واظهر حماسا فى محاربة السكان بواد انجة ، وفج باينان والودية وفج العربة، وكاران ، وفج منازل ، والعروسة واشترك مع ماكماهون فى غزو حوض واد الكبير عام 1852 ، وبقى على اخلاصه حتى عام 1858 ثم تغيرت الاحوال والاوضاع ضده ، فاتهم باشعال الحرائق فى غابات الفرنان ، ومهاجمة الشيخ بوطمين فى الضفة اليسرى لواد الكبير ، وبقطع الهاتف بين جيجل وقسنطينة ، وقتل العمال الثلاثة بالميلية، وتشجيع الناس على الثورة وحمل السلاح كما ادعى فيرو ذلك .

وقامت السلطات الفرنسية باعداد ملف كبير ضده ، وصفت معه الحساب فى ربيع عام 1860 ، اذ اتهمه الجنرال ديفو بتحريض الناس على عدم دفع الضرائب ، ومهاجمة قواته فى سيدى معروف ، وبادر باعتقاله هو وابن أخيه عز الدين بن الشيخ محمد ، وقام بتصفية نفوذ أسرته كلها ما عدا اثنين وهما : بولخراص الذى أبقى قائدا على موية منذ تعيينه عليها عام 1850 والحاج بن عز الدين الذى عين قائدا على بنى يدر فى جيجل منذ عام 1859 وابقى عليهم.

وقد قدم بورنان وابن أخيه عز الدين الى مجلس حربى ، ونفى الى تونس حيث بورنان ، وسمح لولديه : علاوة، وعبود ، بالعودة الى الجزائر .

اسباب اندلاع ثورة الزواغة وفرجيوة :

لقد ساد الهدوء منطقة الزواغة وفرجيوة حتى مطلع عام 1864 ، ثم اندلعت فيها الاحداث وارتمى فيها كل أفراد أولاد بن عز الدين ، وأولاد بن عاشور ، الذين استطاعوا ان يلتحقوا بها ، ومن أهم أسباب هذه الثورة حسب رأي شارل فيرو :

أولا : تأثير ثورة أولاد سيدى الشيخ التى اندلعت بالبيض ، وستيتن بالجنوب الوهرانى ، وانتشرت أحداثها فى معظم أنحاء الجزائر الغربية والوسطى ووصلت تأثيراتها الى شرق الجزائر القسنطينى .

ثانيا : تأثير ثورة على بن غذاهم بتونس التى اندلعت ضد الباى الذى كان **ألعوبة فى يد القناصل الاجانب** ، ووصلت الى الشرق القسنطينى عبر الحدود الشرقية خاصة مدينة الكاف ، التى كان يستقر بها عدد كبير من اللاجئين الجزائريين المنفيين ويقومون بالدعايات الواسعة ضد الاستعمار الفرنسى ويحثون على محاربته .

ثالثا : بروز عدد من رجال الدين، والمقدمين الرحمانيين بالمنطقة قاموا بحث الناس على حمل السلاح والثورة ضد المستعمرين الفرنسيين واعوانهم ، ومن بين هؤلاء :

ـ الشيخ الحاج حجوج بميلة : الذى ادعى للناس بأنه تلقى تعليمات بالحجاز

فى السنة الماضية من طرف نائب السلطان العثمانى ، بأن يقوم بالثورة ضد الفرنسيين ، ويدعو السكان لها .

ـ الشيخ بوقرين ، فى أولاد عبد النور بقرية كارب ، الذى سعى هو الآخر للقيام بالثورة .

ـ الشيخ مولاي محمد مقدم الطريقة الرحمانية بالزواغة الذى كان له أنصار كثيرون فى مدينة قسنطينة نفسها ، فحثهم جميعا على الثورة وحمل السلاح فى الاجتماع الذى عقد بمنزله يوم عيد الفطر لعام 1281 (10 مارس 1864) وأكد لهم بأنه بعد ثمانية أيام ستندلع الثورة ، ووفى بوعده ، وانطلقت حوادث العنف فعلا يوم 18 مارس 1864 بالهجوم على برج القائد حمو بقرية الزغاية الذى خلف بورنان فى منصبه . وعقد اولاد ابن عزوز وأولاد بن عاشور عدة اجتماعات لتنسيق العمل رغم الاختلافات التى كانت بينهم سابقا .

ورغم قيام السلطات الفرنسية باعتقال المقدم مولاي محمد ، وايقاف بوعكاز بن عاشور فى قسنطينة ، والقائد بولخراص ، وعبود وعلاوة ، فان معظم أولاد بن عز الدين القاطنين بقسنطينة التحقوا بالثورة ، ولحق بهم اخوانهم المنفيون بتونس خلال شهر جوان ، وحدثوهم عن أخبار ثورة بن غذاهم ، واشاعوا بينهم بأن سفنا حربية محملة بالسلاح هي فى طريقها الى تونس من القسطنطينية ، وان السلطان العثمانى عبد العزيز نفسه سيصل الى الجزائر قريبا ليحررها من الغزاة الفرنسيين الاجانب .

وقد تصدى الثوار لقوافل الجنرال بيريقو التى كانت تقدر بحوالى عشرة آلاف جندى وهاجموه فى برج القانون قرب واد الحليب وأرغموه على نقل معسكره الى أطراف واد الكبير ليدافع عن نفسه وعن قواته ثم استدعى الى منطقة الحضنة وبوسعادة ليواجه أحداث ثورة أولاد سيدى الشيخ التى وصلت الى هناك ، فاستخلف فى مكانه القائد بن حبيلس كبديل للقائد حمو الدراجى صهر بوعكاز بن عاشور ولكنه واجه صعوبات كبيرة لان الناس رفضوا طاعته ، وامتنعوا عن دفع الضرائب له، وحاولوا اغتياله ، وارغموا عمال طريق شعبة الآخرة على التوقف عن العمل ، وخربوا محطة العمل ، وهاجموا زمالة قائد أولاد صالح بعموشة ، وبرج تاقيطونت العسكرى وبرج القائد حمو أو عاشور ، والقائد السعيد بن عبيد فى ذراع القائد ببنى سليمان وساحل قبلى ، ومعسكر أوقاس على ساحل بجاية وخربوا قرية الدهامشة، واضطر الفرنسيون أن يجندوا قوات أخرى بقيادة الكولونيل أوجورو ، والجنرال بيريقو الذى عاد مرة أخرى الى البابور بعد أن ساءت الاوضاع كثيرا ، ولم تنته حوادث الثورة هذه حتى صيف عام 1865 .

ثم ساد الهدوء مرة أخرى منطقة البابور لغاية عام 1871 ، حيث اندلعت الثورة مرة أخرى ، بأولاد عيدون فى الميلية ، فى شهر فيفرى ، وبمعظم مناطق البابور بعد ذلك وحمل السكان السلاح بصورة جماعية بعد اندلاع

ثورة المقرانى والحداد بمجانة وصدوق فى مارس وأبريل ولعبوا دورا بارزا فيها بقيادة بومزراق ، وعزيز الحداد، وعمر بوعرعور ، وابن فيالة والحسين مولاي الشقفة ، وغيرهم ، وسجلوا صفحة مشرقة ومشرفة فى تاريخ المقاومة الوطنية الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسى فى هذا القطاع القسنطينى ودامت الحوادث الى أواخر شهر أكتوبر

مصير زعماء ثورة 1864 و 1871

لقد واجه الفرنسيون بقسوة وشدة الثوار فى كلا المرحلتين فقد قبض على بوعكاز بن عاشور ، وأودع السجن بقصبة قسنطينة من 11 ابريل الى شهر أوت 1864 ثم نفى الى مدينة بو جنوب فرنسا الى أن صدر عليه العفو عام 1865 فعاد الى الجزائر العاصمة وفرضت عليه اقامة جبرية هناك حتى عام 1870 ثم سمح له بالعودة الى قسنطينة ٠

أما أولاد بن عز الدين فقد نفوا الى مدينة كورتى *Corte* بشرق جزيرة كورسيكا ، وتوفى هناك عبود ، وسمح لبولخراص ، والحاج ، بالاتجاه الى تونس للالتحاق بأبناء عمومتهم المنفيين هناك منذ عام 1860 ٠

وحاكموا عددا من ثوار 1871 ، وصادروا أملاكهم ونفوا البعض منهم الى نوميا بكاليدونيا الجديدة ، والبعض الى فرنسا وكورسيكا والبعض التى كايان بأمريكا الجنوبية ٠

هكذا بهذا الاسلوب تخلص الفرنسيون من أولاد بنعاشور ، وأولاد بن عز الدين عام 1864 ، ومن الثوار الآخرين عام 1871 ، وهو نفس الاسلوب الذى اتبعوه بعد مع العائلات الاخرى كعائلة المقرانى بمجانة ، وعائلة أولاد سيدى الشيخ بالجنوب الوهرانى ٠

تلك هي باختصار مظاهر المقاومة بالشرق الجزائرى وأولائك هم بعض روادها ٠ وتلك هي خصائصها ، وذلك هو رأي الفرنسيين وموقفهم منها ، ومع ان الفرنسيين اهتموا بتسجيل أحداثها خاصة شارل فيرو ، ولويس ريسن ، وروبين وشاتوليى ، الا أن ذلك تم من وجهة نظرة استعمارية ، ولابد من البحث من جديد على وثائق جديدة عنها واعادة صياغتها من وجهة النظرة الوطنية الامينة وهي مهمة الباحثين الجزائريين فى جامعات الجزائر الصاعدة ٠ والارشيفات الاجنبية خاصة : الفرنسية ، والتركية ، والتونسية ، والمغربية ، تزخر بكثير من هذه الوثائق وتنتظر من يزيل عنها غبار النسيان والاهمال وينقذها من الارضة ، والتلف ٠

مذكرة حول اقليم قسنطينة (2)

ترجمة وتعليق
ناصر الدين سعيدونى

قوانين الملكية :

سوف نعالج فيما يلى أوضاع الملكية وقوانينها كما كانت فى الفترة السابقة وكيف أصبحت الآن ، وذلك قبل التعرض الى مداخيل بايلك قسنطينة .

ففى هذا الشأن كانت أراضى البايلك مقسمة الى ثلاثة أصناف مختلفة حسب أوضاع ملكيتها .

ـ الصنف الاول : يشمل الاراضى التى سلمت للقبائل مقابل تسديد رسوم العشور والحكور عليها .

ـ الصنف الثانى : أراضى الملك التى تعود ملكيتها لبعض الافراد ولا يؤخذ عنها سوى حق الزكاة .

ـ الصنف الثالث : أملاك تعود للاوقاف فهي ملكيات موقوفة على المساجد . وقد اكتسبت هذه الاصناف الثلاثة من الاراضى أوضاعها الخاصة كما يلى :

I ـ الاراضى التى كانت تقيم عليها عشائر . تعود للبايلك وليس لتلك العشائر الحق فى تملكها ، بحيث يمكن تحويلها من مكان الى آخر أو طردها منها حسب رغبة البايات ، ومع ذلك فان تلك العشائر كانت ملزمة بدفع رسوم الحكور وحق الزكاة .

وقد كانت هذه الرسوم فى عهد الحاج أحمد باي يقدر بـ IO قروش (ذات القيمة المعادلة لـ 2،5 ف) عن كل جابدة ، ولا يستثنى من ذلك سوى قبائل الدواير التى كانت تساهم بالفرسان ، التى كانت لا تدفع من الحكور الا ما قيمته I2 ريالا .

أما الآن (فى عهد الادارة الفرنسية) فقد حدد الحكور بـ IO فرنكات للجابدة الواحدة وبقى العشور كما هو فى عهد أحمد باي وهو صاع من القمح وصاع من الشعير وحملين من التين عن كل جابدة .

وعلى كل فان هذا النوع من الضرائب عن الاراضى المكتراة كان يخضع لاستثناءات من حيث نوعية الضريبة ومقدارها ، وذلك حسب وضعية القبائل التى كانت تسدد هذا النوع من الضرائب بحيث نجد الآن أو فيما مضى عشائر لا تساهم الا بمقدار معين من كل هذه

الرسوم ، فالشرفة المنتمين الى قيادة بنى عيسى كان يسمح لهم بالاقامة فى فصل الصيف بسفوح جبل الوحش وممارسة الزراعة بمحاذاة سهل عنابة (1) فى فصل الشتاء مقابل أداء رسم مقداره 700 فرنك ، وهكذا نرى ان هذا النوع من الضرائب لم يمكن أن يطبق على كل القبائل كما لم يكن يشملها جميعا ٠

2 ـ الاملاك الخاصة :

ما دام الحكور يدفع مقابل كراء الارض فان الاملاك الخاصة لا يؤخذ عنها سوى حق الزكاة أو رسوم العشور ٠

وأراضى البايلك الآن تستغل من طرف مالكيها ، أو يعهد الى العمل بها لاشخاص آخرين عن طريق الكراء ويعرف فى هذه الحالة بالعزلة أو العزل ٠ وينال مالك الارض فى حالة استئجارها أربعة أخماس المحصول ، ويترك الخمس الباقى للمستأجر الذى يعرف بالخماس ، شريطة ان يساهم صاحب الارض بالزريعة والمحراث والثيران والبغال الخ ، أما مصاريف الحصاد وتهيئة الارض للحرث الخ فيتقاسمها المالك مع الخماس بنفس النسبة التى يحصل عليها كل منهما ٠

وتعود ملكية عدد ضخم من العزل المجهزة ، بعتاد كبير الى البايليك مباشرة ، فهو يتصرف فيها باعطاء قسم منها لكبار موظفى البايليك مقابل أجورهم ، أو على سبيل المكافأة والترضية ٠ أما الباقى من هذه العزل فكان يترك للعشائر والدواوير تستغله مقابل أداء رسوم الحكور والعشور ، مع القيام بخدمة بعض الاراضى لفائدة البايليك بعد أن يوفر لهم رجال البايليك الزريعة والبغال والبقر الخ ٠٠٠

أما مهمة الاشراف على عزل البايليك، والسهر على حسن استغلالها فكانت من نصيب قائد الدار ، فهو يسدد مصاريف الخماسة ويراقب جمع المحاصيل والاقوات فى مخازن الدولة ، ويشرف على بيع الفائض منها والذى لا يكون منزل الباي فى حاجة اليه لصالح خزينة البايليك ٠

فبهذه الصلاحيات أصبح قائد الدار له حق التصرف الحر فى استغلال الملكيات الخاصة بالبايليك المعروفة بالعزل والتى كانت تحتوى على ثروات وعتاد ذات قيمة معتبرة من خيل وبغال وغنم وبقر وكميات من الحبوب الخ وذلك عندما تم الاستيلاء على قسنطينة من طرف الجيش الفرنسى ٠

أما اليوم فان تلك العزل لم تعد تضم أي شيء من هذا العتاد ، وذلك حسب الاقوال التى أدلى بها الموظفون المعروفون باسم الخليفة ، بعد أن أصبحت هذه العزل مصنفة ضمن الصنف الاول من الاراضى ، مما ترتب على هذه الوضعية ترك ذلك العتاد للعشائر تستغله مقابل رسوم الحكور والعشور فقط ٠

وبعد أن انقطع أحمد باي منذ 1830 عن تقديم ما كان مطالبا به من المواشى (بقر وخرفان) فى شكل ضريبة تخص داي الجزائر ، ولم يعد يحتاج منهــــا سوى سد استهلاكه الخاص وما يفى بتموين فرق جيشه الحارس ، أصبــح ما يملكه البايليك بهذه العزل يبلغ 3000 بغل و 600 حصــــان ، و 5000 جمـــل و 14000 صاع من القمح والشعير (1) ٠

وقد وضعت هذه العزل فى المـــزاد العلنى فى شهر ديسمبر من عام 1839 ، فارتفعت قيمتها فى هــذا المـــزاد الى 250،000 فرنك ، وبذلك لما تدره من رسوم العشور المقدرة وحدها لنفس السنـــة بـ 14969،95 ف ، مع ان عوائد بايليك قسنطينة فى نفس السنة 1839 لم تتجاوز قيمتها 183،938 ف ٠

3 ـ امــلاك الاحباس :

يندرج تحت هذا الصنف تلك الاملاك التى أوقفت على المساجد والتى تمتاز بأنها غير خاضعة للضرائب والالتزامات الماليـــة ٠

ويعود مصدر هذه الاملاك الى عطايا بعض الاشخاص الاتقياء الذين يشترطون فيما أوقفوه على المساجد أن تخصص عوائده على الصدقات أو تدخـــل فى هدايا الحرمين الشريفين بمكة والمدينة، وقد كان هؤلاء الاشخاص فى الغالــب مدفوعين الى هذه الاجواء بفعل جشــع البايات وطمعهم ٠

ويسير شؤون هذه الاملاك العقارية من أوقاف وحبوس ، المقدم ، فهو مكلف بجمع عوائدها المالية واتفاقهـا عـلى ما تحتاجه المساجـد مـن اصــلاحات ضرورية ، وما تتطلبه بعض الزوايـــا من أمور العبادة والصيانة ، مع توزيع بعض الصدقات ، بالاضافة الى تصرفه فى البناءات التابعة للمساجد داخـــل مدينة قسنطينة ٠

وما دامت هذه الاملاك الموقوفة تصبح غير قابلة للحيازة من جديد من مجـرد تسجيلها فى دفتر أوقافا لمساجد ، فان كثيرا من الاشخاص تعمدون الى وضع ما يمتلكونه ضمن الاوقاف المسجلـــة شريطة أن لا تصبح أملاكهم داخلة فعلا ضمنا لاوقاف الا بعد انقراض عقبهم ٠

عوائــد البايليـك :

التزامات المالية التى كان يحصل عليها البايليك ، على شكل عوائد مؤخوذة من القبائل القاطنــة بأراضى البايـــليك ، كانت تتنوع حسب وضيفة القبائل التى تساهم بها ٠

فهذه العوائد لم تكن موحدة أو قارة، فهي بالنسبة الى رسم الحكور تقـــدر بـ 10 قطع نقدية لبعض القبائل ، بينما بعض القبائل الاخرى كانت تدفع رسوما أقل من ذلك قبائل الدواوير الذى يؤخذ عنها 10 ريالات فقط الخ ٠٠٠

أما بالنسبة للعشور وهو فى واقعه رسم موحد على جميع القبائل باعتباره صاعا من القمح وصاعا من الشعيــر

وحمولتين من التين عن كل جابدة ، الا أن بعض القبائل كانت مطالبة عند تسديده باضافة خروف وحمولة قمح ومقدار غير محدد من الزبدة وبعض الدواجن كالدجاج الخ ...

وهناك بعض القبائل كانت غير ملتزمة بدفع هذا النوع من الضرائب والمتمثل فى رسمى العشور والحكور ، بل كانت تكتفى بتقديم نصيب محدد مسبقا من النقود ، ، مثلها فى ذلك مثل قبائل أخرى لم تكن ملزمة الا بتقديم كميات من القمح والشعير فقط .

كل ذلك يجعل عائدات البايليك تتكون مما يلى :

1) مساهمة القبائل بالحبوب من قمح وشعير ، تقدم فى شكلى ضريبتى الحكور والعشور .

2) مساهمة تشمل الحبوب من قمح وشعير ، ومقدارا من النقود ، تقدمها القبائل التى كانت تنتفع بعزل البايليك، مضافا اليها كمية أخرى من الحبوب تحدد حسب عدد الزويجات التى يمتلكها البايليك . وتقوم تلك القبائل بخدمتها لحسابه وفائدته .

3) مساهمة أصحاب الملكيات الخاصة، فى شكل كميات من الحبوب .

4) مساهمة من الحبوب فقط خاصة بالدواوير الكائنة بعزل البايليك .

5) مساهمة من النقود يتكفل بها شيخ العرب تكون عوضا عن الضرائب المفروضة على المناطق التى يتصرف فيها باعتباره قائد عليها .

6) مساهمة أخرى من النقود والماشية (غنم) تقدمها عشائر الحراكتة عوضا عن الضرائب المفروضة عليهم .

7) التزامات تؤخذ من القبائل النائية، وذلك بتجريد فرق من المحلة عليها .

8) حقوق تتعلق بتقليد المناصب لبعض الموظفين .

وهكذا اذا أخذنا بتصنيف وترتيب كمية الضرائب التىكانت تؤول الى أكياس البايليك نجد ان هناك 151 قبيلة كانت تدفع ضرائب حسب النوع الاول من المساهمات المالية ، (عشور حكور) وهي كالتالى :

اسم القبيلة	عدد الجابدات	عدد قيسات العشور		الحكور
		القمح	الشعير	بالريال بوجو
أولاد سيدى بوناب الغرب	30	30	30	400
الغرازلة » »	90	90	90	1200
الاربعاء » »	90	90	90	1200
صدراتة » »	100	100	100	1333

اسم القبيلة	عدد الجابدات	العشور عدد قيسات القمح	الشعير	بالريال بوجو الحكور
أولاد الهنانى الشرق	30	30	30	400
أولاد بلقصير » »	60	60	60	800
أولاد سى حسن » »	60	60	60	800
أولاد جليل » »	40	40	40	533
أولاد سى سالم » »	40	40	40	533
أولاد سى عبد الرحمن »	20	20	20	267
أولاد عمار » »	20	20	20	267
أولاد زعوان » »	20	20	20	267
السماشة » »	20	20	20	267
العوامرة » »	15	15	15	200
أولاد سعيد » »	20	20	20	267
الفرادة وبنى وصيفان »	30	30	30	400
التعـلام » »	15	15	15	200
الطباقـة » »	20	20	20	267
أولاد بن فشيدة » »	60	60	60	800
عامرا القابية » »	600	600	600	800
العلمة القابية » »	150	150	150	2000
العلمة زاوية العومونى »	40	40	40	533
العلمة زاوية سيدى ثابت	30	30	30	400
العلمة زاوية الجودى »	20	20	20	267
أولاد ناصرة	60	60	60	800
السلاطنـــة	40	40	40	533
أولاد العيفة	30	30	30	400
أولاد قاسم	60	60	60	800
بنى ابراهيـم	50	50	50	667
أولاد سعيد بن سالمة	50	50	50	667
أولاد عباس	"	"	"	"
أولاد سعيد بن سالمة	"	"	"	"
ـ القرارب	50	50	50	667

اسم القبيلة	عدد الجابدات	عدد قيسات العشور		بالريال بوجو
		القمح	الشعير	الحكور
أولاد سى سلامة وأولاد ـ ناصر	30	30	30	400
بنى فودة	30	30	30	400
عزلة أولاد واد الذهب	20	20	20	267
الدهامشة	70	70	70	433
معاويـــة	40	40	40	533
تاجنانت والسيفان	30	30	30	400
أولاد بنى مروان	70	70	70	433
طلحـــة	100	100	100	1333
أولاد سيدى فراج	20	20	20	[illegible]7
أولاد سيدى ناصر	20	20	20	267
أولاد صلاح	40	40	40	533
بنى اسماعيل	50	50	50	766
أولاد ضياف	10	10	10	133
أولاد سيدى عثمان	15	15	15	200
أولاد غنام	60	60	60	800
سى فرينة التحادرات	30	30	30	400
أولاد بوحلوف	40	40	40	533
أولاد سى داوود	20	20	20	267
أولاد عبد النور	600	600	600	8000
زاوية الشطى	30	30	30	400
زاوية بن يحيى	40	40	40	533
زاوية بن زروق	30	30	30	400
أولاد يدير	30	30	30	400
أولاد كباب	120	120	120	1600
غمريـــان	800	800	800	1067
أولاد بوحامة	60	60	60	800
أولاد بوحلوف عرب ـ البطحاء	50	50	50	667

اسم القبيلة	عدد الجابدات	العشور عدد قيسات القمح	الشعير	
أولاد رحمون	100	100	100	1333
التلاغمـــة	400	400	400	5333
العطاطـــفة	30	30	30	400
أولاد قبة بوعبدان	30	30	30	400
أولاد عزيز أهل القنطاسى	30	30	30	400
أولاد زايت	40	40	40	533
أولاد جملا	40	40	40	533
أولاد عشاش	30	30	30	400
أولاد يعلا	40	40	40	533
العربـــة	20	20	20	267
أولاد بلعقان	50	50	50	667
أولاد سلام الفحامة	60	60	60	800
أولاد رحمام	20	20	20	267
أولاد بوقرانة	20	20	20	267
أولاد الجرتينى	20	20	20	267
الزمـــول	20	20	20	400
السقنيـــة	800	800	800	10700
العلمـــة	60	60	60	800
أولاد عزيز، أولاد معوش	150	150	150	2000
عامر اشراقة	500	500	500	6700
أولاد ساكر	80	80	80	1070
أولاد الرحمة	80	80	80	1070
المزاميـــن	10	10	10	133
أولاد بن عمار	20	20	20	267
أولاد عنان	30	30	30	400
أولاد عجاس	40	4	40	533
أولاد عبيـد	20	20	20	267
أولاد يعقــوب	10	10	10	133

اسم القبيلة	عدد الجابدات	عدد قيسات العشور القمح	عدد قيسات العشور الشعير	بالريال بوجو الحكور
القنادلــــة	20	20	20	267
البشاكـــة	15	15	15	200
أولاد سى يحيى	30	30	30	400
الدبابـــرة	150	150	150	2000
أولاد عـــموش	50	50	50	667
أولاد سى خليفة	100	100	100	1333
أولاد سى عفيف	60	60	60	800
أولاد دهان	200	200	200	2667
أولاد معافية	60	60	60	800
أولاد سى عمر بن سلطان	30	30	30	400
أولاد سى عمار بن عدة	30	30	30	400
أولاد زقروم	40	40	40	533
أولاد بوجمام	15	15	15	200
أولاد عزازية	10	10	10	133
أولاد بلعشور	40	40	40	533
أولاد عزيز	30	30	30	400
صدراتة الشراقة	300	300	300	4000
أولاد قاسم الشراقة	50	50	50	667
ولاد سى موسى الشراقة	40	40	40	533
بنى وجانة كرفة	120	120	120	1600
العشاش الكرفة	150	150	150	2000
المعالــة	300	300	300	4000
أولاد سى يحيى بن عيسى	60	60	60	800
العربة بتروش	60	60	60	800
ولاد يحيى بن يدير	60	60	60	800
ســـلاوة	200	200	200	2667
اولاد عرفــة	15	15	15	200
اولاد عزيزة	10	10	10	133

اسم القبيلة	عدد الجابدات	العشـور عدد قيسـات		بالريال بوجو
		القمح	الشعير	الحكور
أولاد جـا	6	6	6	80
ألاود سعـود	10	10	10	133
أولاد عزرارة	30	30	30	400
أولاد سى مناصـر	30	30	30	400
بنى وجانة الغرب	150	150	150	2000
الزرادنـة	60	60	60	800
أولاد أحمد بن السعيد	60	60	60	800
أولاد سى أحمد بومرزوق	50	50	50	667
أولاد خيـار	100	100	100	1333
الشعابـة	10	10	10	133
زمالة بن مرات	50	50	50	667
جميلـة	300	300	300	1600
أولاد يحيى بن عيسى ولس	20	20	20	267
جينـول	20	20	20	400
أولاد يحيى بن فراح	10	10	10	133
أولاد بلعرابة	10	10	10	133
أولاد يعقوب الشراقة	40	40	40	533
فضـلاوة	15	15	15	200
بكهة الشراقة	10	10	10	133
قبائل العوالم القرفة	200	200	200	2667
علمة كشكاشة	60	60	60	800
أولاد ساسى قرفة	70	70	70	933
أولاد أحمد قرفة	30	30	30	400
بن قليـد	40	40	40	533
بنى مجللت	30	30	30	400
أولاد دراج	15	15	15	200
صدراتة	15	15	15	200
القرازلـة	15	15	15	200

اسم القبيلة	عدد قيسات	العشور عدد الجابدات القمح	العشور عدد الجابدات الشعير	الحكور بالريال بوجو
لاربعـــاء	15	15	15	200
العلمة الشراقة	100	100	100	1333
العلمة الصوادق	20	20	20	267
عميــز	60	60	60	800
العمويـــة	50	50	50	667
أولاد براهيـــم	20	20	20	267
بلاد ولاد بوقدرة	30	30	30	400
المجمـــوع	10381	10381	10381	137،547 بوجو

وهناك مساهمة أخرى من الحبوب كانتت ؤخذ من عـــزل البايليك وتودع فى مخازن الدولة ، وهي بمثابة حقوق الحكور والعشور من الدواويـر الـتى كانت تقوم بخدمة هذه الارض لفائدتها الخاصة · وهذه الدواوير كانت تسير من طرف القياد ، وهي كما يلى :

اسماء القبائـل	عدد الجابدات المستخدمة فى الحراثة	العشـور عدد قيسـات القمح	العشـور عدد قيسـات الشعير	الحكور بالريال بوجو
أولاد طلحـة	40	40	40	533
أولاد رحمون فى بومزروق	50	50	50	667
أولاد سالم فى بومزروق	40	40	40	533
أولاد وجنان	50	50	50	667
بلاد ولاد عمار	20	20	20	200
بـلاد والى	15	15	15	150
بلاد راس العين	25	25	25	300
بلاد بلبغيل	20	20	20	200
بلاد عمارات	15	15	15	150
الغـــازى	30	30	30	400
الغرازلـــة	30	30	30	400

أسماء القبائل	الحرث المشاركة فى عدد الزويجات	العشــور بعدد قيسات القمح	والشعير	الحكور بالريال بوجو
عين الحامة	30	30	30	400
عزلة المشيرة	60	60	60	800
عزلة مرج عزيز	25	25	25	300
عزلة عين عمراس	30	30	30	300
بلاد أولاد محمد بن على	20	20	20	200
الصفاصفـــة	20	20	20	200
أولاد زرابة	20	20	20	200
بلاد بوكروش	30	30	30	300
دوار بوشناق	60	60	60	800
أولاد القائـم	60	60	60	800
العلقة كليـــم	30	30	30	500
أولاد بوعروم	40	40	40	1000
بلاد ولاد تبان	30	30	30	300
عين سلطـــان	30	30	30	300
عرقوب الرياحى	30	30	30	300
عزلة مولى الشفا	20	20	20	200
عزلة برقاسم	20	20	20	500
عزلة حمام الدمشة	40	40	40	400
النويحـــة	80	80	80	2000
بنى قشة	100	100	100	2000
زرامنة المنتورة	100	100	100	1000
عموشة الد	70	70	70	1000
عزلات بنى فردوس: بوبتواش، بن غـــرار، سيدى مروان، سدى مرداد	130	130	130	2500
فردوس	20	20	20	400
الخضراء ولاد عميزة	80	80	80	30000

أسماء القبائل	عدد الزويجات المشاركة فى الحرث	بعدد قيسات العشـور القمح	بعدد قيسات العشـور والشعير	الحكور بالريال بوجو
عين عرمات	30	30	30	600
بو الريـــح	30	30	30	400
بنى عجـــب	30	30	30	500
الخـــزارة	30	30	30	300
بنى عـــزيز	15	15	15	200
أولاد لاميـــن	15	15	15	200
شعبـة السعيد	40	40	40	600
أولاد ســلام	30	30	30	500
الجـــار	40	40	40	400
عيـــاد	20	20	20	300
أولاد البقرات	10	10	10	150
باب التروش	15	15	15	150
بــلاد البيدى	10	10	10	150
بلاد بن القليلى	10	10	10	150
مسيـــدة	25	25	25	300
شعبة المذبوح	20	20	20	200
ولاد وارزق	70	70	70	1000
كدية عنايش	25	25	25	200
مشتة بن شريف	15	15	15	200
بنى حميدان	10	10	10	200
طكـــوك	10	10	10	150
حطابـــة	15	15	15	150
عين طلحـــة	10	10	10	150
جنان ولاد الباز	20	20	20	250
بنى ابراهيـم	20	20	20	200
مبروكـــة	25	25	25	200
بوقرونـــة	25	25	25	100
بلاد غريـــب	40	40	40	500
بنى سليـــم	10	10	10	133
السطحـــات	30	30	30	300

اسماء القبائل	عدد الزويجات المشاركة في الحرث	بعدد قيسات العشور القمح	والشعير	بالريال بوجو الحكور
عيون الدهـــان	30	30	30	200
العيشيــــة	50	50	50	667
أولاد مبارك	30	30	30	400
العطاطــــة	30	30	30	400
الفراويـــــن	30	30	30	400
زكـــــدال	40	40	40	500
طيار مؤكـــــو	30	30	30	500
ماسيـــــن	30	30	30	300
دار النيني	15	15	15	150
المجمـــــوع	2345	2345	2345	35700 بوجو

اما العزل الاخرى فهي لا توفر للبايليك الا كميات محددة من الحبوب ، حسب عدد الجابدات التي يساهم بها البايليك ٠ وقد جرت العادة أن يؤخذ عن كــل زويجة من الابقار 12 قيسة من القمح و 12 قيسة من الشعير ، وبذلك يكون البايليك قد وفر لهذه العزل 220 زوج من حيوانات الحرث ، مما يجعل الرسم المستوجب عليها يبلغ 2640 صاعا مــن القمح و 2640 صاعا من الشعير (1) ٠

ويعتبر العاملون بهذه العزل أجــراء مطالبين بالمساهمة بالبذور والتكفـــل بجمع مصاريف الحرث والحصاد ٠

أما العزل الداخلـــة في الملكيـات الخاصة ، فهي تضم 1400 زوج مـــن الابقار ، ولا يؤخذ عليها سوى حـــق العشور ، باعتبار أن الحكور كان يعتبر كراء للارض ٠ وبذلك يساهم هذا الصنف من ملكيات العزل بـ 1400 قيسة مـــن القمح و 1400 قيسة من الشعير ٠

ومما تجدر ملاحظته أن القيسة من الحبوب المستعملة في بايليك قسنطينة اذا قورنت بالصاع ـ نجد أن 8 قيسات تساوي صاعا واحدا ، والقيسة مـــن حيث شكلها عبارة عن حجم متســـاوي الاضلاع

قاعدته 0،320 م3 على 0،2990 م3 وارتفاعه 0،047 م وسمكه 0،0173 م ٠ وحجمــه 18،64 ل وبالتالي يكون الصاع حسب هذا القياس 149،12 ل ٠

أما شيخ العرب الذي يأخذ المغارم من الجهات الصحراوية ، فكان يقــدم عنها للبايليك ضرائب في شكل قطــع نقدية من القروش (مع العلم بأن قيمة القرش الواحد 25،50 ف) ٠

وضرائب الصحراء تتوزع كالتالي :

القنطرة	300	قطع نقدية	
		كيرى	550
بسكرة	(1) 12000	فتياش	60
بوشقرون	1000	الشاتمة	60
الفرفان	1500	القرتة	150
ايشن	500	العتوم	100
الزعاطشة	250	القصير	150
باطلقة	1500	بادس	200
البرج	50	ليانة	1000
اللواء	500	أهل النميلة	4000
زرلقة	250	لرماك توقرت	7000
الصحارى	250	قائد بسكرة	4000
المقدم	250	الشيخ سيدى عقبة	10000
العلمانة الاولى	500	شيخ صاولة	10000
النقلال	500		
البيتوحا	500		
أم قليل	1500		
عوماش	500		
		المجموع	21850

(I) لقد أجاب بعض العرب يعدان الاستفسار عن فوائد بناء المنازل وغرس الاشجار · بأنهم برانية(أجانب) ما دامت الارض التى يعملون عليها قد تنزع منهم ، وما دام الحصاد ومنتوج البساتين يمكن أن تؤخذ منهم ، فضلا على أن نفاذ العشب يجعل تغيير السكن شيئا ضروريا ، وذلك سعيا وراء الكلا فى جهات وهذا ما يظهر فائدة الخيام ويجعل بناء مساكن قارة غير معقول ·

ولهذا فان اقرار ملكية المسكن والبساتين لهؤلاء السكان العرب ، يمكن أن يؤكد لهم الفوائد المترتبة عن الاستقرار ويظطرهم الى التوطن فى الارض مثل عزل : صالح باي وانقليز باي ومرابطى قرقارة وسيدى ناصر بالقرب من جميلة وسيدى بوليان بالقرب من مزرعة بنى قشة الخ ، وكذلك العزل الواقعة على الضفة اليمنى لواد الرمال و وادى الحامة وبساتين ميلة والعزل التى بجوارها · فبهذه الطريقة يمكن للعرب أن يبنوا منازل ، ويتركوا تدريجيا عاداتهم كما يغيرون أسلوب معاشهم وطرق زراعتهم ، وهذا متوقف على تغيير نظام حكرهم بحيث يصبح مغايرا لما هو جار به العمل الآن ، وهذا ما يترتب عليه تحديد وضبط مهام كل خليفة أو قائد أو شيخ فيما يخص الملكية ·

(I) معلومات أولى بها ابن جلول ، كاتب الباي أحمد سابقا ، وكان مكلفا باعطاء (كشوف) وصول عن كل ما يتسلمه البايليك من مداخيل نقدية أو عينية ·

(I) كانت زويجة الثيران (أو الجابدة) ببايليك قسنطينة ، تتطلب كمية من البذور تقدر بـ 6 صاع من القمح و 6 صاع من الشعير ، ويكون المردود فى الحالة الطبيعية I2 صاع عند الحصاد ·

(I) وكانت I2000 قطعة المتوجبة عن بسكرة ، تدخل فى تسديد أجور الحامية التركية ورعاية مصالحها · وكانت هذه الحامية التركية تكلف بجع الضرائب تحت قيادة شيخ العرب الذى يحضر بدوره ، الفرسان المساعدين لها ·

في موكب الذكرى

الشاعر الخالد محمد العيد

محمد الصالـح الصديق

كنت فى هذا الصيف (1979) أقضى عطلتى قريبا من شاطىء البحر، وكان يلذ لى أن أهرب من ضجيج الناس وضوضائهم الى مكان صخرى داخل البحـر فأخلو الى نفسى وأحاول أن أستجمع ما تبعثر من أشلائها هنا وهناك علنى أستطيـع أن أفتح نافذة يعسر فتحها فى عالـم الناس حيث الحركة والجلبة والصخب، نافذة أطل منها على ما بقى من الدرب الطويل الممدود بين البداية والنهايـة ، عسى أن أستبين معالمه وأقـف عـلى حقيقته وسره وفى هذا اليوم (2) أوت اعتليت كعادتى صخرة عالية داخـل البحر وأخذت أسرح طرفى فى الامواج المتلاطمة أتابعها على مد البصر وهي تزحف وترغى وتزبد حتى تتكسر على أسافل الصخرة ثم تتبعثر وتتلاشى ، لتزحف أمواج أخرى وتتكسر وتتبعثـر وهاكذا دواليك ٠

ومن حين لآخر أطلـق بصـرى فى عرض البحر فأرى باخرة تمخر عبابـه فأتصور الاختراع الانسانى العظيم الذى أمكن به لهذا المخلوق الضعيف أن يسخر هذا المخلو قالقوي الهائل فيعلو ظهره ويستخرج ما فيه من كنوز ٠٠ ثم فجأة أتصور غضب البحر وهيجانه وكيـف تصير أكبر البواخر فيه كأنها ريشة أو حثالة تتقاذفها الامواج فترفعها طورا ، وتخفضها طورا آخر كأنها على أرجوحة، وقد يطويها ويبتلعها فى أحشائه فـلا يعود يعثر لها على أثر ٠

وأفكر فيما شاهده هذا البحر مـن معارك حربية يشيب لها الوليد فيقشعر بدنى لاهوالها ، وأشعر بالرهبـة مـن الحروب الطاحنة ٠ التى يصاب بهـا الانسان كما يصاب بالوباء الماحق ٠ وتمر بخاطرى لمحات مـن تاريـخ الشعـوب الاسلامية الحافل بالبطولات الخارقـة ، ويتركز فكرى فى المعارك البحرية الـتى

خاضها أبناء الشواطىء الاسلاميـــة في البحر الابيض المتوسط لا سيمـا فى أعقاب المذابح التى تعرض لها مسلمو الاندلس والحمـلات الضاريـة الــتى استهدفت لها الثغور العربية بشمــال افريقيــا ٠

فبينما كنت فى هذه الخواطر اذ لمـع بذهنى قول شاعر الجزائر محمد العيـد آل خليفة يناجى البحر سنة 1830 :

وقفـت عـلى بحـر الجزائر ليلة
وناجيته لو كان يسمعنى الـبحر
فقلت له : يا بحر ما لك هائجـا
على البر مغتاظا ولم يذنـب البـر ؟
ومالك لا تالوه دفعا وضجـة
وصفعا بأيدى الموج رق له الصخر؟

ثم وثب فكر ى الى الماضى البعيـد أيام كنـت ألتمس الضوء الهادى الى حضيرة الادب ، وأروض عقلى ليتثقف وقلمى ليستقيم على الدرب ، فازدحـم على فكرى كثير مما كنت أحفظـه مـن روائع الادب العربى ، عن جمــال الطبيعة ، وعظمة الكون ، فمر بخاطرى قول الرافعى وهو يناجى البحر ويقول : (اذا ركبك الملحد أيها البحر فوجفت من تحته ، وهدرت علـيه وثرت بـه وأريته رأي العين كأنـه بين سمـاءين ستنطبق احداهما على الاخرى فتقفلان عليه ـ تركته يتطأطأ ويتواضع ٠٠ وأطرت كل ما فى عقله فيلجأ الى الله وكشفت له عن الحقيقة : ان نسيان الله ليس عمل العقل ، ولكنه عمل الغفلة والامـن وطول السلامة) ٠

وحان موعد الاخبار ففتحت مذياعـا صغيرا كنت أحمله معى للاتصال بالعالم الخارجى الذى يفصلنى عنه البحر وبعد المسافة عن المدن ، فهالنى ما سمعـت فى موجزها ولم أصدق أذنى فيمـــا سمعـــت :

انه نعى الشاعر الجزائرى محمد العيد الذى كنت الآن أفكر فيه وأستعرض من شعره عن البحر ، وتابعت الخبر فعلمت انه قد توفي يوم الاربــعــاء (I) أوت بمستشفى باتنة وتشيع جنازتـه يـوم الخميس بمدينة بسكرة ٠ ثم انتقل المذيع الى أخبار أخرى وبقيت أنا مع النبـا المفجع مذهولا كأننى فى المنام أو كأننى غير مصدق ، ووجدت لسانى يردد قول أبى الطيب المتنبى عندما فاجأه نعى أخت سيف الدولة فلم يصدق النبأ :

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبـر
فزعـت فيه بأمالى الى الكــذب
حتى اذا لم يدع لى صدقه أمـــلا
شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بى

ولكن سرعان ما أفقت من ذهولى ، فقلت : فيم هذا العجب وفيم استبعـاد الخبر واستغرابه ؟ أليس مكتوبا على كل انسان أن يفقد فى ساعة ما حياتـه ويلقى المصير المحتوم الذى ينتظره منذ وفادته الى هذا الوجود ؟ أليس أجـل الانسان جسرا معلقا بين البداية والنهاية فلابد يوما أن ينقضى هذا الاجل، وينتهى هذا الجسر فاذا بالحياة التى كان يراها

حقيقة ملموسة ، وفردوسا رائعا نضرا حلم ووهم ، وقصة تروى فى كلمات ؟

تبـا لدار غرور تبا لدار غرور
خداعة كالسراب

وقلت رحم الله الفقيد الراحل محمد العيد اذ يقول :

ويـــح ابـن آدم يلهــــو
والمـــوت منــــه كقـــاب

لابـــد أن ســـوف يخبـو
كـــل امـرىء غيـــر خـــاب

تـبـــا لـــدار غـــرور
خـــداعـــة كـــالســـراب

ويـــح ابـن آدم يلهــــو
والمـــوت منــــه كقـــاب

المـــوت نـــوح ريـــاح
والمـــرء عـــود ثقاب

لابـــد أن ســـوف يخبـو
كـــل امـرىء غير خـــاب

نهاية لابد منها وان غفل عنها الانسان فى خضم هذه الحياة ، وغاية حتميـــة لا مفر منها وان لها عنها فى غمـرات المسرة والهناء ، فسنة الله فى كونـــه أن يجىء أجل الموت كما جاء أجل الحياة، فعملية التحلية والتخلية فى هذه الارض ستظل ضرورة قائمة حتى يجىء أجل الارض نفسها • فمن منا لا يعرف هذه الحقيقة ولا يوقن بها ؟ ولكن من منـــا أيضا لا يهوله وقع هذه النهاية ولا تهز كيانه هذه الغاية عندما تحل بالقرب من ساحته؟ فبالرغم من الايقان بأن هـذه الحياة انما هي ممر الى الآخرة ، ومجاز الى عالم البقاء أو كالظل الذى يتفياه المار فى الطريق ـ فنحن لا نستطيع أن نحبس فى العين دمعة ، ولا أن نخفف عن القلب لوعة ، ولا أن نخفى من وجوهنا مسحة الحزن والكآبة ، عندما نفقد أحدا سيما من أقاربنا أو من خلص أصدقائنا ومعارفنا • ؟؟ وحزنـــنا عـــلى الذين نفقدهم يتفاوت عمقـا وأثـرا بتفـاوت منزلتهم منا ومكانتهـم فى قلوبنـــا ، وبالتالى بالفراغ الذى يتركه الفقيد فى حياتنا سيما اذا كان الفراغ لا يسـده أحد من بعده •

واذا كان حزننا على الشباب قويـا وعاتيا يعصف بنفوسنا عصفا لانهم مناط آمالنا ومهوى خواطرنا، والورود المفتحة التى تستقبل الحـيـاة نديـــة عـطرة فحزننا على الشيوخ ذوى الحنكة وذوى المواهب والكفاءات هادىء ولكنه عميق، يبقى ألمه فى الاعماق ما بقيت أعمـــال الفقيد تنطق به ، وأثاره تذكر بـــه ، ومواقفه تشير اليه•

ومن هؤلاء الشيوخ الذين جعلـــوا حياتهم عظيمة بما صنعوا فيها من مجد وبنوا فيها من تاريخ ـ صديقنا الوفى وشاعر الجزائر البار الاستاذ محمـــد العيد الذى تخلصت روحه من قيدهـا المادى الغليظ وصعدت الى ربها راضية مرضية لتلتحق بأرواح رفاقه الذيـــن مضوا قبله الى ربهم •

وانه لمن حق محمد العيد على هـذا القلم الذ ىطالما ناجاه فى الســـراء والضراء ، وطالما استوحى من خيالــه الشعرى منذ الطفولة ما اخصب بـــه الصداقة ومتن به عرى الاخاء والمـودة ـ أن يحييه وهو نائم فى قبره بهـــذه الخواطر والنبضات تحية اخـلاص ووفاء ريثما تتاح فرصة للوفاء له بما يجـــب مـنمثلى لمثله صداقة وتقديرا :

الشاع رمحمد العيد : لم أكن أتجاوز التاسعة من عمرى حينما سمعت بهذا الاسم ، وشغلنى التساؤل والاستفسار عنه ساعة من الزمن ومنذ ذلك الحيـن أحببت الشاعر محمد العيد وظللـــت أسأل عنه وأهفو الى شعره ٠٠ وأتصفح ما يقع بين يدى من الصحف علـــى أظفر بشعره حتى استقام عودى وعرفته وتوثقد بينى وبينه الصداقة ٠ كان ذلك عندما كنت تلميذا بمعهد سيدى عبـــد الرحمن اليلولى بزواوة وكان أستـاذ المعهد فى ذلك العهد هو الفقيه الاصولى، والمؤلف البارع محمد الرزقى الشرفاوى الازهرى ، وكانت لى قرابة به بحيـث أدخل الى حجرته متى شئت وأتصفـــح من أوراقه ما شئت ، وأستفسره عما شئت ، واناقشه أحيانا فى قضايا لا أفهم عنها شيئا لانها فوق طاقتى ولكنه مـــع ذلك كان معى رحب الصدر قلما يستثيره فضولى فبينما كنت معه ذات يوم أجاذبه أطراف الحديث اذا بطالب فى المعهد يطرق الباب ويسلم للشيخ ظرفا بريديا، ففتحه فاذا به كتيب صغير ٠٠ فنظر فيه باهتمام ثم أخذ يتصفحه وهو يبتســـم فسألته عنه فدفعه الي قائلا : اقرأ ٠٠٠

فقرأت على الغلاف (أنشودة الوليد) فى يوم المولد للشاعر الجزائرى محمد العيد ثم قرأت فى أعلى الصفحة الاولى هذين البيتين :

بمـحـمـــــد أتـعـلـــــق
وبخلقــــــه أتخـلـــــق
وعـــلى البنـــين جميعـهـم
فى حـبــــــه أتـفـــــوق

ثم أخذت أقلب صفحات الكتيب وأقرأ فى سر ، فقال الشيخ ، هذه القصيدة نظمها الشاعر محمد العيد خصيصـا لتلامذة المدارس العربية فأهدانى نسخة منهـــا ٠

وما أزال أذكر ان أمرين هامين قـد استبدا بعقلى فى ذلك الوقت وجعلانى أسأل الاستـاذ الشـرفاوى وأناقشـــه ـ كعادتى ـ وهو يجيب بعناية كأنه مع أديب أو مثقف أو كبير ، لقد كنت أعرف كثيرا من الشعراء كـامرىء القيس ، وعنترة ، وزهيـر ، وطرفـة ، والمتنبى وأحفظ لهم قطعا أو أبياتا ولكنى ما كنت أظن أنه يوجد فى العصر الحاضر شعراء اذ كنت أعتقد أن الشعر وقف على عرب الحجاز ومقصور عليهم ، فنبوغ شاعـر فى غير الجزيرة العربية كالجزائر مثلا يعد عندى اذ ذاك غريبـا يثيـر عجبى ودهشتى مما جعل الاستاذ الشرفاوى يطلق ضحكة طويلة هاج لها عضبى ،

وكدت أتضاءل أمامه لولا انى حاولت فى غرور الصبا أن أتمالك ونفسى ٠٠ كأن شيئا لم يقع ٠

وكنت أيضا أظن ان الشاعر محمد العيد انما ارسل الى الاستاذ الشرفاوى نسخة من كتيبه ـ ليعطيه عنه رأيه ـ ولكنى أعلم ان الشرفاوى ليس بشاعر الا أن أكون جاهلا عنه ذلك كما جهلت امكان نبوغ شاعر فى أي مكان وفى أي زمان ٠ غير الشـرق العربى فى زمان مضى ٠

أما عن الامر الاول فقد قال الاستاذ وهو ينظر الى من الاستغـراب المشوب بالحنو والرفق : ما هذا يابني ؟ ألم تسمع بشعراء نبغوا فى غير الحجاز ؟ ألـم تسمع بأبى تمام والبحترى والمتنـبى وحافظ ابراهيم وأميـر الشعـراء أحمد شـوقى ٠

وأما عن الثانى فقد قال لىفيما أذكر قد يقدم كاتب أو شاعر انتاجه الفكـرى لمن يأنس فيه الكفاءة والاخلاص لينقده أو يقرضه أو يرشده الى ما عسى أن يكون فيه من سهو أو هفوة قبل طبعه ، ولكن الامر ليس كذلك بالنسبـة الى الشاعر محمد العيد فانه أهدانى هـذه القصيدة لاهداف كريمة وغايات نبيلـة تتمثل فى توثيق الصداقة بيننا والعمل على تحفيظ طلبتنا هذه الانشودة الحافلة بالمشاعر الطيبة والاحاسيس النبيلـة والدعوة الى التخلق بأخلاق القـرآن ، والاقتداء بمن نزل عليه ٠ لينشأ الطالب نشأة مثالية ٠ ومنذ ذلك اليوم صرت أحمل فى نفسى للشاعر محمد العيد حبا وتقديرا ، وأحاول أن أقرأ له كل ما يقع فى يدى من روائعه الخالدة قراءة تأمل واستمتـاع ٠

وتعاقبت أمواج السنين على ساحـل الحياة تنفى ما عليه من خبث (I) وغثاء وتنسى بأيامها ما علق بالفكر من صور وأحداث الا الصور الناطقـة، والاحداث الخالدة التى تستعصى على النسيان، وتقوى على الزمان ٠٠

وفى سنة 1950 خصصت جمعيـة الطلبة الجزائريين بتونس دروسا لنخبة من الطلبة الجزائريين واختارت لهـذه المهمة الشاعر التونسى الكبير محمـد بوشربية وكنت ضمن هذه النخبة ، وفى أحد الاقسام جرى بينى وبين الاستاذ الشاعـرحديث مطول عن أدباء الجزائـر وعلمائها فكان من بينهم الشاعر محمد العيد الذى أعجب به بوشربية وذكـر لى أنه يعرفه ، وقد نوه بشاعرية محمـد العيد المتدفقة الفياضة التى قال عنهـا يومئذ انها تبلغ أحيانا المرتبـة الاولى فى ابداعها ، ونقائـها ، واشراقـها ٠ وعندما ودعته للعودة الى الجزائـر فى العطلة الصيفية حملنى اليه السلام ٠٠ فأرسلت الى الاستاذ محمد العيد رسالة أدبية مطولة ذكرت له فيها ما جرى بينى وبين الاستاذ الشرفاوى قبل أن أتخطى التاسعة من عمرى كما بسطت القـول عن علاقتى بالشاعر التونسى الكبيـر

محمد بوشربية ، وحبه للجزائر وعطفه على أبنائه الطلبة الزيتونيين ، وثنائه الجم على طائفة من أدباء الجزائر وعلمائها وما قاله بالخصوص فى شأن محمد العيد وكانت هذه أول رسالة بعثتها اليه . ولم تمض الا أيام قليلة حتى وافتنى منه رسالة قيمة كان لها الاثر البالغ فى نفسى وربما فى مجرى حياتى الادبية والثقافية .

قرأتها فاستهوتنى بصدق اللهجة ، ونبل الاحساس ، وبراعة اللفتة ، وروعة التصوير ، كل ذلك فى أسلوب واضح سهل مشرق لا يتيسر الا لاديب مطبوع كمحمد العيد .

وقد ركز فى رسالته بالخصوص بعد الديباجة على المحاور التالية :

الترحيب برسالتى والشكر عليها .

الاشادة بمكانة الاستاذ الشرفاوى العلمية والاصلاحية والدينية ، والاعجاب بقلمه المثمر الذى كان يثرى الصحافة الجزائرية وخاصة (البصائر) بمقالاته القيمة فى مختلف الشؤون والاغراض . وذكر بالخصوص مقالاته عن التعليم الدينى وكيف ينبغى أن يكون .

وجوب التسلح بالايمان والقيم الاخلاقية والمحافظة على الدين فمهما يكن للقوانين الوضعية من أثر فى الضمائر والنفوس فانها لن تقوم أبدا مقام تعاليم الاسلام لان الاولى من صنع الانسان العاجز الذى لا يعرف كل ما يصلح به ، ولان الاخرى من صنع الله القادر الذى يعلم كل ما يصلح بالانسان فى هذا الوجود .

الحث على مواصلة الدراسة بجد ، ومحاولة التغلب على الظروف القاسية القاهرة التى تواجه الطالب الجزائرى فى غربته ، والتذكير بما ينتظره الاهل والوطن من الطالب الجزائرى المتغرب فى سبيل العلم من التزود بالعلم والاخلاق .

أما عن الشاعر بوشربية فقد أطنب فى التنويه به والثناء عليه وما أزال أتذكر بعض ما قاله فيه بمعناه وربما بلفظه .. فبعد تهنئتى على أن كنت من المحظوظين بالدراسة الادبية عنه قال : ان للعربية الفصحى قديما وحديثا أفذاذا من الكتاب والشعراء فالشيخ بوشربية أحدهم ، وان لتونس الخضراء فخرا بانتمائه اليها ، ولو لم يكن له الا قصيدته النونية فى مدح النبى لكفاه ذلك دليلا على عبقريته الشعرية .

وعدت فى بداية السنة الدراسية الى تونس واجتمعت بالشاعر بوشربية فى بيته وأريته رسالة الشاعر محمد العيد فاهتز طربا وأثنى عليه الثناء العطر وأوصانى أن أبلغه تحياته وتقديراته .

وعلمت ان القصيدة المديحية التى أشار اليها محمد العيد فى رسالته هي التى يقول فى مطلعها بوشربية :

نور النبوة ساطع البرهان
غمر النهى فانحط عنه بيانى

ولا أبالغ في وصف الحقيقة اذا قلت ان هذه الرسالة التي رد بها الشيخ محمد العيد على رسالتي قد ضاعفت في النشاط الادبي ، وشجعتني على مواصلة السير في درب الادب مما جعلني ألتزم بالكتابة في صحيفة (الطالب الزيتوني) بتونس .

وفي سنة 1951 أصدرت كتابي (أدباء التحصيل) الذي أعددته وفق برنامج جامع الزيتونة لشهادة التحصيل (البكالوريا) والذي قدم له الاستاذ بوشربية بمقدمة قيمة هداني فيها الى عيوبي وأراني رأي العين أن الاجادة تتطلب مراسا طويلا وخبرة واسعة ، فأرسلت نسخة منه الى الشيخ محمد العيد أرفقتها برسالة أدبية مطولة حدثته فيها عن اعتزازي بصداقته ، وتأثري برسالته ، واعتزامي على مواصلة العمل في حقل العلم والمعرفة وأسهبت له في الرسالة عن أستاذي بوشربية واعجابي بعبقريته وذوقه وطريقته في التدريس ، واستلفت نظره الى نقده في المقدمة .

وكنت اذ ذاك أعتقد انني أتيت بشيء لم يأت به أحد فبدل أن يستجيد كل ما في الكتاب ويغتبط به كل الاغتباط وينهال علي بالثناء والتقدير والتهاني عرض مجموعة من مميزات الكتاب التي ترفع من شأنه ثم أعقبها بمآخذ نقدية شعرت أمامها بنوع من الخجل والتضاؤل .

وركزت له أيضا في هذه الرسالة على التضحية الجسيمة التي يضحي بها المغترب الجزائري في سبيل العلم فهو يعيش حياة كلها بؤس وشقاء ، وكلها عذاب وجحيم وقد يقضي نهاره وليله دون أن يذوق طعاما بالاضافة الى آلام الغربة والوحشة المبرحة وعندما ينهي دراسته ويعود الى وطنه الجزائر حاملا للشهادة العلمية يجد الابواب مغلقة، والطرق مسدودة فكان أسعد أولئك الطلبة من يجد زاوية يقضي عمره بين تحفيظ القرآن وتلقين المبادىء الاولية في الفقه والنحو.وبعد أيام جاءتني منه رسالة قيمة عبر فيها عن تأثره برسالتي، وصور شعوره تجاه الطالب الجزائري في الغربة وما تجيش به نفسه من هموم وخواطر وأشجان شأن شاعر كبير ملهم يعيش في داخله آلام الناس وأمالهم وأحزانهم وسراتهم ولا تمر به حادثة الا وله فيها نفثة ونبضة قلب، وبوح نفس ، حتى صار يعي الحياة أكثر من غيره ، ويتأثر وينفعل بما يصادف فيها ويصور ويبدع التصوير .. وابدى اعجابه بالكتاب وبمقدمة الشاعر التونسي وشربية ، وقال عنها ما معناه :

ليست مهمة أستاذك الاديب النصوح أن يدغدغ مشاعرك بالمجاملة والمبالغة حتى تقف في الطريق مشغولا بهذه الدغدغة وانما مهمته أن يقول لك في صراحة ونزاهة : هذه حسناتك وهذه سيئاتك ، فالحسنات والسيئات من

لوازم الانسان .. فلابد أن يصيب فى شىء ويخطىء فى شىء آخر ، وجل من لا يخطىء ، على أن سيئات الكتاب بجانب حسناته لا تكسف له شمسا ولا تخسف له قمرا (1) .

وارفق الشاعر محمد العيد رسالته هذه بقصيدة عصماء فاضت بها قريحته المبدعة صور فيها ما تعانيه اللغة العربية فى الجزائر من ضغط ومقاومة حتى أصبحت غريبة بين أهلها ، وأجنبية فى وطنها ، واشتد ظلام الجهل ولم يعد هناك سوى بصيص من نور يلوح فى العتمة مؤنسا ومرشاد .

وأوصانى فى هذا القصيد بالمثابرة على العمل الادبى والمضي فى هذا الطريق رغم ما يحف به من متاعب ومشاق ، ويقول فيه :

حلل فانك باحث منطيق
وانقد فانك بالصواب خليق
وانهج لناشئة الجزائر منهجا
حرا بأحرار العقول يليق
واكشف لهم أدب العروبة إنه
عنهم خفي كالسهى وسحيق
أسفى على الفصحى تحول نبعها
وشلا وكدر صفوه الترنيق
صدئت جواهرها وغاب ضياؤها
لولا بصيص نادر وبريق

وأشار الى الكتاب الذى أصدرته والشاعر بوشبية الذى قدم له وقال :

أعددت للتحصيل سفرك عارضا
ثمر العقول يزينه التنسيق
زاولت فى الزيتونة الآداب عن
أقطابها ودليلك التوفيق
ولبثت تروى عن (أبى شربية)
فاذا شرابك كوثر ورحيق
سر فى طريقك رائدا فطنا فما
كطريق رواد العقول طريق
واهدف الى مرماك وامن موفقا
ان الموفق بالنجاح حقيق

وهناك أبيات لا أستطيع عرضها هنا لما فيها من التنويه والاعجاب بشخصى الضئيل الذى لا يستحق كل هذا التكريم وهذا التقدير من شاعر الجزائر النابغة محمد العيد لولا قلبه الكبير ، ونفسه الكريمة ، وسجاياه النبيلة والحق أقول أنه أخجلنى بهذا الاطراء حيث أرى نفسى دون ما قال لا سيما وأنا اذ ذاك فى بداية الطريق بالرغم مما يصاب به الناشىء من غرور ، فكتبت اليه ردا شكرته فيه على تشجيعه الادبى ولاحظت له أننى جد خجول مما جاء فى القصيد ولولا خلقه السمح ما كنت أهلا لذلك وسقت له هذا البيت المشهور :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدى المساويا

واحتجبت عنى رسائل محمد العيد قرابة شهرين ثم جاءنى منه كتاب يعتذر فيه عن التأخر بأنه كان فى طور النقاهة من مرض لازمه أكثر من شهر

ثم طرأ عليه سفر الى العاصمة ، وكان الجواب مفعما بالعواطف النبيلة ، والوصايا الحكيمة والارشادات البناءة فى أسلوب رشيق متواضع واذكر منها ما ملخصه بالمعنى لا باللفظ ٠

ما قلت فيك وفى كتابك الا ما أومن به ولست مرائيا ولا مجاملا فاذا بدت لك فيه مبالغة فليس ذلك الا انك لا ترى نفسك بنفسك وانما بنفس أخرى تراك، على أننى ان بالغت فى الثناء فذلك لان المفاجأة التى لم يسبقأن ذكرتها بل ولا لمحت اليها فى رسائلك سرت فى كيانى سريان الكهرباء فى أسلاكها فاهتززت فى نشوة من الغبطة ، وفورة من اللذة، فجاءت بعض الكلمات والعبارات تهتز وترقص ٠

ثم أفاض القول فى الثناء على الطلبة الذين يغتنمون الفرصة المتاحة لهم فى الدراسة العلمية فهم الشموع التى ستحترق ولكنها ستضىء الطريق أمام الجزائر المتطلعة الى النور ٠٠٠

وابتهج بتولى الاساتذة الاكفاء قيادتنا أمثال بوشربية الذى قال عنه أيضا : وقد أثلج صدرى أن يكون أستاذك ومن عبد لك الدرب والذى له الاثر الكبير فى النهوض بالكلية الزيتونية من العهد والغابر يوم كانت تتعثر بين الصناعة والتقليد الى العهد الحاضر المشرق حيث أصبح الادب رسالة تقوم على الطبع والاحساس ووضوح الاداء ٠٠٠

ولما قمت بنشر كتيب للاستاذ الشرقاوى عن اثبات هلال رمضان بالطريقتين الشرعية والفلكية ، وهو مجموع مقالات كان قد نشرها فى جريدة (البصائر) سنة 1936 فجمعتها وقدمت لها ـ اهديت الى الشاعر محمد العيد نسخة منه فسر به جد سرور وأرسل الي كتابا يطفح بالثناء والتقدير والتهنئة الحارة على احياء ذكرى هذا العالم الاصولى بنشر أثر من أثاره ٠

أما عن الشرفاوى فأذكر انه قد نوه بعمله الغزير ، وفكره الواسع ، وقلمه البليغ ، ووضع بين هلالين هذه العبارة (سيذكره التاريخ برجاحة العقل ، وحرارة الكلمة ، والغيرة على الدين والوطن) ٠

والاستاذ محمد العيد يشير بهذا الى ما اشتهر به الشرقاوى من الشجاعة الادبية والجهاد فى سبيل الحق والاسلام، والى ما واجهه من مقاومة عنيفة عاتية من قبل بعض أهل الزوايا والطرقية فى زواوة ، عندما دعاهم الى التخلى عن البدع والخرافات والعمل بالكتاب والسنة فأعلنوا حربا شعواء ضده ولم يجدوا وسيلة لتحطيمه الا جربوها معه ولكنه وقف صامدا ثابتا لا يتزعزع ، وكان يقول عنهم انهم أعداء الوطن والاسلام لانهم آفة تقدمه ، وعائق رقيه ، والسوس الذى ينخر فى كيان الامة ومن ثمة وجبت مقاومتهم كما تقاوم الحشرات السامة والاوبئة الفتاكة ٠

وتوفي الشاعر الكبير محمد بوشربية فى حادث سيارة رهيب فى شهر جويلية سنة 1952 فتأثرت للحادث بالغ التأثر وكتبت مقالا كله حسرة ولوعة وتصوير للمصاب الجلل الذى أصيبت به الكلية

الزيتونية واللغة العربية نشرته جريدة (المنار) الجزائرية فى ذلك الحين وما كاد الاستاذ محمد العيد يطلع عليه حتى بعث الي برسالة حزينة يعزيني فى خير أستاذ ، وخير قدوة ، وخير مرشد ، ويبدى رضاه العميق وارتياحه الكبير لاداء بعض ما يجب علي من حقوق هذا الاديب وما أزال أذكر قوله (بالمعنى لا باللفظ) :

سيظل بوشربية فى كل كلمة يكتبها أبناؤه والادباء والمفكرون ، وفى كل قلب ينبض بحب اللغة العربية وقد عاش عالي الهمة ، كبير النفس ، على جبينه هالة القريحة ، وعلى رأسه تاج العبقرية، وسيبقى كذلك فى القلوب والنفوس .

وفى شهر فيفرى سنة 1954 توفى الشاعر التونسى الكبير الشاذلى خزندار وكانت لى علاقة به وثيقة فكتبت عنه مقالات نشرت بالبصائر فى ذلك الوقت ولم يكد يطلع عليها الاستاذ محمد العيد حتى كتب الى يشكر على وفائى لهذا الشاعر وانصافه ، ويعدد فضائله وخصائصه ويكشف عن اعجابه بعمق تفكيره ، ورهافة حسه ، وسعة خياله وتدفق شاعريته ، وصدق وطنيته ، ويصف فى تأثر عميق الخسارة العظمى التى مني بها المغرب العربى فى فقدانه وفقدان الشاعر بوشربية فى ظرف وجيز .

وساق الاستاذ محمد العيد فى رسالته هذه الابيات التى قالها من قصيدة رائعة فى تأبين الشاعر الفقيد وألقيت نيابة عنه فى حفلة التأبين التى أقامها النادى للجمعية الرشيدية بالعاصمة التونسية ونشرت فى شهر مارس 1954 بجريدة البصائر :

آه مما حل بالخضراء من
فاجع كل عزيز فيه هانا

فقدت تونس من أفاقها
كوكبا قطبيا وبدرا اضحيانا

أين منها الشاذلى المرتضى
خزندار السمح كفا وحنانا

كل ناد بات فيها نادبا
يذرف الدمع عليه ارجوانا

ولما أصدرت كتاب (وقفات ونبضات) ارتاحت نفس الشاعر الراحل محمد العيد أيما ارتياح وأثلج صدره أن يكون الشاعران التونسيان (بوشربية) و (خزندار) من فصول الكتاب وعد ذلك مبرة منى ومكرمة ووفاء لعبقريين قدما للقارىء العربى شعرا قويا صافيا عبر عن المنازع الانسانية والطموحات الوطنية للحرية والعزة والكرامة ثم مضيا ولم يوف لهما حقهما .

وعندما هممت باعداد دراسات عن القرآن الكريم عرضت على الشاعر محمد العيد الفكرة ورسمت له بكل معالمه ومحاوره فاهتز للفكرة وأعجب بالموضوع والمنهاج وعارضنى فى بعض الفصول من حيث الترتيب فاقترح تعديلا لها بعد اعادة النظر فيها فارتحت للاقتراح ورأيت أن الاستاذ - رحمه الله - أبعد نظرا وأحق فيما ارتأى . وكنت أثناء الكتابة نتبادل الرسائل الادبية حول قضايا وأغراض مختلفة وأذكر أننى فى وقت الفراغ كتبت

أقصوصة أدبية عن حورية حسناء.اسمها (ليـــلى) رأيتها تشرب فنجانا مـن القهـوة ، وسقت فيها بيتين وذكرت فيها أن (ليلاي) هذه هي التى قال فيهـا الشاعر (شبلى ملاط) هذين البيتين :

شاهدت أخت البدر تشرب قهـوة
فى سهـرة عزلت بهـا عيناهـا
لـم أدر أيـا كـان أكثر رقـة
فنجانهـا الصينى أم شفتاهـا

فأرسلتها الى الشيخ محمد العيـد فجاءنى منه كتاب قيم يسيل طرافة ولطفا ويقول فيه بالخصوص : أهل (ليلاك) هي ليلى التى قلت فيها :

أيـن ليـلاي أيـنـهـا
حيـل بيـنى وبينـهـا

هـل قضـت ديـن مـن قضى
فى المحبيـن دينـهـا

أصلـت القلـب نارهـا
وأذاقـتـه حـينـهـا

مـذ تعـرفت سـرهـا
وتعـشـقـت زينـهـا

روعتنى ببينهـا
لا رعـى اللـه بينهـا

ولم أعلم ان الابيات قد نشرت الا منذ أشهر حينما عثرت عليهـا فى (الشهاب) ج (2) و (14) سبتمبر سنة 1938 بتعليق المرحوم الاستاذ عبد الحميد ابن باديس ونصه :

جـاء فى (الاغـانى) ج 3 ص 291 ما يـلى :

أخبرنى عمى قـال حدثنا الحزنبـل عن عمر وبن ابى عمر وقال : بلغنى أن الحسن بن زيد دعا ابن المولى فأغلظ له وقال : أتشبب بحرم المسلمين وتنشد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى الاسواق والمحافل ظاهرا ؟

فحلف له بالطلاق أنه ما تعرض لحرم قط ولا شبب بامرأة مسلم ولا معاهد قـط . قال : فمن ليـلى هذه التى تذكر فى شعرك ؟ فقال له : امرأتى طالق ان كانت الا قوسى هذه سميتها (ليلى) لاذكرها فى شعرى ، فان الشعـر لا يحسن الا بالتشبيب ، فضحك الحسن ثـم قال : اذا كانت القصة هذه فقل ما شئت ..

فمن هي ليلى شاعرنا محمد العيـد ليست له قوس ولكن له مروح ، فهـل يعنى هو الآخر مروحته ؟ ان محمد العيد الذى يشعر شعور الشعب ويتخيل خيال الشعب ، لا تشغله قوس ولا مروحـة ولكن ـ لا تفتنـه وهو البلبـل الغريد فى قفص الا الحريـة فهل يوافـق على هذا بعض من ينقصهم شىء عن السياسة ليفهموا ؟) اهـ . تعليق الشيخ باديس .

وكان الاستاذ محمد العيد لا يفتـأ يسألنى عن سير عملى فى اعداد الكتاب وموعد نشره فى لهفة المشتاق، وتم الكتاب ورأيت أن أهديه الى طوائـف من بناة هذه الامة وصناع تاريخها الذين مـن بينهم رجال العلم والادب بالجزائـر فذكرت من هؤلاء الصديق الوفي الشاعر محمد العيد .

وطبع الكتاب فأهديته نسخة منـه مرفقة برسالة مطولة شرحت له فيهـا ما لا قيته من المتاعب والمشاق فى سبيل

اعـــداده وطبعـــه وتوزيعـــه وركـــزت لـــــه فيهـــا بالخصــــــوص عــــلى حالة المثقف الجزائرى وما يعانيه مـــن الاستعمار من نكد ومضايقة ومحاربـــة لا سيما عندما يتصدى للتجربة الـــتى تصديت لها بطبع الكتاب فجاءنى منـــه كتاب يبادلنى فيـــه التحســـر والتشكى ويحمل فى طياته قصيدا رائعا (لم ينشر لحد الآن) ٠

فكان مما ورد فى الكتاب ما مؤداه : ان انجاز عمل مثل هذا فى الوضـــع الشاذ الذى يعيشه المثقف الجـــزائرى أدبيا وماديا يعد عظيما بحق يجـــب التنويه به والاقتداء بصاحبه وان الامل الوطيد أن يهيىء الله لهذا الوطن أسباب الحياة ، وبهائل النجاة فقد طال الليل وفاض الاناء ونفذ الصبر فليس لنـــا مما نخفف به بلاءنا سوى هذه الزفرات الحرى نرسلها على القرطاس حـــتى يفرج الله ٠

أما القصيد فقد كان من الشاعر محمد العيد لفتة من لفتاته الروحية الى القرآن الكريم الذى أعجز الانس والجن وأحيا العرب بعد موتهم وصنع منهم قـــادة الامم وبناة التاريخ ورفعهم الى الذروة الشامخة حتى كانوا (خير أمة أخرجت للناس) ـ للكشف عن كنوزه الثمينـة والنهل من موارده العذبة والاستضاءة بنوره المبين شأن الهداة المؤمنين ٠

كما كان القصيد دعوة حـــارة الى مواصلة السير فى هذا الدرب رغــــم ما يحف به من متاعب ومخاطر ، والله تعالى خير معين فيه ونصير ٠
وفى هذا يقول :

أورد حجـــاك مـــوارد العرفان
فهي المنـــاهـل للحـجى الظمآن
واصقـل بها مرآة ذهنـك دارسا
ان العلـــوم صياقـل الاذهـــان
قـــد خصهـــا القرآن فى آياته
بثنائـــه البـاقى عـلى الازمان
وقضى بهـا الاسلام فى أحكامه
فغدا بـــذلك سيـــد الاديـــان
وأبان أربـــاب الهـدى ببحوثها
نهـــج الهـدى للتائـه الحيران
وتدارســوا القرآن فاكتشفوا بها
ما فى مناجمـــه مـــن العقيان
أفواههـــم تحتـــج لاهجـــة بـه
وقلوبهـــم تهتـــز بالايمـــان
واذا طلـبت لهـم مثالا صادقا
فاقــرأ كتـــاب (مقاصد القرآن)

ثـــم يثـنى عـــلى الكـــاتـــب والكتـــاب بمـــا لا أقـدر عـلى اثباته هنا بل أخجل من عرضه وهـــو يعكس ما اشتهر به الشاعر من سمو الروح ، وكرم الخلق ، وصدق الشعور ، ونبل الاحساس ثم يصور تأثره البالغ بالاهداء ، ويكشف قلمه عمايحاول دائمـــا أن يستره أو أن ينكره من مكانة أخلاقية فذة لا يتيسر ادراكها الا لمن أحبه الله تعالى واصطفاه وذلك بالتواضع الجم الذى عبر عنه فى هذه الابيات :

يا مهدى (العلق) النفيس الى من
لى أن أقـوم بواجـب الشكران ؟
من ذا الذى يعطيـك أجرك كاملا
لبضاعـــة جلـت عن الاثمان ؟

الا الـذى أنشـاك نشأة عفـة
وسخـا عليك بجوده الهتـان ؟
أخجلتنى بجميل صنعك مغمضـا
عينيك عن عجزى وعن نقصـانى
هيهـات أن أنسى صنيعـك أنـه
لنـزه عنـدى عن النسيـان

ثم يهنىء المؤلف ويشير الى مضايقات وضغوط استعمارية كان يعيشها عنـد اعداد الكتاب وطبعه ويحثه على اتمام المخطط فى محيط القرآن ويقول :

يهنيـك انـك فى كتابـك حائـز
ما شئت من حسن ومن احسان
لم تثنـك الاحداث عنه وان طغت
وكذاك تفعـل همـة الشجعـان
أتقنتـه وضعـا وطبعـا فانتهى
رغـم الظـروف لقمـة الاتقان
واصـل نشاطـك بعد أول جزئه
حـتى تعقبـه بـجـزء ثـانى
أرضيـت ربـك فى تدبـر ذكره
فجـزاك ربـك عنـه بالرضوان

وكتبت اليه عن مأساة مروعة وقعت لفتاة رائعة الحسن والجمال زفت الى القبر يوم عرسها فجاءتنى منه قطعـة شعرية تعبر عن عاطفة جياشة ، وتنطق كل كلمة منها بلوعة حسرة من مشاهد البؤس والشقاء التى يفاجئنا بها الدهر من حين لآخر، وانقطاع حبل المراسلة بينى وبين الشاعر محمد العيد لظروف الثورة التحريرية • واستقلت الجزائر ، وتفقدت كتبى وأوراقى التى غبت عنها طويـلا فوجدتها قد ضاعت كلها تقريبا ولم تبق الا بعض أوراق خفيت عن عيـون المستعمرين ، فكاتبته مهنئا باستقـلال الجزائر ومستفسرا عن طوال السبـع الشـداد • وطالبـا منـه أن يوافـينى بالقطعة الشعرية المـذكورة اذا كـان محتفظا بها فجاءنى منه رد يفيض فرحا وطربـا • ويقول فيه بالحرف الواحد : (أما القصيد فلم أعثر عليه مع الاسف الشديد وكلنا فى البلاء سواء ، فلـو شرعت أقص عليك ما حل بى وبكتبى وأوراقى لما وسعت شرحه الا عشـرات القراطيس ، فالحمد للـه الذى أحيانا الى هذا العهد الحر السعيد وعـلى الماضى العفاء :

مـا مضى فـات والمؤمل غيب
ولك الساعـة الـتى أنت فيـها

وكاتبته بشأن كتاب أعده عن حياة طائفة من الابطال ورجال الفكر بالجزائر وبعض الشعوب العربية والاسلاميـة وسجلت له قائمة بأسماء من كتبت عنهم أو هم فى مخطط الكتاب فاهتز للمشروع بهجة وسرورا وأرسل الي كتابا يشكر ويهنىء مع أبيات ذكر لى أنها من قصيدة طويلة بعنوان (وحي الثورة والاستقلال) سجل فيها أهم أحداث الثورة الجزائرية وكثيرا من الاحداث العربية الهامة وذكر أنه يعتزم طبعها مستقلة وقد نشر بعضها فى ديوانه وهذه أبيات من المجموعـة التى أرسلها وهي ـ فيـما أعتقـد ـ غير منشورة لحد اليوم والمجموعـة تبلغ (28) بيتا :

نحن الحماة لشعبنا بدمائنا

وشهودنا شهداؤنا امترى

البالغون لالف الف كثرة

فى العد أو من ألف ألف اكثرا

الطامحون الى الصحابة نزعة

يقفون (حمزة) فى الجهاد و (جعفرا)
مثل (التبسى) الوطنى (داعى الهدى)

و (ابن المهيدى) الفتى حامى الذرى
أو (مصطفى بولعيد) والحواس أو

(ديدوش) أو (زيغوت) آساد الشرى
واذكر من الشهداء (عيسات) الذى

وفى و (لطفى) الجرىء المسعرا
واذكر (عميروش) الرهيب و (طاهرا)

والشهم (عبان) الاشاوس منظرا
واذكر من الشهداء (البوانت) الذى

فى القصبة العليا تحدى العسكرا
واذكر من الشهداء (حوحو) كاتبا

حرا و (حيحى) ثائرا ومشورا
ورفيقى الشعر (الربيع) ونده

(عبد الكريم) فواجب أن يذكرا
واذكر (عمودى) البلاد أديبها

واذكر بها (مولودها) المتحررا
واذكر (حسيبة) واحتسب ما نالها

واذكر (فضيلة) للفضيلة مكبرا

ان الشهادة فى الجزائر أصبحت

عليها بالسعادة بشرا

وقد ذكر الشاعر محمد العيد فى هذه المجموعة جميع أسماء الذين أدرجتهم فى كتابى (فى موكب الخالدين) الا (عبد الكريم العقون) و (فضيلة) و (العمودى) ولم أدر اذا كانت هذه المجموعة أنشأها بعد قراءته لرسالتى أم كان ذلك من قبيل الصدفة ·

وسيتمدد بنا الحبل ويتسع المقام اذا أنا تصديت بالملاحظة والتعليق لكل الرسائل التى تبودلت بينى وبين الراحل العزيز أمير شعراء الجزائر محمد العيد ولمعالم الصداقة الوثيقة بيننا وحسبى ما ذكرت تحية صدق ، ودمعة وفاء ، ولوعة محزون ، حتى أتمكن من الوفاء له بأكثر من هذه اللمحات والخواطر ·

وبعدفقد مات الشاعر محمد العيد والتحق بالشعراء الذين سبقوه أمثال بوشربية وخزندار وانضم الى الرفاق الذين مضوا قبله أمثال ابن باديس ، والميلى ، والتبسى ، والابراهيمى ··· ومن ذا الذى لا يموت ؟

والبرايا للمنايا عرضة

كلها تصلح أخبارا لكانا

كلها تفنى ولا يبقى سوى

من تعالى عن جميع خلق شانا (1)

فوجود الانسان فوق هذا النجم السفلى أمر عارض فى الحقيقة سرعان ما يزول ويختفى وانما الفكرة التى جاهد فى سبيلها وعاش من أجلها هي الجوهر الثابت الباقى الذى لا يزول ولا يفنى ·

---

(1) من شعر محمد العيد

فالفكرة التى عاش من أجلها محمد العيد وجاهد فى سبيلها بفطرة ملهمة، وطبع شعرى أصيل ، وموهبة مبدعة ، وعقيدة راصية ، وايمان راسخ ، باقية ما بقيت الحياة هي الوطن ، والاسلام، والعروبة ، وقد زودها بثراء لا ينضب وزودته بحياة لا ينال منها الموت والفناء، وسيذكر محمد العيد بالاشادة والحب والتقدير كلما ذكر هذا الثالوث المقدس، ثالوث وجودنا وحياتنا وبقائنا ٠

وسيظل الشاعر محمد العيد فى كل قلب وعلى كل لسان ليس فقط لانـــه كان فى دنيا الحياة كالفراشة الجميلة تحوم على الزهر ، وترف على المـاء ، وتنتقل فى الحدائق الغلب بين زهـرة وأخرى لتمتص الرحيق ثم تمجه دواء وشفاء ولا لانه كان فى قيثارة الحياة وترا حساسا يثير دفائن الاسى حينا ، ويموج نسائم الامل حينا آخـــر ٠٠٠ ليس هذا فحسب وانما أيضا وقبل كل شىء لانه شعلة من الوطنية الصادقـة تتقد فى آفاق واسعة لا يعرف لها حد ، وطاقة هائلة من الايمان الايجابى البناء، وقلب عظيم يتدفق حيوية وحبا ووفاء ٠٠٠

لقد كانت الحياة فى عهد الاستعمار الفرنسى البغيض مظلمـــة ، معتمة ، رهيبة ، موحشة ، وكان الشاعر الراحل محمد العيد واحدا من الشموع القليلة التى تضىء أعماق النفوس ، وتبعـث فى القلوب الانس والبشر ٠٠٠

ولما أشرقت شمس الحرية وانقشع السحاب ، وتبدد الظلام ، وعمت الفرحة، وأهل عهد جديد انطلـق محمد العيـد يشدو حرا طليقا ، وينشـد مبتهجـــا طروبـــا :

وطنى المفدى بالكفـاح تحـــررا
ومصيـره بعـد النجـاج تقررا
فابن الجزائـر صار سيد أرضه
والغاصب المحتـل ولى مدبـــرا
يا يوم عيد النصـر صفوك قد جلا
ما كـان ران على القلوب وكدرا
ذكراك ملء القلـب حاضـرة به
هيهـــات أن تنفـك عنـه وتعبرا
أقـررت أعيننـــا فكـل مواطـن
لك هاتـف يعـلى الهتاف مكررا

رحم الله شاعر الجزائـر محمـــد العيد ٠٠

لقد انطفأ بموته السراج الوهـــاج الذى طالما أضاء الحياة ٠٠٠

وذبل الغصن النضر الذى طالما أثمر أشهى الثمر ٠٠٠

ونام النومة الاخيرة ذلك العقل النير الذى طالما نفذ الى أعماق الاشياء فاستنبط واستجلى وعلل وحلل وسكن القلـــب الواعى الذى طالما نبض بمعانى الحياة، وأسرار الحياة ، وحقائق الحياة ٠٠

فيـــا أرواح الشعـراء والعلـماء والمفكرين لقد جاءتكم روح أخيكـــم (محمد العيد) فيا أنسكم به ، ويـــا وحشتنا بفراقه ٠

مزيدا أيها الصديق !..

محمد نسيب

كلما قرأنا بحثا أو مقالا أو كتابا للاستاذ محمد الصالح الصديق الا هز شعورنا وحرك عواطفنا والهب حماسنا، فتولدت الرغبة وانفتحت الشهية ، فطلبنا المزيد فيستجيب الاستاذ لطلبنا ويلبى رغباتنا فلا يبخل علينا بما آتاه الله من علم ومعرفة ، فلا يحتكر ما عنده بل يبذله فى كرم وسخاء ·

لقد قرأت أول كتاب للاستاذ وهو لا يزال طالبا فى جامع الزيتونة منارة المغرب الاسلامى ، وقلعته وحصن اللغة العربية طيلة عهد الاستعمار البغيض ولياليه الحالكة ·

ان أول زهرة تفتحت أكمامها فى حقله وانتشر أريجها فى الجو فحام حولها الفراش ومص رحيقها النحل وصدح فوقها الطير (أدباء التحصيل) فى أربعة أجزاء ثم تابعه انتاج غزير (مقاصد القرآن) (الجزائر بين الماضى والحاضر (صور من البطولة فى الجزائر) (عميروش) (من قلب اللهيب) (وقفات ونبضات) ·

واليوم يقدم لنا كتابا جديدا غزير المادة شيق الاسلوب سهل الالفاظ دقيق التعبير عميق التفكير يجلب النفوس ويسحر الالباب ·

وان كان اسم الكتا بيرهب الجبناء ويفزع الكسالى ويقلق الخملاء وتقشعر جلودهم وترتعد فرائصهم عند سماع هذ الاسم « الدروب الحمر » ·

ولكن هذه الدروب يعشقها الابطال ويتغنى بها الاحرار والعظماء وتقتحمها الشعوب المستعمرة المظلومة المضطهدة ·

لولا هذه الدروب الوعرة الرهيبة الموحشة ما استقلت الجزائر ، ولا تحررت من قبضة الاستعمار ، ولا تخلصنا م نالنظام الاقطاعى المستغل ·

« فالدروب الحمر » تتحدث عن نضال الرجال بالدم والقلم ، وصمود المجاهدين للعقبات والمغريات ، واهل الكلمة الحرة الابية ··· النزيهة الصادقة الواعية المسؤولة ·

ان هذه الدروب التى يتحدث عنها الاسناذ الصديق هي دروب الحرية ، والعزة ، والكرامة ، والمحد والسيادة ·

انها دروب الاحرار مى كل زمان ومكان ، ومسالك الابطال عبر القرون

والاجيال ، وستظل ملجأ للمظلومين والمضطهدين والمستعبدين والمحرومين فى هذا العالم ، الملىء بالجبابرة والطغاة، بالظلم والاضطهاد ، والاقطاعيين والمستغلين والحكام الجائرين المستبدين المتسلطين على الضعفاء والفقراء الذين يستغلون جهودهم ويمصون دماءهم ويشربون عرقهم ٠

وستبقى « الدروب الحمر » معبدة ومفتوحة أمام هؤلاء المعذبين الذين ضاق بهم الافق وعبست الحياة فى وجوههم واظلمت أمام أعينهم ٠

رحم الله الشاعر التونسى الثائر أبو القاسم الشابى الذى يخاطب طغاة العالم فيقول :

ألا أيها الظالم المستبد
حبيب الفناء وعدو الحياة
سخرت بأناة شعب ضعيف
وكفك مخضوبة من دمائه
حذار فتحت الرماد اللهيب
من يبذر الشوك يجنى الجراح
سيجرفك السيل سيل الدماء
ويأكلك العاصف المشتعل

نعم سيأكلهم العاصف المشتعل ، وسينفجر البركان تحت أقدامهم ، وتحرقهم هذه الانفاس الكاظمة ٠

أين الاستعمار الفرنسى ؟ الذى جثم على الشعب الجزائرى أكثر من قرن وربع قرن على عرش الحكم وركز نفسه دعم أسسه وبسط نفوذه على قارة افريقيا ، وانتشر كالطاعون وامتد حتى الهند الصينية ٠

واين بريطانيا العظمى التى ملكت آسيا جوا وبرا وبحرا ودانت لها الرقاب وانحنت لها الرؤوس وانقادت لها الشعوب من أصفرها واسمرها وأسودها وكانت تصرف فيها كما تتصرف فى البضائع ؟؟؟ ٠

أين هتلر الطاغى الجبار الذى حاول ابتلاع العالم ٠ وبناء مجد ألمانيا بجماجم الضحايا وأشلاء البشر ؟؟

لولا هذه « الدروب الحمر » ما تحررت تلك الشعوب كلها ولا ارتفع فيها علم وطنى ولا انطلق فيها الانسان فى طريق الحياة يبنى المستقبل ويصنع التاريخ ٠

« ان الدروب الحمر » وعرة رهيبة موحشة يلفها ظلام دامس ، ومحفوفة بالاشواك الدامية ومفعمة بالمخاطر والاهوال ، فلا يسمع سالكها الا الصياح والانين ، ولا يفتح عينيه الا على المشانق ، ولا يرى الا الجلادين الغلاظ القساة يترصدونه ٠

ولكن الايمان أقوى من الجلادين والعزيمة أمضى من سلاحهم ونور الامل يمزق جلابيب الظلام ويزيح الستار عن الابصار ويبدو لهم نور الفجر فى كل آفاق ، فلا قوة تقف أمامهم ولا حاجز يفصل بينهم وبين ذلك النور المنبثق والشعاع الذى يخترق الصدور ويصل الى القلوب ويبعث فيها الراحة والاطمئنان فأيقنوا ان كل ليل يعقبه صباح وكل



ظلام وراءه نور يطارده ويمح آثاره ويكشف سره وخفاياه ويعلن عن نهايته ٠

ان الذين سلكوا « الدروب الحمر » ويسلكونها هم الذين تربوا على مبدإ الالتزام بالايمان ٠

وحين يوجد ملتزمون بالايمان تهون أمامهم نفوسهم وأموالهم وأولادهم ٠

وحين يسترخص الانسان ذلك فى سبيل الله يكون جندى الحق على استعداد لان يدهم الباطل مهما كانت قوته ومهما كان جبروته الالتزام الذى جعل العبد كله نفسه وعاطفته وغرائزه وأمواله ملكا لذلك الالتزام ٠

وهذا الالتزام هو الذى عبأ جيوش المسلمين فى كل المعارك وجعل الواحد من المسلمين يتلقى أباه والاب يتلقى ابنه ٠

وكلما عدنا الى الاسلام عاد الينا هذا الالتزام فوجدنا الملتزمين الواعين فى المجتمع الاسلامى ، فيحدثون التغيير ويغيرون المجتمع وفق هذه السنة ٠

« **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » ٠

ان مبدأ الالتزام نابع من شخصية الفرد بدون اكراه ٠

وحين يقبل الانسان على العمل بوعي وحب ورغبة تهون عليه الصعاب وتذلل أمامه العقاب وهذا ما نشاهده ونقرأه فى « الدروب الحمر » عندما نرافق سالكيها أصحاب المبدأ والالتزام ، أصحاب الهمم العالية والاخلاق الرفيعة والطموحات البعيدة الذين يحققون المستحيل ويصلون الى الغايات ولله در الشاعر العربى اذ يقول :

«اذا ما طمحت الى غاية
ركبت المنى ونسيت الحذر »
« ولم أتجنب وعور الشعاب
يعش أبد الدهر بين الحفر »
« ومن لا يحب صعود الجبال
ولا كبة اللهب المستعر »

ان الاستشهاد هو الطريق الوحيد من أجل نصرة الحق وبعث الامة الى الوجود واسترجاع حريتها وصون كرامتها الانسانية ، فالذين قدموا أرواحهم فداء لفتح عهد جديد ولكسب معركة جديدة فى كفاح الشعوب الاسلامية ضد الذوبان والفناء ، قد استشهدوا من أجل انتصار مبادئهم واثبات وجودهم المعبر عن عقيدتهم ولغتهم وتاريخهم ٠

ان الامة التى لا تؤمن بنفسها لا وجود لها ، فاذا لم يكن لشعب طابع خاص يعبر به عن نفسه وخصائصه ومميزاته فلا وجود له ٠

ان « الدروب الحمر » تروى لنا قصة شعب وما عاناه من محن وآلام وما قاساه من عذاب وجراح وما ذاق من بؤس وحرمان ، وما تجرع من مرارة العبودية والاضطهاد ٠

انها قصة شعب عاش أكثر من قرن وربع بين الموت والحياة وهو يصارع الاستعمار الوحشى وما يحمل من وباء وشر طغيانه وعجرفة جبروته بلا هوادة ولا استسلام ·

انه شعب يريد الحرية والسيادة ، ويريد الحياة كسائر الشعوب ، ولكـــن الاستعمار يريد استعباده واذلالــــه وتسخيـره واستغلالــه بل يريد فناءه وابتلاعه كلقمة سائغة ، ولكن اللقمـة كانت شجا فى حلقه أودت بحياته ·

لقد حاول الاستعمار اقتلاع هـــذا الشعب وازاحته فوجده جبلا راسيـــا لا يتزحزح ، قوى الاركان لا يتهـدم ، عميق الاسس لا يتزعزع ، طويل الجذور لا يقبل الاقتلاع فحاول تحطيمه وتفتيته فوجده صلبا قاسيا كصخور جباله ، لا يتحطم ولا يتفتت ·

هكذا تروى لنا « الدروب الحمر » بطولة شعب وما قدمه من تضحيـــــة وفداء ، وكيف صنع جسرا من الجماجم والاشلاء فوق نهر الدماء تعبرهـــــا الاجيال نحو الحرية والاستقلال وتذكرهم أبد الدهور بتضحية الاسلاف والاجداد، والمهور الغالية التى قدمها الآباء ·

وكم شربت هذه الدروب من دمـــاء الاحرار أهل العقيدة والايمان من شجرة الحرية التى تهدلت أغصانها واينعـــت ثمارها ليقطفها الكبير والصغير والقوي والضعيف والغني والفقير ·

كم فى هذه « الدروب الحمر » من دروس بليغة وعظات رائعة ، تعكـس شيم الابطال واخلاق المجاهدين الملتزمين بالايمان فى أيام الحرب والسلم ، وفى أيام الرخاء والشدة ·

ولعل أبرز الصفات المحمودة فيهـــم هي : نكران الذات والتجرد من الحقـد والكراهية ، والانانية وراحوا يعملون على تقوية الامة والاعتزاز بالشخصية الاسلامية والوطنية وما تتضمنه هـــذه الشخصية مـــن دين ولغـة وتاريـــخ وحضارة ·

ان شخصية أمة من الامم ليست شيئا اصطناعيا ثانويا بل هي شجرة تضرب بجذورها فى أعماق تلك الامة ، وان عظمة أمة من الامم ليست فى المظاهـر العابرة. اذن يمكن لامة فى التاريخ أن تعيش وتبقى على أساس تذبذب الشخصية عن طريق والتبعية أو تغيير الجلدة لكل فكرة وافدة أو غاز منتصر ، أم ان لأية أمة من الامم ركائز ثابتة لا تقبـــل الاهتزاز مهما اعتراها من وهن وضعف وهي تتمسك بقيمـها وتحافظ عـــلى أخلاقها وتعتز بشخصيتها فلا تـــرى عنها بديلا ، مهما كان هذا البديل ·

هـــذا بعض ما نقـرأه فى « الدروب الحمر » ويتجلى بوضـــوح لكل قارىء بامعان وتدبر ، فيكشف القناع ويزيح الستار عن تاريخنا المجيد ويبرز تلـك الشخصيات الفذة ويحيى تلك البطولات النادرة المنسية فتكون قدوة لجيلنـــــا يستمد منها قوة ويتخذ منها صلابــة

وصمودا ويتخذها منهجا لحياته وقاعدة لانطلاقة تجعله يتوقد ايمانا ويتفجر حماسا وشجاعة ٠

« لم يضعف المسلمون ولم يقعوا تحت أيدى المستعمرين الا حينما تخلوا عن عقيدتهم الاسلامية التى من طبعها العزة والكرامة والاستهانة بالموت فى سبيل اللــه » ٠

ان الايمان بالله هو الذى جعل بلالا العبد الحبشى المملوك يتحدى سادات قريش ويتحرر من عبوديتهم ومن عبادة أصنامهم الى عبادة الله وحده ويتحدى الجلادين القساة وكل أساليب العنف والقهر ٠٠٠ وكل أنواع العذاب المسلطة عليه وكانت السياط لا تزده الا التهابا ٠

وكلما اشتد عليه العذاب أزداد ايمانا وثقة وقوة وكلما تفننوا فى تعذيبه صلب فى موقفه وثبت على مبدئه فحير المشركين واقلق طغاة قريش ، وجبابرهم، ربما يستطيعون تحويل جبال مكة ولا يستطيعون تحويل الرجل المؤمن ، وكلما طلبوا منه أن يكفر بدين محمد صلى الله عليه وسلم ويعود الى أصنامهم أجابهم بكلمة واحدة تملأ الدنيا نورا وجلالا وعظمة ويردد الكون صداها « أحد أحد » وتثير الرعب فى قلوب المشركين ، وينتصر بلال الصحابى الجليل وتنهزم الفئة الباغية الكافرة ٠

« ان الدروب الحمر » هي العلامات البارزة فى جهادنا ونضالنا وفى تاريخ ثورتنا التحريرية تعبر بصدق عن آمالنا وتقاليدنا ، وهي جديرة بالعناية والاهتمام والسلوك لاستمداد الحياة والقوة وضمان البقاء ٠

ان « الدروب الحمر » جسدت أنبل ما فى الانسان العربى المسلم من القيم والاخلاق العالية وأروع معانى التضحية والفداء والنزوع نحو الافضل ونحو خدمة المبادىء والاهداف السامية ٠

ان الاستاذ الصديق استطاع أن يضع جسرا قويا ممدودا بين الماضى والحاضر تمر عليه الاجيال عبر العصور فيجدد لنا تلك الصفحات المشرقة من تاريخ أمتنا العربية الاسلامية وبذلك يذكى حرارة إيماننا ويفجر طاقتنا ويجدد عزمنا وآمالنا ويعطينا شحنة جديدة ودفعة قوية لنواصل سيرنا ٠

ان جسر التواصل والاستمرار سيظل قائما وممدودا على الدوام ٠

ان تواصل الايمان والاستمرار التاريخى هو الذى يبعث الشخصيات الاسلامية وبطولاته ويجعلها تتجدد باستمرار فى كل عصر وتحيا فى كل مكان ، هذا الجسر التاريخى هو الذى جمع بين بلال وابن مهيدى وبين الخنساء وفاطمة جناد وبين خبيب وزبانة رغم المسافة الجغرافية والبعد الزمنى انها أربعة عشر قرنا تفصل بينهم ولكن التاريخ يعيد نفسه ٠

لقد وحدهم الايمان وجمعتهم العقيدة وربطهم المبدأ ٠

ورابطة المبدأ هي الرابطة القوية المتينة وليست الرابطة القوية والوطنية ·

والمبدأ هو الذى ربط بين محمد العربى صلى الله عليه وسلم وسلمان الفارسى وصهيب الرومى وبلال الحبشى ومع انهم مختلفو اللغات والقوميات والتقاليد ·

والمبدأ هو الذى باعد بين محمد صلى الله عليه وسلم وابن سفيان وأبى جهل وأبى لهب مع انهم من قبيلة واحدة وقومية واحدة ولهم لغة واحدة ونفس العادات والتقاليد ·

وعلى هذا المبدأ تأسست الدولة الاسلامية الكبرى وضمت تحت لوائها أجناسا وألوانا ، فوحدت بين العربى والتركى ، وبين الفارسى والصينى ، والحبشى والرومى ، والسودانى والبربرى ، شعارهم جميعا لا اله الا الله محمد رسول الله ·

وعلى هذا المبدأ قامت الثورة الجزائرية وانطلقت مسيرتها ، شعارها التحرر من العبودية والسيطرة الاجنبية واقامة دولة اسلامية أساسها العقيدة ودستورها القرآن ·

ان مقدرة الكاتب ونبوغه وعبقريته تتجلى فى كل قصة وتبرز فى كل جملة وكان كل سطر دربا من «الدروب الحمر» ·

وكل قصة من قصص « الدروب الحمر » لوحة فنية رسمتها ريشة فنان عبقرى تبدو فيه قوة الشخصية وشبوب الاحساس وتوقد الشعور وخصوبة الفكر وغزارة منابع الوحي والالهام ·

ومما نلاحظه باعجاب عند الاستاذ محمد الصالح الصديق هو تسلسل الافكار وتناسق الالفاظ ، وترابط الاحداث فهو يمزج الشخصيات بعضها ببعض ويصبها فى قالب واحد ويعطى لها صفات ويضفى عليها ألوانا زاهية فلا تكاد تميز أو تفرق بين ذا وذاك ·

هذه هي مقدرة الكاتب وبراعة قلمه الذ ىيصنع الشخصيات ويعطى لها الحياة ويبعثها الى الوجود فى ثوب قشيب فيجعلها حية قوية نموذجية بعد عدة قرون وآلاف السنين فمثلا عندما يقارن بين بلال وابن مهيدى ، وبين خبيب وزبانة ، والخنساء وفاطمة جناد ، ترى التاريخ قد أعاد نفسه وأنت تقرأ فى مذهب تناسخ الارواح ، هؤلاء الشهداء والعظماء تتقمص بعضها بعضا وتتنقل بين الاجيال من شخص الى شخص وتظهر فى كل مكان ·

ان الذى جمع بين بلال وابن مهيدى ووحد بين خبيب وزبانة وربط بين الخنساء وفاطمة جناد ، هؤلاء فى أقصى صحراء الحجاز وأعماق الفيافى والآخرين فى آعالى جبال الجزائر ـ وقمم الاوراس وجرجرة وونشريس هؤلاء جميعا يربطهم رباط واحد ، (الايمان) الذى حرر بلالا من الرق والعبودية وجعله حرا طليقا ، كذلك صنع ابن مهيدى وحوله الى قلعة صامدة فى وجه الاستعمار الفرنسى وآلاته الجهنمية بصبر وايمان ،

فاستطاعت الطغمة المجرمة أن تنتزع جلدة رأس ابن مهيدى ولكنها لن تستطيع نزع سر واحد من صدر البطل الشهيد الذى باع روحه لله « **ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة** » ·

ما دامت البشرية مجردة من الايمان بعيدة عن الله ، متنكرة لشريعته فلا تذوق حلاوة السعادة ولا تشعر براحة البال والامن والاستقرار ، ما دامت الجاهلية مسيطرة عليها متغلغلة فى أعماقها تتولد الحقد والكراهية وتتغلب عليها الانانية التى تقودها الى الخراب والدمار ···

انها محنة يتعرض لها المؤمنون والضعفاء فى كل زمان ومكان ، فهم فى صراع دائم وقتال مرير مع الجاهلية والجاهلين ·

ان جاهلية القرن العشرين المتحضرة المتفتحة المتطورة أبشع وافظع ، من الجاهلية الاولى المتخلفة المتوحشة المتطرفة فلا تزال الروح الجاهلية سائدة مسيطرة على المجتمعات البشرية الضالة ·

ان الافكار التى كانت تسود المجتمع الجاهلى والاعمال التى كان يمارسها كفار قريش ضد المؤمنين هي نفس الاعمال والاسلوب الذى اتخذه اليوم أعداء الاسلام ضد المسلمين فى كل مكان ·

فالذين عذبوا بلالا هم الذين عذبوا ابن مهيدى ونزعوا جلدة رأسه ، والذين صلبوا خبيب هم الذين شنقوا زبانة « **وما نقموا منهم الا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد** » ·

وكلما تغلغلت المادة فى قلوب البشر تغلغلت فيهم الجاهلية وضربت جذورها فى أعماقهم ، أطلقوا العنان وجمحت نفوسهم وبرزت أفاعى الشهوات وزحفت على دنيا الناس ، وكلما تفوقت فى العلوم الاقتصادية والصناعية هبطت الانسانية وانخفض صوتها فتفوقت الجاهلية فوق المتفوقين كما قال الشاعر الجاهلى :

ألا لا يجهلن أحد علينا · فنجهل فوق جهل الجاهلين

وكلما تفننوا فى البنيان والعمران تفننوا فى وسائل التدمير والتخريب ···

« **يخربون بيوتهم بايديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا اولى الابصار** » ·

وهكذا تتجلى الحقائق فى « الدروب الحمر » بوضوح وتبرز تلك الشخصيات التاريخية والمواقف البطولية الفذة النادرة فى كل بلد الا فى الشعوب الاسلامية المؤمنة الصادقة الملتزمة التى تتحاسد أبناؤها على الشهادة ويتسابقون الى « الدروب الحمر » ويكتبون صفحات التاريخ بدمائهم ويشقون الطريق ويمهدونها للاجيال والاحفاد ·

ان شعبنا كان ولا يزال لا يعرف الا لغة الايمان ، اذا خاطبته بلغة الايمان اندفع كالسهم وتدفق كالينبوع ، وتفجر كالبركان ، فلغة الايمان هي لغة الاسلام فى كل مكان وفى كل عصر وجيل ، انها أقوى وأفصح وأبلغ من كل لغة ، بها

تحررت الامة العربية ـ الامية منذ أربعة عشر قرنا من عبودية الاصنام وتحررت الجزائر من الاستعمار السياسى والعسكرى وبها تتحرر اليوم من الاستعمار الثقافى والحضارى والصناعى والاقتصادى ، انها لغة التحرر والانطلاق والبناء والتشييد ، انها لغة الوحدة والقوة والترابط والاخاء ، والايثار والنضال ، والتضحية والتفانى من أجل المبدأ ، انها لغة التفاعل والتجاوب التى تصل الى القلوب وتخترق الحواجز وتمس العواطف وتحرك الشعور ٠

كيف استطعنا أن نطرد جيوش العدو من بلادنا ونحطم أكبر دولة استعمارية ارست قواعدها فى أرضنا ومدت جذورها فى أعماق افريقيا ، وبسطت نفوذها على تلك الشعوب الضعيفة المقهورة ٠

تمكننا من ذلك بفضل هذا الايمان الدافق الموجود فى نفوس الشعب وسلامة القلوب وصفاء النفوس ، فاستطعنا بهذه النفوس السليمة القوية الممتلئة بالحياة والنشاط المملوءة بالثقة والاعتزاز ، ان تشق « الدروب الحمر » وتقتحم العقبات وتتغلب على جميع الصعوبات هذه الصور النضالية البطولية المثالية التى نشاهدها فى « الدروب الحمر » ٠

الاستاذ الصديق حطم كل الحواجز فاقام جسرا بين الماضى والحاضر ، فكان التفاعل والتجاوب بين العهدين والترابط والتواصل بين الجيلين ٠

لقد أعطى لنا الاستاذ الصديق صورة صادقة عن الايمان ودوره فى تكوين الاشخاص وبناء الامم وفعلا رأينا كيف صنع الرجال الذين ايقظوا الامم وحركوا الشعور وحولوا التاريخ وصنعوا الاجيال الذين صنعوا الاستقلال وزحزحوا اركان الاستعمار فى كل مكان وأطاحوا بعروش الطغاة وأقلعوا جذور الاقطاعيين الذين ملأوا الدنيا فسادا وجورا ٠٠٠ سيظل الزمان يحمل ذكراهم ، ويردد صداهم على مسمع الاجيال أبد الدهور ٠

فهذه الخنساء الشاعرة العربية عند مقتل أخيها صخرا فملأت الدنيا بكاء وعويلا ٠

« يذكرنى عند طلوع الشمس صخرا
وأذكره لكل مغيب شمس »

وقصائدها الفياضة كثيرة ، وبعد ذلك أسلمت الخنساء ، وكان لها بنون أربعة حضروا معركة القادسية فقتلوا جميعا !

هذه التى ظلت تبكى طيلة حياتها أخاها ، كيف استقبلت نبأ موت أبنائها ، فقالت : « الحمد لله الذى شرفنى بشهادتهم ، وأسأل الله أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته » ٠

تلك هي ضريبة الالتزام ، وتغلغل الايمان فى أعماقها ٠ قال عمر لها . « أتبكين على أخيك وهو كافر ؟ » ٠

« قالت : ان بكائى عليه واجب لاننى كنت أبكى له لنفعه لي والآن أبكى عليه لدخوله النار » ٠ انقلبت المعايير بواسطة الاسلام فى نفسها وانظروا أيضا لفاطمة جناد الجزائرية الريفية فهي صورة مثالية

للمـــرأة المسلمــــة فى القـــرن العشرين حتى لا تظن ان هذه الصـورة المعروضة خيالية أسطورية تاريخيـة لا توجد الا فى بطون الكتب ولا تعيش الا فى ضمير الزمان ، ولا يمكن أن تتجدد فى عصرنا هذا الذى طغت فيه الشهـوة على الضمير ، والعاطفة على العقل ، والمصلحة الفردية على مصلحة الامـة والجماعة ، وحب الدنيا على الآخـرة ، ولكن فاطمة جناد الجزائرية القرويـة الساذجة أبت الا أن تحيى المرأة العربية المسلمة وتعلن عن وجودها وتبعثها الى الحياة فى ثوب جديد ، وتعـيد لهـا شخصيتها القويـة وجمالهـا الطبيعى واثبات وجودها بمعانيه وفعاليته هذه المرأة الجزائرية المسلمة التى هـزت الاستعمار وزعزعت أركانه وقوضـت بنيانه ، بالعقيدة والايمان ، وبالتربيـة الاسلامية والتقاليد العربية • لا باللغـة الفرنسية والتبعية الثقافية والتقاليـد الاجنبية والمسحوقات الباريسية ، هذه اللبوءة الهصوة الـتى ابتسمت أمـام الشدائد واعطت شبلها الوحيد الغالى وأملها المشرق ومستقبلها البسام ••• للوطن العزيز وتدفعه للمعركة وتجعلـه وقودا للثورة التحريرية وتحرضه على الجهاد فى سبيل اللـه وتـقول له : ان عشت عشت حرا وان مت مت شهيدا لا أريد أن أراك يا ولـدى الا منتصرا أو شهيـدا •

وبعد هذه الكلمة الحارة المتؤججـة انصرف الشاب والتحق بالثورة وانضم الى اخوانه المجاهدين وقاتل حتى استشهد وسقطت جثته بين أيدى الجنود الفرنسيين كأنهم ظفروا بصيد ، فحملوا جثتـه الى القرية وهم يفتخـرون كعادتهـم بأعمالهم الاجرامية الوحشية ليفزعـوا أم الشهيد ويرهبونها وطرحوا الجثـة فى طريق القرية ليراها الجميع •

فجاءت الام لتعاين الجثة وترى ابنها الوحيد ، وتلقى عليه النظرة الاخيرة فما كادت تراه حتى عصر الحزن قلبهـا واحترق كبدها ، فانسكبت من عينيهـا دمعتان حارتان ، وسالتا على خديهـا لامعتين كاللؤلؤتين ، وهـذا من طبيعة الامومة ، ولكنها سرعان ما استرجعت قوتها وشجاعتها ، فحاولت أن تخفيهمـا على الاعداء ، ولكن الضابط الفـرنسى لاحظ عليها ذلك وتقدم اليها وقال :

أتبكين عليه يبدو انك نسيت تحريضك وتشجيعك اياه على الالتحاق «بالفلاقة» •

وكأن الكلمة أيقظت فيها الروح التى كلمت بها ابنها فأجابته بلهجة عنيفـة قاسية ممزوجة بالمرارة والسخرية قائلة :

أتظن اننى أبكى لموت ابنى يا عدو الله ؟ كلا ! بل أبكى على أن ليس لى ولـد آخر يخلفه فى المعركة ! ولكن سأخلفه أنا ! خلفته فعلا فواصلت النضال •

وسارت فى « الدروب الحمر » حتى استشهدت سنة 1960 كما ذكر الاستـاذ الصديـق •

انها المثل الاعلى للام التى تعتقد بأن ابنها للوطن والواجب قبل أن يكون لها، لنرى كيف ضاعت العاطفة أمام الالتزام

فالالتزام الدينى الممزوج بحب الوطن هو سر النجاح فى الثورة الجزائرية ، التى أبهرت العالم وادهشت العدو نفسه الذى لم يكد يصدق الخبر ويستيقظ من حلمه لولا أن رأى بركانا يتفجر تحت قدميه ٠

فلا يزال البعض يتساءل فى دهشة وغرابة كيف استطاع الشعب الفقير الامى الذى لا يتجاوز فيه 5٪ من يعرف القراءة والكتابة أن يتحدى فرنسا وحلفها الاطلسى - كيف غامر بنفسه وقامر بحياته وطالب حريته وراح ينتزعها من مخالب الوحوش الكاسرة ، وهو أعزل من السلاح مجرد من القوة ومن جميع الوسائل العصرية فيقف بصدره العارى ، أمام الدبابات ، والمدافع والرشاشات تحصده حصدا ٠ فلا تسمع منه صراخا ولا شكوى ولا بكاء سوى كلمة « الله أكبر » تملأ الفضاء ويردد الكون صداها وهو يركض الى الموت سائرا نحو الامام يعانق اللهب المشتعل فلا يبالى بتلك القوة بل ساخرا منها لان ايمانه أقوى من تلك القوة المادية المنهزمة المنهارة أمام قوته الثابتة الخالدة خلود الزمان فى وجه الانسان فلا تدهش أيها السائل فالاستعمار نفسه لا يزال حائرا مرتبكا فى أمره يتساءل كيف خرج من الجزائر ٠

لقد كان يكذب بهذا اليوم كما يكذب بيوم البعث والحساب لا يكاد يصدق حتى الآن ، انه خرج منها نهائيا ؛ بل لا يزال تراوده أحلام اليقظة وتستبد به الامانى وتلعب برأسه نشوة العودة ولكن عودته الى المقبرة التى لا رجعة منها ٠

هذا ما تناوله الاستاذ محمد الصديق فى كتابه « الدروب الحمر » ٠

- انه اشادة برسوخ العقيدة ، وقوة الايمان وعلو الهمة وعظمة الاسلام ٠٠٠

- انه اشادة بالامة العربية الاسلامية وأمجادها وعناوينها البارزة عبر عصور التاريخ ٠٠٠

- انه معالم وحدود الشخصية القوية الجديرة بالحياة لانها تبنى ، وتصنع، وتحيا ٠٠٠

ان « الدروب الحمر » سيظل يتوهج نورا ونارا يهدى للتى هي أقوم ، ويفجر الطاقة فى كل قلب ، ويبعث الحرارة فى كل جسم ويدفع فى شوق يتلظى ، وفى ظمأ يتسعر ، الى التغيير ، والاصلاح ، ورد الاعتبار الى الفرد والمجتمع .

ان « الدروب الحمر » يضمن لك طالما أنت أسعد الاوقات تعيشها فى متعة العزة والنخوة والكرامة ، ويعدك خير اعداد لسلوك « الدروب الحمر » التى لا حياة لفرد ولا لمجتمع الا بسلوكها ٠٠٠

فاقرأه أخى القارىء - لتعيش أنت بدورك فى هذا الفيضان الفكرى والوطنى والثورى الذى عشت أنا فيه والذى لا يدرك ما فيه الا من عاش فيه لانه « الدروب الحمر » ٠

اسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب

د٠ عمار الطالبى

ان الامة الحية فى التاريخ لا تنسى من جدد لها أمر دينها ٠ وابنعثها من مرقدها وهداها سبيل رشدها بعد غيها ، وأحياها بعد موتها ٠

ومن حق الامة الاسلامية على رجال العلم والفكر فيها أن يذكروها برموزها التاريخية وبرجالاتها الذين أذكوا فيها معانى الايمان ، ودعوها لما يحييها وأن ينشروا أعمالهم ، ويحللوا آثارهم ، ويبينوا جهادهم للناس ليقتدوا بهم ، ويزيدوا جهادا على جهادهم ٠

ومن السابقين الاولين فى عصورنا الحديثة الى الجهاد فى سبيل احياء الامة الاسلامية ، وتجديد الاسلام فى النفوس وفى الدعوة الى التوحيد الخالص ، والى الشريعة التى ليلها كنهارها لا يزيغ عنها الا ضال ، والى نبذ عبادة أوثان الطبيعه وأوثان البشر ، والكفر بالطاغوت مهما تباينت صورة : من هؤلاء السابقين الامام محمد بن عبد الوهاب النجدى (ت 1206 هـ/1791 م) الذى جاهد فى الله حق جهاده وأبان عن المحجة البيضاء فى التوحيد ، وواجه الجاهلية التى استحكمت فى النفوس ، والشرك الذى هيمن على كثير من القلوب ، فكان نداؤه أول نداء فى عصورنا الحديثة ، وكان صوته أول صوت بلغ صداه مختلف أصقاع العالم الاسلامى ، ينبه الناس من غفوتهم ويدعوهم الى القرآن والسنة ، وأن لا يبقى المسلمون على هامش التاريخ بل يتوجهون الى المنهاج الاسلامى به يعملون ، وعنه ينافحون ، واليه يدعون ، فكان داعية نظرا وعملا ، وكان مجاهدا

---

(1) دعت جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ كلية الشريعة بالرياض الى عقد ملتقى أسبوعى ونظمته من 21 ـ 4 1400 هـ الى 28 ـ 4 ـ 1400 هـ الموافق 8 ـ 3 ـ 15/1980 ـ 3 ـ 1980 ٠

حـق الجهاد فى صحراء نجد التى وان صفت سماؤها ، وطهرت أرضها ، فان التوحيد فيها تكدر ، بعد صفـو ، وأن السنة بهـا مـا خلصـت فى النفوس ، ولا وضحت فى الاعمال ·

فانبرى ابن عبد الوهاب ينفى عنهـا تحريف الغالين وزيغ الضالين ، وعمـل المبطلـين ، وشرك المشركـين ، وضـلال المنحرفين ، فكان نورا يهدى البصائر ، كما تهدى نجومها الاصار فى حالكات الليالى ، فأكرم به من داع ، وأعلم به من هاد وامام ·

وان أعمال جامعة الامام فى أسبوع الشيخ محمد بـن عبد الوهاب لتـذكر فتشكر ، وفى الطروس تسجل وتنشر ، حقـا لقـد كان هـذا الاسبوع ملتـقى للباحثين ، ومجمعا للدارسين ، ومحفلا للمؤرخين والمفكرين ، درست فيه جوانب شخصية الامام المختلفة ، ووفيت حقهـا من الدرس والبحث ، وان أعظـم هذه الاعمـال وأجلهـا ، وأحقهـا بالتنـويه والذكر جمع آثار الشيخ وأعماله العلمية وترتيبها وطبعها فى اثنى عشر مجلـدا مع فهارس مختلفة ، فهيأت هذه الجامعة مـا يحتاجه كل باحث فى هذا الموضوع ودارس فالخطوة الاولى فى بحث أى عالم أو مفكر أو مجدد أن تنشر أعماله ، وأن تحقق آثاره ، لتكون بين أيدى الطالبين ، وهذا الجمع لمؤلفات الشيخ انما قامت به جامعة الامام محمد بن سعود لاول مرة فحصلت الامانة العامة للاسبوع على كل ما تيسر لها من مؤلفات الشيخ المخطوطة والمطبوعة من مختلف مظانها داخل البلاد وخارجها ، وبـلغ عـدد صفحات هذه المجلدات الاثنى عشر 5904 صفحة ·

وطـرحت فى الاسبـوع الموضوعات التالية للبحث :

1 ــ حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآثاره العلمية ·

2 ــ اعتماد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الكتاب والسنة ·

3 ــ صلة دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب بمذهب السلف ·

4 ــ الشبهات التى أثيرت حول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ·

5 ــ تـأثــر الدعـوات الاصـلاحية الاسلامية بدعـوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ·

دعت الامانة العامة للاسبوع العلماء الباحثين مـن مختلف أرجـاء العـالم الاسلامى للمساهمة فى هـذا الملتقـى فحضر جمع غفير منهم ، وجمعت أبحاثهم وطبعت حسـب الموضوعات السالفة فى

مجلدات ، فخصص لكل موضوع مجلد من هذه الدراسات المقدمة فيه ·

وجرت مناقشات حول هذه الابحاث والدراسات فى لجان خاصة ، وعقدت ندوات عامة مسائية أثريت بمناقشات مفيدة واضافات ثرية دعى لها متخصصون وأشرف عليها ذو الخبرة بها والدراية ·

هذا ومن بين الابحاث التى قدمت بحث الدكتور عبد الحليم عويس عنوانه « أثر دعوة الامام محمد بن عبد الوهاب فى الفكر الاسلامى الاصلاحى بالجزائر » أحاط فيه بالموضوع ، وبحث آخر للدكتور مصطفى محمد مسعد عنوانه : « أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى حركة عثمان بن فودى الاصلاحية فى غرب افريقيا » فصل فيه القول عن حركة هذا المصلح الافريقى ودراسة نقدية حول رسائل الشيخ محمد بن عبد الوهاب للدكتور عبد الله الصالح العثيمين الذى يعتبر من المتخصصين فى هذا الموضوع اذ قدم رسالة لنيل الدكتوراه الى جامعة ادنبره ببريطانيا حول «حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وفكره » (1) ·

ومن المدعوين لحضور هذا الملتقى معالى وزير الشؤون الدينية بالجزائر الاستاذ باقى بوعلام ، الا أنه لم يستطع الحضور لانشغاله فى نفس الفترة بمؤتمر وزراء الاوقاف والشؤون الدينية للبلاد الاسلامية بمكة المكرمه ، وحضر الوفد الجزائرى المكون من الاستاذين : عمار الطالبى ومحمد نسيب أعمال هذا الاسبوع كلها ·

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وآثارها

ليس من شك فى أن الشيخ محمد ابن عبد الوهاب كان يدعو بكل قوة الى تخليص المجتمع الاسلامى من البدع والضلالات فى الاعتقدات والاعمال على هدى من الكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ومن التزم بذلك فى مختلف عصور الاسلام ، وأنه على مذهب الامام أحمد بن حنبل (ت 241 هـ) من مجتهدى هذه الامة ، ومن المتأثرين منذ شبابه بابن تيمية (ت 728 هـ) ·

وكان حربا عوانا على الطواغيت كلها : « ابليس ومن عبد وهو راض ، ومن دعا

(1) نشر موجزها بالعربية ، دار العلوم ، الرياض 1979 · وتفضل باهدائى نسخة منها مشكورا وعنوانها بالانجليزية :
Al-Uthaimin, A. Muhammed ibn Abd-al-Wahab : the Man and his works, Ph. I. the sis, Edinburg University, 1972.

الناس الى عبادة نفسه ، ومن ادعى شيئا من علم الغيب ، ومن حكم بغير ما انزل الله (...) والحاكم الجائر المغير لاحكام الله تعالى ، والدليل على ذلك قوله تعالى : « **ألم تر الى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل اليك ، وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا الى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به** » ولا يصبح الانسان مؤمنا الا اذا كفر بالطاغوت « فمن يكفر بالطاغوت ، ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها » (1) .

وان « التوحيد لابد أن يكون بالقلب واللسان والعمل . فان اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلما » (2) .

وبهذا مهد محمد بن عبد الوهاب الطريق لجميع المصلحين الذين جاءوا من بعده في مختلف اقطار الاسلام ، وتأثروا به من قريب أو من بعيد ، أمثال محمد ابن علي السنوسي (ت 1202 هـ/1276 هـ 1781/1859 م) والسيد أحمد الباريلي (ت 1246 هـ) بالبنجات الذي أسس دولة وهابية ، بعد رجوعه من الحج سنة 1237 هـ/1822 م متأثرا بدعوة الشيخ . وكذلك عثمان بن فودي (ت 1169 ـ 1233 هـ/1756 ـ 1817 م) في نيجيريا وظهر أحد تلاميذ فودي المتأثرين به وهو أحمد ولوبوت (ت 1260 هـ/1844) في منطقة ما بين السنغال والنيجر ودخل تنبكتو ، وكان له شأن عظيم في تلك المناطق الافريقية ، وكون دولة اسلامية قاعدتها « حمد الله » .

كما وصلت أصداء دعوته الى الشوكاني (1250 هـ /1834 م) ومحمد عبده (1323 هـ/1905 م) ورشيد رضا (1354 هـ/1935 م) والحركة الاصلاحية السلفية في الجزائر وخاصة الشيخ الطيب العقبي (ت 1960 م) الذي نشأ بالمدينة المنورة ، ثم عاد الى الجزائر 1920 وحارب البدع والضلالات حربا ضروسا فغير النفوس وطهر مدينة الجزائر من كثير من البدع والانحرافات ويبدو أثر الحركة الوهابية التوحيدية في كتاب الشيخ مبارك الميلي : « رسالة الشرك ومظاهره » بوضوح تام ، ولعلنا نعود الى هذه المسألة بزيادة توضيح ، ومن الجدير بالذكر ان الامير عبد الكريم الخطابي المجاهد (ت 1963) كان متأثرا بالدعوة الوهابية في جهاده للاستعمار الفرنسي والاسباني وفي نزعته الاسلامية الراسخة .

---

(1) رسالة « ثلاثة الاصول » من القسم الاول « العقيدة والآداب الاسلامية » ص 195 .

(2) كشف الشبهات ص 91 .

تأملات فى القصص القرآنى

د· أحمد سيد محمد

عندما يستخدم باحث معاصر كلمة القصة ، وينسبها الى القرآن الكريم فانه ينبغى ألا يتطرق الى الاذهان ذلك المدلول الفنى الذى عرفه ميدان البحث فى النقد الادبى الحديث ، فالقصة المعاصرة فى جميع لغات العالم وليدة التطور الذى بدأته أوروبا فى هذا الميدان فى أواخر القرن الثامن عشر الميلادى وتبادلته بلدان العالم المعاصر بالنمو والتطور حيث تميزت فيه أعمال فنية ثلاثة هي :

1 ـ الرواية

2 ـ القصة

3 ـ الاقصوصة

ولا يعنى ذلك أن العصور السابقة لم تعرف الفن القصصى بأية صورة من الصور ، فلقد نشأت القصة مع الانسان منذ كان يقطن الكهوف والغابات، وحفظ لنا تاريخ الفراعنة منذ أكثر من ستة آلاف سنة مجموعة من القصص مثل قصة (سفرو والحكماء) و (نجاة الملاح) وغيرهما كما عرفت بلاد الهند القديمة ألوانا من القصص على يد بوذا المصلح الهندى الكبير ، وعرف الادب اليونانى القصة من خلال الملاحم، ومن خلال اشعار الرعاة ، وتجلت فى أدبهم النثرى ابان القرن الثانى والثالث قبل الميلاد ·

وكان للعرب الجاهلين قصص مختلفة دارت حول الوقائع الحربية المعروفة بايام العرب ووردت فيها الامثال التى عكست الواقع الاجتماعى والنفسى للشخصية الجاهلية ·

وفى التوراة والانجيل قصص عديدة لعب فيها الخيال الاسرائيلى دوره فاثراها ونماها · ومن ثم فان استخدام القرآن الكريم للاسلوب القصصى ليس بدعا عن المألوف من التراث الحضارى والبيئة الجاهلية التى نزل فيها القرآن الكريم ·

فما مدى اهتمام القرآن بهذا اللون من الاساليب ؟

وما أحجام القصة وأشكالها ؟

وما أهدافها ؟

وما موقف الدارسين منها ؟

وما آثارها فى القصص العربى ؟

ان الذى يطالع سور القرآن الكريم يجد كلمة (قصص) وردت فى أكثــر من سبع وعشرين موضعا كما يجــد عنوان سورة منها تسمى « **القصص** » وسورا أخرى بتمامها دارت حول سيرة أو قصة نبى من الانبياء مثل ســورة ابراهيم .وهود ويوسف وغيرها ٠

وأنماط القصص القرآنى يوضحهــا الدكتور أحمد الشرباصى بقوله : (القصة القرآنية قد تتراوح بين الاطناب المناسب، والمتوسط والايجاز وقد يأتى ذلك فى قصة بعينها ، يذكر القرآن منها نمطا فيه تفصيل ونمطا آخر فيه توسط ، ونمطا ثالثا فيه ايجاز ، وكل نمط منها يتعاون مع الآخر دون تكرار ممل أو خلــل معيــب) ٠

واستشهد على هذه الظــاهرة فى القصص القرآنى بقصة موسى عليــه السلام ، فقد أطنب القرآن بذكر جوانب مبسوطة منها فى سورة « الاعراف » و « طــه » وذكر جوانب منها متوسطة الطول فى سورة « الشعراء » ، وعرضها موجزة مركزة فى سورة « النازعات » ٠

وأوضح نموذج للقصة الطويلة فى القرآن هي قصة يوسف التى وردت فى سورة بأكملها بلغت آياتها (III) آية ٠ وهذا الطول فى تلك القصة يتفق والاهداف القرآنية فى الكشف عن نقائص النفس الانسانية والعمل على تهذيبها ، ففى القصة تتجلى نقائص الانسان متمثلة فى غيرة اخوة يوسف من أخيهم وحقدهم عليه ، ومكيدتهم له ، كما تتجلى غرائز الجنس مقرونة بميراثها من مفاتن الجمال ومقاومة هذه الغرائز والغلبة عليهــا وعلى أساس من مراقبة الــلــه ٠ فى موقف امرأة العزيز من يوسف « **ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهانا ربه**» وفيها تصوير صادق لعواطف الابــوة « **وابيضت عيناه من الــحــزن** » وفى القصة مثل واضح لتاثير الصدمــات على الانسان « فيعقوب عندما يلتــقى بقميص يوسف يرتد بصيرا » ٠

وهذه ظاهرة انسانية طبيعيــة ، وليست المعجزة التى يختص بها الانبياء دون سواهم وما يزال علم الطب النفسى يمحص هذه الظاهرة ويستكشف مختلف جوانبها ٠

وفى القصة دروس فى السياســة والاقتصاد يطول الحديث فى شرحهــا وتفصيلها وفى القرآن الكريم قصص موجزة تهدف الى تثبيت دعائم الشريعة الاسلامية فى النفس البشرية فتنــاول بعضها جانب العقيدة وتناول بعضهــا الآخر جانب العبادة ٠ ففكرة الايمــان بقدرة الله المطلقة فى الخلق والبعث تعالجها هذه القصة من سورة البقرة : « **ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن أتاه الله الملك ، اذ قال ابراهيم ربى الذى يحيى ويميت، قال أنا أحيى وأميت، قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمــس من المشرق فات بها من المغرب ، فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين أو كالذى مر على قرية وهي خاويــة على عروشها ، قال أنى يحيى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال كم لبثت ، قال لبثت يوما أو بعض**

يوم ، قال بل لبثت مائة عام ، فانظر الى طعامك وشرابك لم يتسنه ، وانظر الى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر الى العظام كيف ننشرها ثم نكسوهـا لحما ، فلما تبين له قال أعلم أن اللـه على كل شىء قدير » ٠

وفكرة الحض على الزكاة والصدقة تعالجها هذه القصة من سورة القلـم : **« انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ اقسمـوا ليصرمنهـا مصبحين ، ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون ، فأصبحت كالصريـم ، فتنادوا مصبحيـن ان اغـدوا عـلى حرثكم ان كنتم صارمين فانطلقوا وهم يتخافتون ، أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادريـن ، فلما رأوها قالوا انا لضالون بل نحن محرومون قال أوسطهم ألم أقل لكـم لولا تسبحون ، قالوا سبحان ربنا انـا كنا ظالمين ، فأقبل بعضهم على بعـض يتلاومون ، قالوا يا ويلنا انـا كنـا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها انا الى ربنا راغبون ، كذلك العـذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون»** ٠

وفى أسلوب القصص القرآنى الحوار وتصوير الحدث وتجسيمه ويراد بالقصة القرآنية غالبا الدعوة والتربية والتهذيب والتذكير بعبر الانسانية ٠ يقول الامـام محمد عبده : « ان المراد بهـذه القصص الاعتبار والعظة ، ببيان النعم متصلـة بأسبابها للسعي نحو طلبها ، وبيان النقم بعللها حتى تجتنب جهتها ولذلك وجب أن يكون ايراد الوقائع فيها على النحو الذى يكون أبلغ فى التذكير وأدعى الى التأثير ٠

ولا يراد بالقصة القرآنية اشبـاع الخيال أو الامتاع الفنى أو التسلية أو التصوير البيانى ـ فهذه ليست هدفـا مقصودا فى القصص القرآنى ٠ ولذلك لم تلتزم ترتيب المؤرخين أو طريقـة الكتاب فى تنسيق الكلام فقد يأتى جانب من القصة فى موضع معين من القرآن يناسبه ذلك الجانب من القصة دون بقية أحداثهـا ٠

ولقد أثار القصص القرآنى اهتمـام كثير من الدارسين العرب والمستشرقين وكان ممن تناولها « نولدكه » وقدم بحثا مستفيضا فى دائرة المعارف البريطانية عن القرآن الكريم وقال عن أسلوبـه القصصى ، انه يتميز بالضعف حيث تفتقد القصة تسلسلها ، ويقصد بذلك أن القصة لا تروى فى طريقة خبريـة منظمة بل يعتريعها التقطيع والتشويش حتى يصعب فهمها على من لم يطلـع عليها فى مصدر آخر ٠ وعـاب هـذا المستشرق تكرير بعض الالفاظ أو العبارة تكرارا لا مبرر له (عنده) ـ فى القصص القرآنى ـ كما عاب كثرة الانتقال فى سياق الكلام من صيغة الى صيغـة أو حال الى حال ٠ ويقول ان كل عالم أوربى يقرأ الكتاب بروح الانصـاف يرى رأيه ٠ أما المتمسكون من أهـل الاسلام فينكرون هذا الكـلام ويرمون صاحبه بالالحاد ٠

وقد رد عليه الاستاذ أنيس المقدسى بقولـه :

« ومن الانصاف هنا أن نقول : ان نولدكه لم يصب كبد الحقيقة فيما ذهب اليه من نقد الاسلوب القرآنى ٠ اذ

لا يجوز مقابلة هذا الاسلوب بأسلوب القصة فى التوراة لاختلاف الغـرض فيهما . فالتوراة فيه عدا أسفار الانبياء والامثال والاناشيد الروحية حوادث تاريخية منظمة تجرى فيه الاخبار مجراها الواضح العادى . أما القرآن فانه يشير الى الحوادث التاريخية بوثبات أو بحملات روحية لا يقصد بها تسلسل الخبر ، بل يقصد بها الى التذكير والتهويل ، ولذلك ترد مرارا بحسب ما يقتضيه الكلام ، وكثيرا ما تروى على سبيل الاشارة والتلميح .

وقد فلسف الاستاذ الشهيد سيد قطب فى كتابه المشهور (فى ظلال القرآن) ظاهرة تكرار القصة الواحدة وتناثرها فى أجزاء مختلفة من القرآن الكريم بقوله :

« يرد القصص القرآنى فى مواضع ومناسبات وهذه المناسبات التى يساق القصص من أجلها هي التى تحدد مساق القصة ، والحلقة التى تعرض منها ، والصورة التى تأتى عليها ، والطريقة التى تؤدى بها .. تنسيقا للجو الروحى والفكرى والفنى الذى تعرض فيه . وبذلك تؤدى دورها الموضوعى ، وتحقق غايتها النفسية ، وتلقى ايقاعها المطلوب. ويحسب الناس أن هناك تكرارا فى القصص القرآنى ، لان القصة الواحدة قد يتكرر عرضها فى صور شتى . ولكن النظرة الفاحصة تؤكد أنه ما من قصة، أو حلقة قد تكررت فى سورة واحدة ، من ناحية القدر الذى يساق ، وطريقة الاداء فى السياق ، وأنه حيثما تكررت حلقة كان هناك جديد تؤديه بنفي حقيقة التكرار ، ويزيغ أناس فيزعمون أن هنالك خلقا للحوادث أو تصرفا فيها ، يقصد به الى مجرد الفن - بمعنى التزويق الذى لا يتقيد بواقع - ولكن الحق الذى يلمسه كل من ينظر فى هذا القرآن وهو مستقيم الفطرة ، مفتوح البصيرة ، هو ان المناسبة الموضوعية هي التى تحدد القدر الذى يعرض من القصة فى كل موضع ، كما تحدد طريقة العرض وخصائص الاداء ، والقرآن كتاب دعوة ، ودستور نظام ، ومنهج حياة ، لا كتاب رواية ولا تسلية ولا تاريخ ، وفى سياق الدعوة يجىء القصص المختار بالقدر وبالطريقة التى تناسب الجو والسياق ، وتحقق الجمال الفنى الصادق ، الذى لا يعتمد على الخلق والتزويق ، ولكن يعتمد على ابداع العرض وقوة الحق وجمال الاداء » .

ولقد تجلى آثار القصص القرآنى فى القصة العربية واضحة فيما بعد ، فقد بعثت قصص القرآن نهضة عظيمة فى القصص العربى فهناك قصص حول الانبياء عمل فيها الخيال عمله وافتن فيها العقل الاسرائيلى ما أمكنه الافتنان، وقد جمع الثعالبى (المتوفى 427 هـ) مجموعة من قصص الانبياء فىكتابه المسمى « بالعرائس » وقام بعمل شبيه بذلك الكسائى فى القرن الخامس الهجرى .

بســم الله الرحمن الرحيــم

حكم نقل رفات الشهداء الى مقابر صالحة

الى السيـــــد
رئيس المجلس الاسلامى الاعـــلى

يسعدنى أن أحيطكم علما بأن المنظمة الوطنية للمجاهدين تقوم بعملية جمع رفات الشهداء الموزعيـن فى الشعاب والجبال والوديان والتلال تدوسهـــا الحيوانات وتعبث بها ، وهي مبعثـرة فى كل مكان ، قد تكون فى مكان بنـاء مصنع أو عنـد حـفـر بئر أو فى أرض يقومون باستصلاحها - مثلما حصل فى العديد من جهات الوطن ٠ وقد سمعنـا بأن جمع الرفات محرم فى الشريعــة الاسلامية ، وأكد لنا نائب مدير الشؤون الدينية باحدى ولايات الجمهورية تحريم هذه العملية ٠ ان عمل منظمّتنا بعيـد كل البعد عن مصادمة ديننا الحنيف ، واذا كان شهداء الغزوات فى الاسلام كبدر وأحد وغيرهما قد قبروا فى مقابر معروفة آمنة فان شهداء الثورة الجزائرية موزعون فى كل مكان قد قبروا بسرعة فى ظروف صعبة فى قبور لا تحفـــظ جثثهم أو عظامهم جيدا ، وطالما عبثت بهم الحيوانات فنبشت قبورهم ونهشت لحومهم وبعثرت عظامهم ، ولزاما علينا أن نحفظهم قياما بواجب دينى وانسانى وقومى ، ووفاء لروح ثورتنا ، وتخليدا لشهدائنا الابرار ٠

فرجاؤنا من المجلس الاسلامى الاعلى اصدار فتوى بحكم الشرع فى الموضوع يعرف به حكم الشرع ، وتطمئن اليـه النفوس ، ويقتنع الجميع بأن هـــذه العملية تجرى فى اطارها الشرعى ، وتقبلوا فائق احترامنا

يوسف اليعلاوى
الامين العـام
للمجـاهـــدين

بسم اللــه الرحمن الرحيــم

الجــواب

الحمد لله والصلاة والسـلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومـن اتبع هــداه ،

وبعد ، فان حكم نقل الميت قبل دفنه، أو نقل جثمانه أو رفاته من بعد دفنه يختلف باختلاف الحـالات والظروف والمقاصد ، فقد يجوز وقد يجب وقـد يمنع وبيان ذلك فيما يلى :

أولا :

قبل دفنه يجوز نقله من بلد موته أو مكانه الى مكان آخر غير الذى مات فيه ولو من حاضرة الى بادية ليدفن بين أهله ، أو لتسهل عليهم زيارة قبره أو رغبة فى جوار الصالحين المحقق صلاحهم كالصحابة رضوان الله عنهم، وقد جاء فى موطا مالك بن أنس رضي الله عنه « أنه سمع غير واحد يقول : ان سعد بن أبى وقاص وسعيد بن زيد ماتا بالعقيق فحملا الى المدينة ودفنا بها » اه وفى الذين حملوهما ودفنوهما كثير من كبار الصحابة وعلمائهم رضي الله عنهم ٠

كما يجوز اخراج الميت من قبره ـ اثر دفنه ـ بقصد تكفينه أو غسله والصلاة عليه ان دفن دون ذلك ، لما رواه البخارى وغيره من حديث جابر رضي الله عنه قال : « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن أبي بعد ما دفن فأخرجه فنفث فيه من ريقه وألبسه قميصه » اه ٠ وفى المنتقى لشيخ الاسلام ابن تيمية أن معاذ بن جبل رضي الله عنه أمر باخراج رجل دفن ـ حديثا ـ دون غسل ولا تكفين ولاصلاة عليه ، فغسل وحنط ثم صلي عليه » ٠ وفى المذهب ـ كما أشار اليه المازرى فى شرح التلقينى للقاضى عبد الوهاب خلاف فى اخراج الميت لنسيان الصلاة عليه ليصلى عليه ٠

ثانيا :

يجوز اخراج الميت من قبره ، ونقل جثمانه أو رفاته الى قبر آخر لغرض صحيح وقد وقع ذلك فى عهد الصحابة فأقروه ونص عليه فقهاؤنا فى كتبهم المعتمدة ومنها : كتاب الموطا وشراحه ، والعتيبية وشراحها ، ومختصر خليل وشراحه ٠

قال أبو الوليد الباجى فى كتابه (المنتقى) وهو شرح للموطا (لا بأس بحفر القبر واخراج الميت منه اذا كان ذلك لوجه المصلحة ، ولم يكن فى ذلك اضرار به ، وليس من باب نبش القبور لوجه الضرر ، أو لغير منفعة اه ٠ (جاء هذا القول عند شرحه قول مالك فى الموطا (ان عمر بن الجموح وعبد الله ابن عمر الانصاريين ثم السلميين كانا حفر السيل قبرهما ، وكان قبرهما مما يلى السيل ، وكانا فى قبر واحد وهما ممن استشهد يوم أحد فحفر عنهما ليغير من مكانهما فوجدا لم يغيرا كأنما ماتا بالامس وكان أحدهما قد جرح فوضع يده على جرحه فدفن وهو كذلك فأميطت يده على جرحه ثم أرسلت فرجعت كما كانت ، وكان بين أحد وبين يوم حفر عنهما ست وأربعون سنة) اه ٠ وروى البخارى فى صحيحه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما انه حول أباه من قبره بعد ستة أشهر من دفنه قال جابر : (لما حضر أحد دعانى أبى من الليل فقال : لا أرانى الا مقتولا فى أول من يقتل

من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم) ثم قال جابر : (فأصبحنا فكان أول قتيل ودفن معه آخر فى قبر ثم لم تطب نفسى ان أتركه مع الآخر فاستخرجته بعد ستة أشهر فاذا هو كيوم وضعته هنية غير أذنه) اه · وفى فتاوى الشيخ عليش نقل عن شرح العتبية بجواز تحويل الموتى للمصلحة قال : « عن جابر رضي الله عنه قال : (لما أراد معاوية أجراء العين التى جانب أحد أمر مناديا فنادى فى المدينة من كان له قتيل فليخرج اليه ولينبشه وليخرجه وليحوله قال جابر فأتيناهم فأخرجناهم من قبورهم رطابا) اه ·

ونص خليل فى المختصر على جواز النقل بشروط فقال – عطفا على قوله وجاز غسل امرأة صبيا – ما نصه : (ونقل وان من بدو) الخ ، شرحه الدردير بقوله : (وجاز نقل لميت قبل الدفن وكذا بعده من مكان الى آخر بشرط أن لا ينفجر حال نقله ، وان لا تهتك حرمته وان يكون لمصلحة ، كأن يخاف عليه أن يأكله البحر ، أو ترجى بركة الموضع المنقول اليه ، أو ليدفن بين أهله أو لاجل قرب زيارة أهله) اه · وسئل الشيخ عليش عن موتى (فى قبور فناء مسجد وطريق الداخل للصلاة يتساقط منها عظم الاموات فى الطريق فهل يجوز نقل ما فيها من العظم لمحل آخر وحفرها ونقل ترابها الى محل آخر لمصلحة الخوف عليه كما اذا خيف عليه من الغرق » ؟ فأجاب بقوله . (نعم يجوز حفرها ونقل ترابها وعظامها لمحل آخر لهذه المصلحة) ثم استشهد للجواز بما مر من نقل شهداء أحد بأمر من معاوية رضي الله عنه ثم قال : وفى المواق وانظر فى حديث ثالث عن أبى رحال من التمهيد انه يجوز النبش لعذر وان جابر بن عبد الله عنه أخرج أباه من قبره ودفنه بغير ذلك الموضع ، وكذلك فعل معاوية بمحضر الصحابة ولم ينكروا عليه) اه · وفى جواب سؤال آخر جاء فيه : (ما قولكم فيمن دفن بقرب مجرى المياه وخشى عليه انتهاك حرمته من اختلاطه بها فى بعض الازمنة فهل يجوز نقله لصيانته ؟ فأجاب الشيخ عليش بقوله : (نعم ، يجوز بل يجب بشرط كونه بعد تمام جفافه ويشترط فيه – قبل الدفن وبعده – الا يؤدى الى انفجاره ولا هتك حرمته ، قال عبد الباقى ويشترط فى النقل بعد الدفن أنه تم جفافه وان لا ينفجر ولا تهتك حرمته وان يكون لمصلحة كأن يأكله البحر) اه · ثم نقل عن شرحى المجموع ما نصه : (وجاز نقل الميت من موضع لآخر قبل الدفن أو بعده اذا لم يهتكه أي لم يخل النقل بحرمة الميت ويؤذ · فان هتكه وأخل بحرمته وأذاه حرم النقل قبل الدفن · ابن حبيب لا بأس أن يحمل الميت من البادية الى الحاضرة ومن موضع لآخر ، مات سعيد بن زيد وسعد بن أبى وقاص بالعقيق فحملا الى المدينة ، رواه ابن وهب) اه ·

ثالثـــا :

مواراة المسلم ودفنه من الواجبات الدينية نحوه كما استنتجه العلماء من قوله تعالى : « **الم نجعل الارض كفاتا احياء وأمواتا** » وقد جعلوا القبر بيتـه وانه حرز له لو سرق كفنه لوجب قطع يد السارق لان القبر حرز ومكان خاص بالميت فان دفن المسلم بعد غسله وتكفينه والصلاة عليه بمقبرة للمسلمين عامـة أو خاصة ولم يكن محل دفنه مغصوبا وانعدمت المصلحة فى اخراجه من قبره أو قصد باخراجه اهانته ، أو كان نقله يلحق الضرر بجثمانه أو سمعته فانـه يحرم نبش قبره وهتك ستره ـ بقرب أو بعد زمان ـ ما دام شيء منه موجودا فى القبر ٠ وقد سئل الشيخ عليش عن قوم فى الارياف من الفلاحين (يمزقون أجزاء الموتى ويكسرون عظامهم فمـاذا يترتب عليهم ؟ فقال رحمه الله : « يترتب عليهم الاثم والادب الشديد ممن بسـط الله يده وولاه الحكم فيجب التشديـد عليهم فى النهي عنه والمنع منه) اه ٠ ونقل فى فتاويه وفى شرحه على مختصر الشيخ خليل عن ابن الحجاج صاحـب المدخل قوله فيه : « ان العلماء اتفقـوا على ان الموضع الذى يدفن فيه المسلم وقف عليه ما دام منه شيء ما موجودا فيه حتى يفنى فاذا فني فحينئذ يدفـن فيه غيره فان بقى شيء ما من عظامه فالحرمة قائمة لجميعه ولا يجوز أن يحفر عليه ولا يدفن معه غيره ولا يكشف عنه اتفاقا الا أن يكون موضع دفنه قـد غضب » اه ونقل عن المـازرى قولـه فى شرح التلقين : (للميت حرمة تمنع مـن اخراجه من قبره **الا لضرورة**) كما نقـل عن ابن رشد فى امرأة دفنت حديثـا ، وأراد أحدهم نبش قبرها ونقل جثمانهـا فقال : (لا يجوز ان ينبشها وينقلها عن موضعها ولا يحل له ذلك لان حرمتهـا ميتة كحرمتها حيـة فـلا يحـل لـه أن يكشفها ويطلع عليها وينظر اليها ، ولو كان ذا محرم لما ساغ له ذلك منها اذ لا يشك فى تغيرها فيه) ٠

رابعـــا :

مما تقدم ذكره ـ من فعل الصحابة ومن اقرارهم ، ومن اقوال الفقهاء فى كتبهم وفتاويهم ومن شروطهم لجواز نقل الموتى من قبورهم أو لمنع ذلك ـ يتبيـن لنا الحكم الشرعى فيما جاء فى الاستفتاء من (عملية جمع رفات الشهداء الموزعين فى الشعاب والجبال والوديان والتلال تدوسها الحيوانات وتعبـث بها) أو تتعرض لنبش عظامها وكسرها وبعثرتها عند بناء مصنع أو حفر بئر أو استصلاح أرض مثلما حصل فى العديد من جهات الوطن) اه ٠ ونستطيع أن نستنتج حالات المنع ، أو الجواز :

أ ـ فمن كان من هؤلاء الشهداء مدفونا فى مقابر آمنة من مقابر المسلميـن ـ كالذين أعدموا فى السجون أو الذين استشهدوا قرب المـدن والقـرى ـ ولا خطر على قبورهم ولا على رفاتهـم ولا

يصيبهم شيء مما ذكر في السؤال ولا مصلحة عامة ولا خاصة في نبش قبورهم ونقلهم الى مكان آخر الا ان يجمعوا الى اخوانهم الشهداء في مقبرة خاصة ـ فهؤلاء لا تنبش قبورهم ولا ينقلون بل ينبغي ابقاؤهم بمضاجعهم وعدم حرمان اخوانهم المسلمين من أهل تلك المقابر من جوارهم لعل رحمة الله تدرك الجميع بوجودهم معهم ، فالقبر حبس ـ كما تقدم ـ ولا يجوز نبشه وكشف ساكنه ما دام موجودا شيء منه فيه **الا لضرورة أو مصلحة راجحة** ثم ان شئنا تكريم هؤلاء الشهداء فيكفي أن تميز قبورهم بعلامات خاصة بهم وكتابة تاريخ أعمالهم واستشهادهم ـ دون مبالغة في تشييد القبور ورفعها فوق ما أذن فيه الشرع ـ وهو مقدار شبر ـ ولنا أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم في وضع علامة على قبر صاحبه عثمان بن مظعون رضي الله عنه ليعرف ويدفن اليه أهله ٠

ب ـ وما كان من قبور هؤلاء الشهداء في الحالة التي وردت في السؤال متعرضا لاخطار السيول ، وانكشاف العظام ، وعبث الحيوانات ، وحفر الآبار والعيون وبناء السدود وانشاء المصانع واستصلاح الاراضي وغير ذلك ، فالواجب نقله الى المقابر الآمنة الخاصة بالشهداء أو العامة صيانة لهم وحفظا لما بقي من أجسامهم أو رفاتهم ، ووفاء بعهدهم ، ومصلحة قدماء المجاهدين التي تقوم بهذا مشكورة شكر من قام بواجب ، ومن اعترض عليها ـ محجوج بالنصوص التي تقدم ذكرها عن علماء المذهب وغيرهم وعن الصحابة عملا واقرارا ٠

ج ـ مما يبرر نقل الميت ـ قبل الدفن وبعده ـ عند فقهائنا أن يكون الغرض دفنه بين أهله أو لاجل قرب زيارته ، أو لفضل المكان المنقول اليه ٠

قال الدردير في شرح مختصر خليل (أو ترجى بركة الموضع المنقول اليه أو لاجل قرب زيارة أهله) وقال الشيخ عبد الباقي الزرقاني (وان يكون لمصلحة كان يخاف عليه أن يأكله البحر أو ترجى له بركة أهل الموضع المنقول اليه من الصالحين أو يدفن بين أقاربه ، بل يندب في هذا الاخير كما في الطراز ، أولا جل قرب زيارة أهله له اهـ ٠

مثل هذا النقل جائز ، مأذون فيه وليس بواجب فمن شاء فعل ان توفرت الشروط ومن شاء ترك ، وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلى أحد ان يردوا الى مصارعهم، وكانوا نقلوا الى المدينة » رواه الخمسة وصححه الترمذي ، وقال الشوكاني في شرحه للحديث (فيه جواز ارجاع الشهيد الى الموضع الذي أصيب فيه بعد نقله منه وليس في هذا انهم كانوا دفنوا بالمدينة ثم أخرجوا من القبور) اهـ ٠

والظاهر ان الغرض من نقل هــؤلاء الشهداء قرب مكان مقبرة المدينة (بقيع الغرقد) وسهولة زيارة قبورهم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم أمــر بردهم ، ولا شك فى فضل أحد فانه جبل يحبنا ونحبه كما جاء فى الحديث ، وقد اجتمع عند سفحه عشرات الشهـداء الصالحين وهم أفضل خلق الله بعـد النبيئين والصديقين •

وممن يتأكد علينا نقلهم من قبورهـم للمصلحة ـ الشهداء الذين قبروا فى مقابر غير اسلامية ، ليدفنوا فى مقبرة خاصة بهم داخل الوطن أو خارجــه ، أو بمقبرة عامة بين الشهداء وغيرهم ، وهي خاصة بالمسلمين ويوجد مئات أو آلاف منهم خارج الوطن •

خامســا:

رأينا ان فقهاء ناقد شددوا النكيــر عــلى نبش القبــر الواحــد وهتــك ستر صاحبه الا لمصلحة أو ضــرورة ستر صاحبه الا لمصلحة أو ضــرورة حددوها ، وفصــلـوا فى كتب الفقــه أنواعها بدقة ، فكيف بالاقدام على هتك حرمة المقابــر التى دفن فيهــا عشرات الالوف منذ قرون خلت ؟ ان الاســلام يكرم الانسان ويصونه فى حياته وبعد مماته الى درجة لم تصل اليها ـ حتى اليوم ـ الامم(المتحضرة)فانهم طمسوا معظم مقابرنا التاريخية فى المدن ونبشوا قبورها ، وأخذت عظام موتانا الى بعض مصانع السكر فى فرنسا وادخلت فى صناعته وهكذا أكلوا أمواتنا كما أكلوا الاحياء منا ، أما نحن ـ القدماء منــا والمحدثين ـ فان ديننا وخلقنا ووفاءنا لآبائنا واجدادنا تمنعــنــا من اهانــة أمواتنا وازعاجهــم بنبش قبورهــم وخراجهــم مــن بيوت هي حبس عليهم الا لضرورة قصوى توجب نقلهم واعادة دفنهم وليس من هذه المصلحة أو الضرورة الهجوم على مقبرة كبرى تضم عشرات الآلاف من الموتى وبعثرة عظامهم مــن أجل انشاء حديقة أو بناء قرية أو اقامة عمارات أو فتح طريق ، أو تشييد معهد أو جامعة أو مصنع بل يمكن لنــا أن نترك الموتى فى مضاجعهم ونحقق مــا نشاء من منشآت بجوارهم وأرض اللـه واسعة واذا هانوا علينا ونحن أحفادهم فمن يكرمهم غيرنا ؟ وقـد كان الاعتداء على مقبرة الجلاز بتونس بدء الصدام المسلح بين الشعب التونسى والاستعمار الفرنسى عام 1911 م وهي تحوى قبور العلماء والصالحيـن والآباء والاجداد الاقدميــن •

وانما نبهنا بهذه الكلمة حتى لا يساء تفسير (المصلحة) حسب الاهــواء والشرع وحده هو الذى يفسر كلمــة (المصلحة) والضرورة ويحققها ، وقد بينا ـ استجابة للسؤال ـ متى يجــب نقل رفات الشهداء ومتى يجــوز ومــا يمنع وعلى المنتسبين للعلم منا الامناء على الشريعة الاكفاء ـ دينا وعلمــا وخلقا ـ أن يثبتوا عندما يسألون وأن لا يتسرعوا فى أعلان حكــم المنــع أو الجواز الا بعد مراجعة أمهات الكتــب وتطبيق أقوال العلماء عــلى الحالات الطارئــة •

والله الموفق والهادى الى ســواء السبيــل •

من الخطب الجمعية :

الوحدة ودعوة الاسلام اليها

خطبة الجمعـــة ليوم : 17 ـ 6 ـ 1400 هـ

الموافق لـــ : 2 ـ 5 ـ 1980 م

الموضوع : الوحدة ودعوة الاسـلام اليهـــا ·

الحمد لله رب العالمين ، كتب العــزة لرسوله ولعباده المؤمنين ، هو الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحيـــن ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريــك له أمرنا بالاعتصام ، ونهانا عن التفرق والانقسام « **ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء انما أمرهم الى اللــه ثم ينبئهـم بما كانوا يعملون** » وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الامين ، سيد الانبياء كلــهم وامـــــام المرسلين ، فصلوات الله وسلامه عليـــه وعلى آله وسائر صحابته الاكرميـــن ، الذين كانوا فيما بينهم متآخين متحابين لا مختلفين ، ولا متناكــريــن فهدوا الى الطيب من القول وهدوا الى صــــراط الحميــد ·

أما بعد فيا أيها المسلمون : ان فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وازكى التسليم، آثارا متعددة فى كل ما يتصل بشؤون حياة أفراد الامة الاسلامية أجمعيـــن سواء فيما يتعلق بدنياهم أو فيما يتعلق بالدين ، وكتاب الله رب العالمين وسنة النبى المصطفى الامين ، يهيآن الاسباب لوحدة المسلمين ، ويرشدان الى ما ينبغى أن تكون عليه الجماعة الاسلامية فى كل حين ، هذا وان البشرية قبل بزوغ شمس الاسلام ، لم تعرف دعــوة للوحـــدة الانسانية كما جاء بها ودعا اليهـــا القرآن ، وكما طبقها فى حياته بالفعل والقول سيد الانام عليه أفضل الصلاة وأزكى الســلام ، وأصبحـت شريعــة اسلامية بعد وفاته الى الآن ·

ان وحدة المسلمين هي سياج هــذه الامة الاسلامية ودرعها المتين الواقى لها من كل فتنة وبلاء مبين ·

وهو الطابع الذى تتميز به دون بقية الاقوام الآخرين ، ذلك ان وحدتهم هي حقيقة جاءت بها تعاليم الــدين ، ذلكم الدين الذى كان مصدر عـــزة المسلمين ، وسعادتهم أجمعين ، والذى لا زال المسلمون بخير ما داموا بـــــه متمسكين « **والذين يمسكون بالكتـاب وأقاموا الصلاة انا لا نضيع أجـــر المصلحيـــن** » ·

أيها المؤمنون : ان ماضى الامة الاسلامية وفى أمجادنا الخالدة من الاسلاف الصالحين ، عبر تاريخ هذه الدنيا الطويل ما يحفزنا الى الاهتداء بهديهم والسير على منهجهم القويم ، حتى نحقق ما حققوه للامة جمعاء من خير عميم ، فلقد تمسك المسلمون الاولون بأخلاقيات هذا الدين ، الذين كانوا فى جميع تصرفاتهم بها متصفين فغيروا رضوان الله عليهم مجرى التاريخ فى ذلك الحين الى حياة أفضل كانت بردا وسلاما على الناس أجمعين ، وكانوا أمثلة عليا فى أقوالهم وأعمالهم لمن أراد السير فى طريقهم مع السائرين ان واجبنا الدينى يحتم علينا كمسلمين أن نعرف حق المعرفة وأن نعلم علم اليقين بأن وحدة المسلمين هي من صنع الله رب العالمين وليست هي من صنع أحد من المخلوقين « **وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون** » ولنستمع جميعا معاشر المؤمنين الى نداآت الله الحقة والى خطابه الكريم الذى يوجهه الى كافة عباده المؤمنين ، داعيا اياهم الى الاعتصام بحبله المتين ، وعدم التفرق أحزابا وشيعا متباغضين ، فيقول وهو أصدق القائلين « **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا** » كما جاء فى آي الذكر الحكيم • كما جاء فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ان الله يحب لكم ثلاثا ويكره لكم ثلاثا ، يحب لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، واضاعة المال) •

لقد كان لزاما علينا أن نكون بهذه الوحدة التى أمرنابها ربنا متصفين بها فى كل الظروف وعلى كل الحالات متشبثين • « **والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض** » لقد جاء الاسلام ليكون مجتمعا اسلاميا تسوده المحبة والوئام بعيدا كل البعد عن التنازع والخصام وعن كل ما من شأنه أن يؤدى بالجماعات الاسلامية من قريب أو بعيد الى الانقسام لان وحدة المسلمين ، على تباعد أوطانهم واختلاف أجناسهم ولغاتهم والدين حقيقة دعا اليها القرآن الكريم وجاءت بها تعاليم السماء من لدن حكيم عليم ، والتى لا ينبغى أن يخفى أمرها على أي أحد من الناس أجمعين ، وخاصة علينا نحن المسلمين كمسلمين •

أيها المؤمنون : لقد كانت وحدة المسلمين فى عهد أسلافنا من المؤمنين الاولين سبب قوتهم فى هذه الدنيا ونصرهم المبين الذى ما وصلوا اليه الا بفضل تمسكهم بدينهم القويم ، والتفاهم حول نبيهم وقائدهم العظيم واتحادهم أفرادا وجماعات متساندين ،

ففتحوا القلوب والاقاليم فى مدة يسيرة من الاعوام والسنين ، وقهروا بوحدتهم واتحادهم أعداء الله من الكافرين حتى علت كلمة الله فى العالمين ، وظهر دين الله على كل دين ، وامتدت الممالـــك الاسلامية فى مشرق الارض ومغربهـا فى أقل من الثلاثين ، تلك الوحدة الـتى انتصرت بها جيوش المسلمين ، والـتى لا زالـت الى الآن ولن تـزال مصـدر انتصارهم وعزهم فى كل حين ، فالاتحاد سعادة لا سعادة بعدها والتفرق شقاوة لا شقاوة تعادلها ذلكم التفرق الذى هو معول الدمار والخراب ، والذى ما حـل بأمة من الامم الا أذاقها ألوانا مـن العذاب والله يقول : « **ولا تنازعـوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** » وصدق اللـه اذ يقول : « **يا أيها الذين آمنوا اتقـوا الله حق تقاته ولا تموتن الا وأنتـم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكـم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين اللـه لكم آياته لعلكم تهتدون** » ٠

نفعنى الله واياكم بالقرآن الكريـم وبمـا فيه من الآيات والذكر الحكيم ، وغفر لى ولكم ولجميع المسلمين انـه هو الغفور الرحيم ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ٠

الخطبـة الثانيـة

الحمد لله أمدنا بقوة الدين ، وآخى بين جميع المسلمين ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لا شريك له ، ألف بين قلوب عباده المؤمنين ، وجمع كلمتهم ووحـد صفوفهم وكتب لهم العزة والقوة والفتح المبين ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبـده ورسوله سيد الكائنات وأشرف المخلوقات، أنقذ الامـة مـن سـعـير التـفـرق والخصومات ، وجعلهم بالاسلام أمـة واحدة تهدى الى الصراط القويم والى سبل السعادات ، فصلوات ربى وسلامه على سيدنا محمد وعلى آله وسائـر صحابته الذين صفت نفوسهم واجتمعت كلمتهم واتحدت قلوبهم فعاشوا فى هذه الدنيا آمنين ، مطمئنين على أرائك العز والسعادة متكئين ، وفى بحبوحة النعيم متنعمين ، وما عند الله خير وأبـقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ٠

أما بعد فيا أيها المؤمنون : ألا فليعلم وليعلم من لم يكن من العالمين بـأن وحدتنا جاء بها ودعا اليها الاسـلام منذ سنين عديدة مرت من عمر هـذه الدنيا وأعوام تقدر بخمسة عشر قرنا من الزمان ، والتى طلب النبى عليـه الصلاة والسلام من كافة أتباعه من أمة الاسلام ان يكونوا بهذه الوحدة الغالية متشبثين ، وعليها بالنواجذ عاضين ، تلك الوحدة التى استطاع محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون بفضلها دولـة عالمية كبرى فى تلك الايام مما لم يستطع أن يقوم به أي نظام ولا أي دين مـن الاديان ، انه لا يليق ولن يليـق بنـا كمسلمين ، أن نرى أنفسنا متخاذليـن متخاصمين ، وقد جمع بيننا ربنـا

الرحمن الرحيم وألف بين قلوبنا بحبيبه ونبيه الامين ·

ووحد كلمتنا بدينه القويم ، فأجمعنا ـ والحمد لله ـ كلنا اخوانا متحابين ، وخلانا فى السراء والضراء متكاتفين ، متعاونين على ما فيه خير البلاد والامة والوطن والدين ، لنعلم حق العلم بأن الله لا يرضى أن يرانا مختلفين متدابرين ، لاننا ان فعلنا ذلك فقد خالفنا ما أمرنا به رب العالمين ، الذى طلب منا طلبا أكيدا بصفتنا مسلمين ، أن نكون جميعا متحدين ، متعاونين ، غير متناكرين ، معتصمين بحبل الله المتين ، غير متفرقين ولا منقسمين ·

أيها المؤمنون : لقد بين لنا ربنا سبحانه وتعالى غاية التبيين ، عاقبة الاختلاف والافتراق وانه شر على الامة مستطر ، حيث أخبرنا بما حل بمن قبلنا من الامم الماضية من خزي فى هذه الدنيا وعذاب أليم ، بسبب اختلافهم وتفرقهم أحزابا وشيعا متباغضين ، فقال وهو أصدق القائلين : « **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم** » كما يقول نبي الاسلام عليه الصلاة والسلام : (عليكم بالجماعة ، فانما يأكل الذئب من الغنم القاصية » كما يقول : « يد الله مع الجماعة ، ومن شذ شذ فى النار » من أجل هذا نجد الاسلام شديد الحرص على وحدة المسلمين ، حتى يتم الانسجام ين أفراد الجماعة الاسلامية أجمعين ، حتى يكونوا كمش اللبنة القوية التى يتكون منها البناء الحصين ، ولذلك نجد الرسول عليه الصلاة والسلام يقول فى وصف المؤمنين : (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) كما يبين لنا صلى الله عليه وسلم الحالة التى ينبغى أن تكون عليها جماعة المؤمنين فيقول : (ترى المؤمنين فى تراحمهم وتعاطفهم وتوادهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) والله تعالى لم يخلق عباده ليختلفوا ولا ليتنازعوا ويتباغضوا ويتخاصموا ، وانما خلقهم ليتعارفوا ويتراحموا ، وليكونوا جميعا اخوة متحابين ، وعلى ما فيه خيرهم وسعادتهم متعاونين ، وصدق الله اذ يقول : « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير** » ·

اللهم ألف بين قلوب عبادك المؤمنين، واجمع شملهم يا رب العالمين ، ووحد على الحق كلمتهم يا أرحم الراحمين ، أنت ولي المتقين ، والآخذ بيد المستضعفين ، لا يعجزك يا رب شيء فى الارض ولا فى السماء وأنت على كل شيء قدير ، ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤوف رحيم ·

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ·